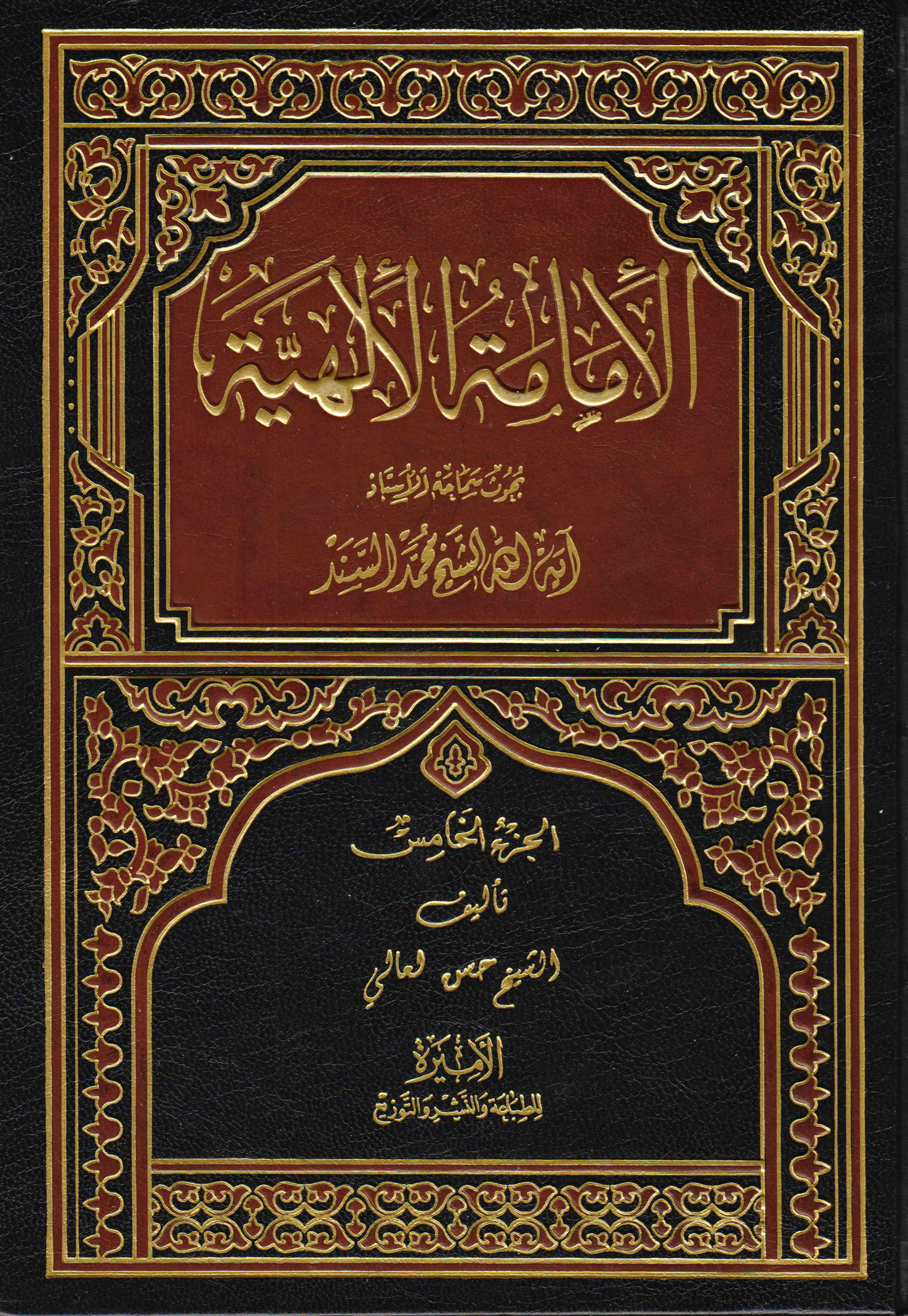

الإمامة الإلهية
بحوث سماحة الأستاذ
آية الله الشيخ محمد السند
الجزء الخامس
تأليف
الشيخ حسن العالي
الأميرة
للطباعة والنشر والتوزيع


الإمامة الإلهية

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م



للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

هاتف: ٠٣/٩٤٦١٦١ - ٠٣/١١٥٤٢٥ - تلفاكس: ٠١/٢٧٦٩٨٨

http://www.Dar-Alamira.com

e-mail:zakariachahbour@hotmail.com



بحوث سماحة الأستاذ

آية الله الشيخ محمد السند

الجزء الخامس

تأليف

الشيخ حسن العاملي

الأميرة
للطباعة والنشر والتوزيع

مقدمة المقرر

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صلِّ على محمدٍ وآل محمد، عدد ما في علمك، صلاة دائمة بدوام ملكك، وأسألك اللهم أن تبصرنا معرفة وليك لنبتغي إليك به الوسيلة غي نجح آمالنا وتحقيق مطالبنا، فإنه لا ينال عرفانك إلا به، ولا يقضى أمرك إلا بوصله..

ما هي الوسيلة؟

قال الراغب الأصفهاني:

الوسيلة: التوصل إلى الشي برغبة، وهي أخص من الوصيلة[١].

وقال ابن الأثير:

في الأصل: ما يتوصل به إلى الشي ويتقرب، وجمعها وسائل[٢].

وعلى ضوء المعنى اللغوي يتبلور المعنى الاصطلاحي للفظ الوسيلة وهو:

الوصلة التي يتوصل بها إلى معرفة الله وقربه وطاعته ومحبته، ولما كان الأولياء المصطفون هم الوجه الوجيه عند الله تعالى والحبل الممدود بين السماء والأرض، طرف منه غيبي بيد الله تعالى، وطرفه الآخر مادي عيني بيد الخلق؛ يكونوا بذلك

---

(١) الراغب الإصفهاني، المفردات ص٥٣٨.

(٢) ابن الأثير، النهاية في غريب الحدث ج٥ ص١٨٥.

أقوى وأدل وأنجح وأقرب وأسمى الوسائل الدالة على الله تعالى، وأوسع الأبواب الموصلة إلى نيل عرفانه والاحتظاء بمرضاته تعالى.

ولقد دعانا القرآن الكريم وبصورة مؤكدة بينة إلى ابتغاء الوسيلة واتخاذ الوصلة إليه تعالى، مرة بلفظ الوسيلة كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١]، وأخرى بالحث على التلبس بواقع التوسل كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[٣].

وتشير الآية الأخيرة إلى ضرورة اجتماع وترافق وسائل دينية عديدة من أجل تأهل الأعمال الصادرة من العبد للصعود إلى الله تعالى، وأول تلك الوسائل هي الحضور طوعانية عند الحضرة النبوية المعظمة، وثانيها الاستغفار والتوبة والرجوع الذاتي من قبل العبد، وثالثها توجه الرسولﷺ بالدعاء والاستغفار والطلب والتوسط للعبد لأجل أن ينال الحظوة عند الله تعالى.

ويهدف اجتماع هذه الوسائل ـ عمل العبد وحضوره عند الرسولﷺ وتوجه الرسولﷺ إلى الله ـ إلى فتح الطريق أمام العبد ومضاعفة خطواته وطي مسيره في الصعود إلى القرب الإلهي.

وعند هذه النقطة نشير إلى هذا السؤال:

لماذا أقر الله تعالى وأوجب في القرآن الكريم التعلق بالوسائل، وأمر العبد بابتغائها

---

(١) سورة المائدة (٣٥).

(٢) سورة المنافقون (٥).

(٣) سورة النساء (٦٤).

واتخاذها في التقرب والتصاعد والعروج والتكامل الروحي، وقضاء الحاجات ونيل المطالب؟

الجواب:

إن إلزام المشرع الإلهي الخلق بابتغاء الوسائل إليه تفرضه ضرورات عديدة:

الضرورة الأولى: دونية العبد

مما لا شك فيه إن الوجود الإنساني ـ على ما فيه من مزايا تكوينية فطرية ـ وجود دوني سفلي لحلول تلك المزايا الروحية في تكوين الإنسان المادي الخلقي.

وقد أشار أهل المعنى إلى أن الجانب المعنوي في الإنسان رهين بقيود البدن الغليظة، مما يثقل ويشق على الروح تصاعدها إلى عالم المعنى لنيل كل زلفى وحظوة إلهية، وقد شبهوا أسر الروح في قفص البدن بأسر الطائر ـ الذي يحمل في أصل وجوده القدرة على التحليق والطيران ـ في القفص المادي.

وقد دلت الروايات على هذه الدونية الخلقية التي ولّدت موانع للإنسان في طيه للطريق المعنوي، منها: ما في البحار عن السيوطي في الدر المنثور: عن ابن عباس قال: «خلق الله آدم من أديم الأرض يوم الجمعة بعد العصر، فسماه آدم، ثم عهد إليه فنسي، فسماه الإنسان.

قال ابن عباس: فبالله ما غابت الشمس من ذلك اليوم حتى أهبط من الجنة.

قال: وإنما سميت المرأة امرأة لأنها خلقت من المرء، وسميت حواء لأنها أم كل حي»[1].

وأما عن أبي بصير قال: سأل طاووس اليماني أبا جعفر عليه السلام: لم سمي آدمُ آدمَ عليه السلام

---

(١) بحار الأنوار. العلامة المجلسي ج٥٧ ص٢٦٥.

قال: «لأنه رفعت طينته من أديم الأرض السفلى»[١].

فتشير الروايات إلى العقبات التي طرأت على الروح الإنسانية بسبب تركبها في البدن المادي، مما يضطر الإنسان إلى التعلق بالوسائل التي تقوم بوظيفة الارتقاء والتسامي به عن الهبوط، والتسافل الذي يقتضيه البدن المادي.

الضرورة الثانية: دونية العالم الدنيوي

وينبه على هذه الحقيقة روايات عديدة، منها ما في جواب أمير المؤمنين عليه السلام عن سؤال اليهودي: «وإنما سميت الدنيا دنيا لأنها أدنى من كل شيء»[٢].

ومنها جواب النبي صلى الله عليه وآله عما سأله يزيد بن سلام، حيث سأل لم سميت الدنيا؟ فقال صلى الله عليه وآله: «لأن الدنيا دنية خلقت من دون الآخرة، ولو خلقت مع الآخرة لم يفن أهلها كما لا يفنى أهل الآخرة».

قال: فأخبرني لم سميت الآخرة آخرة؟ قال: «لأنها متأخرة، تجي من بعد الدنيا، لا توصف سنينها، ولا تحصى أيامها، ولا يموت سكانها»[٣].

قال المجلسي بيان:

قوله في الخبر الأول «لأنها أدنى من كل شيء» أي أقرب بحسب المكان أو بحسب الزمان، أو أخس وأرذل على وفق الخبر الثاني...

وبالجملة الأدنى والدنيا يصرفان على وجوه، فتارة يعبر به عن الأقل فيقابل بالأكثر والأكبر، وتارة عن الأرذل والأحقر فيقابل بالأعلى والأفضل، وتارة عن الأقرب فيقابل بالأقصى، وتارة عن الأولى فيقابل بالآخرة، وبجميع ذلك ورد

---

(١) بحار الأنوار. العلامة المجلسي ج١١ ص١٠٠.

(٢) علل الشرائع. الشيخ الصدوق ج١ ص٢.

(٣) بحار الأنوار. العلامة المجلسي ج٥٤ ص٣٥٦.

التنـزيل على بعض الوجوه.

وقال الجزري: الدنيا اسم لهذه الحياة؛ لبعد الآخرة عنها[١]. انتهى

فإذا كانت الدنيا أدنى وأخس وأحقر العوالم لأنها العالم الخلقي، فأنى للنازل فيها والمتلبس بسفليتها أن يرتبط بالعوالم الأمرية العلية من دون أن يبتغي سلم الوسائل ومدارج الوصائل التي تقوم برفع الإنسان عن دونية المحل الواقع فيه؟! فهبوط العالم الدنيوي وسفليته ونزوله تقتضي ضرورة اتخاذ الوسائل العديدة ليتحقق الصعود والارتفاع لنشأة أسمى وأرفع.

الضرورة الثالثة: طي الطريق ومضاعفة الخطوة

من المقرر في علم الكلام إنه لا حد ولا أمد ولا نهاية للمسافة بين العبد وربه، بمعنى أن كل نقطة قريبة يصعد إليها الإنسان لها ما هو فوقها بشكل غير متناه، فإذا ما لوحظ في مقابل هذه الحقيقةِ حقيقةٌ أخرى تتعلق بقصر أمد عمر الإنسان في هذه الدنيا، أي أن الوقت الزمني الجدي الذي يستثمره العبد ويستهلكه في علاقته المعنوية بخالقه قصير ومحدود بحيث لا يتجاوز مجموعه الإجمالي عشر سنين، في حين يستهلك العمر الباقي بين نوم ولعب ولهو وأكل ولوازم شخصية، وعلى ضوء ذلك فالسؤال ما هو السبيل لتوسعة ذلك العمر القصير ليكون طريقا لبلوغ أسمى الدرجات وأشرفها في معرفة الخالق وعبادته؟

والجواب: إنه لا طريق للتصرف في الزمن المقرر لوجود الإنسان، لكن الطريق مفتوح للتعويض عن محدودية عمر الإنسان في مضاعفة خطوات سيره إلى الله، وطي المسافة الممكنة بينهما، وهذا الهدف السامي هو ما يتحقق من خلال الوسائل

---

(١) المصدر السابق.

العبادية والعقائدية التي تكشف ظلمات الطريق وحجب الغـيب، ليـتسنى للـعبد الارتقاء لنيل الدرجة القريـبة الممكنة، ولا أنجع في هذا الطريق من ابتغاء وسيلة الحضرة النبوية وأهل بيته ﷺ، وهذا ما عبر عنه الشيخ الأستاذ المؤلف (حفظه الله) في واحد من بحوثه المقبلة في مطاوي الكتاب من أن «النـبي وأهـل بـيته ﷺ هـم الأبواب والحجب والسدنة».

الضرورة الرابعة: عظمة المعبود

وتحتل هذه الضرورة موقع الصدارة بين كل الضرورات السابقة، وهي الإبداع الذي يتجلى للقارئ الكريم في هذا الكتاب، حيث إن الشيخ الأستاذ (دام عـزه) خرج بالبحث عن طور الاستدلال على جواز عقيدة التوسل عقلا وشرعا ـ كما هي عادة المتكلمين والمفسرين من الفريقين ـ إلى الاسـتدلال عـقلا وشـرعا عـلى ضرورة التوسل في نيل كل حظوة وكمال وقرب إلهي، فإذا ما هجر العبد التوسل والتقرب بالنبي وأهل بيته ﷺ امتنع عليه الوصول إلى نيل المـعرفة بـالله تـعالى، وانسد أمامه باب عبادته وقربه، واستحال عليه إنجاز أي حاجة معنوية أو مادية، والسبب في ذلك ما بينه الشيخ الأستاذ بما لا مزيد عليه في هذا الكتاب مـن أن متاركة التوسل انفراط للركن الركين من التوحيد.

ويمكن تأييد الحقيقة التي وصل إليها الشيخ الأستاذ في البحث الذي بين يديك بما يذكره أهل المعنى، من أن خطاب الله تعالى لأحد من خلقه بلا واسطة محال، إلا من هم في مستوى الأنبياء والأولياء ﷺ الذين وصلوا إلى الغـاية فـي التكـامل المعرفي والعبادي.

وتقريب ذلك بأن يقال:

إن خطاب الله تعالى بمعناه العام ـ سواء كان الخطاب المعرفي بإنزال الكتب والصحف والآيات، أو الخطاب التكويني بإنزال الفيض الإلهي المعنوي والمادي ـ يتوقف على اللياقة والكفاءة في المخاطب، وليس في الوجود أحد حصل المستوى المطلوب من اللياقة سوى الأنبياء والأولياء عليهم السلام، وفي مقدمتهم سيد الأنبياء وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام، وهذا بنفسه بيان لضرورة التوسل بهم والتوجه إليهم واللواذ بحضرتهم، لكي يخاطبوا ويواجهوا من قبل الله تعالى، فيتنزل الفيض بواسطتهم إلى سائر الخلق، فإذا ما سلك العبد طريق الإباء والتكبر والتعالي على تلك الوسائل الإلهية، انسد أمامه باب الله الذي منه يؤتى، وسبيله الذي منه يقصد، فلا يبقى أمام العبد أي طريق لتحقيق آماله وبلوغ مآربه.

وإلى نفس المفاد يشير العلامة المحقق الخواجوئي في كتابه مفتاح الفلاح ـ في ذيل قول الإمام علي عليه السلام في دعاء الصباح: «صلِّ اللهم على الدليل إليك في الليل الأليل» ـ بقوله: «لما كانت النفوس في الأغلب منغمسة في العلائق البدنية الحاصلة بسبب تدبير البدن وتكميله، مكدرة بالكدورات الطبيعية الناشئة من القوة الشهوية والغضبية، وكان ذات المفيض عز اسمه في غاية التنزه عنها، ولم يكن بينهما بذلك مناسبة موجبة لفيضان كمال.

وجب عليها في استفاضة الكمالات واستنجاح المطالب والحاجات من تلك الحضرة المتنزهة التوسل إلى متوسط يكون ذا جهتي التجرد والتعلق، ليقبل ذلك المتوسط الفيض منه بتلك الجهة الروحانية التجردية، وتقبل النفس منه بهذه الجهة الجسمانية التعلقية»[1].

---

(١) العلامة المحقق الخواجوئي، مفتاح الفلاح ومصباح النجاح في شرح دعاء الصباح ص٦٧.

وفي الختام:

اسأل الله عز وجل أن ينفعنا جميعا بعلم أستاذنا الكبير آية الله المحقق ـ الجامع لعلوم دينية شتى ـ الشيخ محمد السند، واسأل القارئ الكريم الإغماض عن ما في هذا الكتاب من الاشتباهات الصادرة غفلة مني.

حسن العالي

مقدمة المؤلف «دام ظلّه»

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا يكتنه، ولا يحاط به، ولا يحده حد، ولا ينتهي إلى مدى، ولا يجانس، ولا يماثل، ولا يشاكل، وهو مع ذلك ظاهر بآياته وهي وجهه الدائم، متجل بفعله، معروف بأسمائه.

والصلاة والسلام على السبيل الأعظم لمعرفته، والصراط الأقوم للتقرب إليه، أكبر آياته، وأقرب وسائله النبي المصطفى، وعلى آله أبوابه ومفاتيح غيبه.

وبعد:

فإنه قد قالت البضعة النبوية الطاهرة سيدة نساء أهل الجنة ﷺ في خطبتها: «واحمدوا الله الذي لعظمته ونوره يبتغي من في السموات والأرض إليه الوسيلة، و نحن وسيلته في خلقه ونحن خاصته ومحل قدسه ونحن حجته في غيبه»[1].

وهي تشير إلى أن الطريق الحنيف إلى معرفة التوحيد بعيداً عن التشبيه، وخروجاً عن التعطيل هو منحصر بابتغاء الوسيلة، وأن الإعراض عن ابتغاء الوسيلة لا محالة يوقع إما في التشبيه أو التعطيل، وكلاهما زوال لمعرفة التوحيد، وإن زعم التمسك به شعاراً وعنوانا من دون حقيقة.

فقولها ﷺ: «واحمدوا الله» أي صفوه وانعتوه بالكمال، ووحدوه في الإلوهية

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ج١٦ ص٢١١.

والصفات والأفعال، ثم بينت السبيل إلى ذلك وإلى معرفة التوحيد ببيان البرهان على ضرورة ذلك السبيل وعلى الانحصار به، فذكرت عظمة الخالق وهي تنزهه عن النقص وعدم انتهائه إلى حد، وشدة نوره التي لا تقف عند منتهى، وهو بمثابة ذكر البرهان على استحالة معرفة الباري بالاكتناه والإحاطة والمثل والمشاكلة والحس والجس واللمس والمجابهة والمواجهة والمحاذاة؛ لأن كل ذلك يستلزم محدودية ذات الباري تعالى في الحد والنهاية.

وإذا استحالت معرفته بذلك فامتناع معرفته بقول مطلق هو التعطيل في المعرفة، وهو باطل أيضاً؛ لأن التعطيل يستلزم هو الآخر المحدودية في ذاته تعالى والانتهاء إلى حد لا يظهر تعالى فيما وراءه، وتعالى سبحانه عن أن يكون له ما وراءه شيء غيره، فلم يبق إلا المعرفة بالآيات المخلوقة وهي الوسيلة إلى معرفته وتوحيده.

وكلما كان المخلوق أعظم خلقة كان أعظم آية في العلامية على صفات الباري وعظمته، وبالتالي فإن أعظم المخلوقات على الإطلاق يكون هو أعظم آية على الإطلاق، وتكون بقية الآيات دونه، بل حكاية كل الآيات هي عبر أعظم آية، فهي الوسيلة على الإطلاق لكل الآيات المخلوقة.

وقد ثبت بالضرورة أنه ﷺ أعظم خلق الله تعالى، وقد سمّاه الباري تعالى برحمة للعالمين كل العالمين، وبرءوف رحيم، ومن ذلك يعلم أن أنجح الوسائل وأعظمها هو سيد الكائنات، وقد قرن الله تعالى به أهل بيته في التطهير، والاحتجاج على أهل الكتاب، وعلم الكتاب كله، والولاية، وافتراض الطاعة، ومقامات أخرى اصطفاءاً لهم.

ومن ذلك يعرف خطورة التوسل بالوسيلة وأنه يتوصل به إلى معرفة التوحيد في مقام الذات والصفات فضلاً عما دونه من توحيد الأفعال والعبادات، كما أن التوسل بالوسيلة إقامة للتوحيد في الولاية؛ لأنه تولي ولي ولاية الله تعالى.

بل إن جملة من الآيات والروايات تقتضي شرطية التوسل والتوجه بهم في صحة أو قبول العبادة، فلا تقتصر الشرطية على ولايتهم بمعنى الإيمان بإمامتهم كما هو ظاهر كلمات كثير من الأصحاب، بل لا بد من الالتجاء إليهم والاستشفاع بهم إليه تعالى.

بل إن هذا الشرط شرط في قبول الإيمان بالله تعالى ورسوله وأوصياءه كما هو مفاد جملة من الآيات، فإن مقتضاها أن الإيمان ما لم يكن مقرونا بالخضوع والإقبال والتوجه بالحجج المصطفين فإنه لا يصعد إليه تعالى، ولا تفتح له أبواب السماء كما وعظنا القرآن الكريم في سور متعددة في ملحمة آدم ﷺ وإبليس، فإنه شدد النكير على إبليس من كل من جهة إبائه أي عدم تصديقه، ومن جهة استكباره على خليفة الله في الأرض أي عدم خضوعه له وعدم توجهه به إلى الله تعالى، وكما ندد القرآن بالمنافقين من جهة إبائهم عن اللجوء والالتجاء والاستشفاع والتوسل برسول الله ﷺ وصدهم عنه واستكبارهم عن الخضوع له، وكما في سورة الأعراف حيث حتم سد أبواب السماء والجنة عن كل من كذب بالحجج أو استكبر عليها تدليلا على ضرورة كل من الأمرين وهما الإيمان واللجوء والتوجه أو التوسل بحجج الله تعالى على خلقه.

وفي الحقيقة إن ما جرى من البحث المحتدم من كون الولاية لله تعالى ولنبيه ولأهل بيته المعصومين ﷺ من أصول الإيمان ومن أركان صحة أو قبول العبادات والأعمال لا يقتصر على الإيمان بل يشمل التولي بمعنى التوجه بهم والاستشفاع واللواذ بهم والعكوف على بابهم وحضرتهم.

وليتنبه أن شرطية توسيطهم والتوجه بهم في صحة الإيمان ليست على حذو ما يعرف من زيادة الإيمان بالأعمال الصالحة والعمل بالأركان ونقصه بتركها، بل المراد بهذه الشرطية حسب ما دلت عليه الآيات والروايات هو عدم صحته من

رأس أو عدم قبوله من الأساس بدون هذا الشرط، فهو ليس شرط كمال بل شرط قوام وتقوم.

وبكلمة إن الإثارات المتشددة ضد التوسل بالنبي ﷺ وأهل بيته ﷺ هي مبينة لأهمية وخطورة دور التوسل والاستشفاع والتوجه بهم إلى الله تعالى، وكل هذا التحسس من الإقبال على حضرة النبي ﷺ وحضرات أهل بيته ﷺ هو لحساسية هذا العمل وموقعيته كشرط لقبول الإيمان، وهذا مما لم نشاهد بلورته في الكتب والأبحاث الكلامية بجلاء بيِّن.

ولولا هذه المواجهات العنيدة لما حصل التنبه لركن التوسل في الإيمان، وإذا أراد الله تعالى أن يحيي أمرا قيض له من يعاديه ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾، ولقد أثلج صدري ما رقمه ـ اللوذعي الألمعي الفاحص الباحث عن دقائق المعارف الشيخ حسن العالي دام توقده في المعرفة ـ وقرره في أبحاثنا في ذلك، والمسير في درب الحقائق لا يقف عند منزل إلا وتتلوه منازل.

أرجو من الباري الهادي إلى سواء السبيل أن ينفع به لمن تدبره وأمعن النظر فيه روية.

٢٥ رجب الأصب

يوم وفاة الإمام موسى بن جعفر ١٤٢٦ هـ

محمد السند

مقدّمة البحث
وفيها نقطتان

الأدلة القـرآنـية والأحـاديث الشـريفة والبراهين العقلية تطلعنا وتبصرنا على أن مـعرفة تـوحيد الذات لا يـتحقق إلا بالتوسل، فالإيمان بالواحد الأحد والفـرد الصمد لا يتحقق في الحـقيقة إلا بـابتغاء الوسيلة.

النقطة الأولى: لا توحيد إلا بالتوسل

لا توحيد إلا بالتوسل، ولا يوحد الموحد ربه إلا بأن يتوسل، وربـما يـبحث الكثير عن التوسل وإمكانه ومشروعيته، أو يترقى البحث إلى ضرورته، لكن كـل ذلك ليس وقوفا على حقيقة ما للتوسل من دور خطير ودعامة كبرى في الإيمان والتوحيد، فإن الأدلة القرآنية والأحاديث الشـريفة والبـراهـين العـقلية تـطلعنا وتبصرنا على أن معرفة توحيد الذات لا يتحقق إلا بالتوسل، فالإيمان بـالواحـد الأحد والفرد الصمد لا يتحقق في الحقيقة إلا بابتغاء الوسيلة، فشأن التوسل أعظم شأنا من كونه لقضاء حاجة واستجابة دعاء، بل هو يترقى على ذلك إلى تأثيره في تحقيق وإنجاز أصل العبادة والمعرفة وتوحيد الذات، فخطورته متصاعدة إلى أصل أصول الدين وهو توحيد الذات والصفات والأفعال والأسماء، ولربما كانت هناك مقولة تفسر النبوة والإمامة «الشـهادة الثـانية والشـهادة الثـالثة» بأنـها مـن أركـان

التوحيد، وأنها أبواب أخرى للتوحيد ومجال له، فهي بالتالي مراتب للتوحيد وأركان له، وهذه المقولة تعتمد في تبيان ذلك على تقرير أن حاكمية الله في التشريع توحيد في التشريع، وهي مؤدى الشهادة الثانية والاعتقاد بالنبوة، وأن حاكميته تعالى في الطاعة توحيد في الولاية، وهو مؤدى الشهادة الثالثة والاعتقاد بالإمامة، إلا أن التوسل يعمق تفسيرا آخر لذلك ويبين أن الاعتقاد بالنبوة والإمامة يقوم توحيد الذات والصفات لا مجرد أنه يقوم التوحيد في مقام التشريع ومقام الولاية والطاعة، بل إن إقامة معرفة توحيد الذات والصفات لا سبيل له إلا الوسيلة والتوسل بالآيات وأعظم المخلوقات وأكرم فعل الله وخلقه، وذلك لأن التوحيد سبيل الحنيفية المائلة عن التشبيه والتعطيل.

فإن الذات الإلهية الأزلية السرمدية بعد كونها غير متناهية ولا محدودة، لا بحد عقلي ولا بحد روحي ولا بحد نفساني فضلاً عن الحد الجسماني والمادي، فعلى ضوء ذلك فلا سبيل للمخلوق إلى إدراك الخالق؛ لأنه بذلك لا يكتنيه أي لا يدرك كنه ذاته، كما إنه لا يجبه لأنه ليس بجسم ليكون في حيز محدود محاط ومحاصر فيقابل ويجابه، بل ليس في البين مجابهة على النمط العقلي أو النفسي فضلاً عن المادي، كما لا يجس ولا يحس ولا يمس، كيف وليس هو محاط كالجسم، وليس بمقهور كي تعمل فيه آلات الحس.

فمع كل ذلك فكيف للعقول أن تناله وأنى للقلوب أن تبصره ولا يصار إلى امتناع معرفته؛ لأنه تعطيل وهو بمنزلة الإلحاد والإنكار، فمن أنكر المعرفة من رأس فقد قال بالتعطيل والإنكار، ومن أثبت المعرفة بالحس أو المس أو الجس أو بالجبه أو بالإكتناه فقد صغر الخالق وحدده ونعته بالمقهورية المحاطة، فلا سبيل إلى معرفة ذاته إلا بآياته، وهي أفعاله من عظائم مخلوقاته وكبير بدائعه ودقائق صنعه وتكوينه، فيتجلى لعارفيه بالآيات والأفعال وهي أسماؤه العظمى، إذ قد

تسمى بها لأنها أصبحت علامات عليه وسمات لصفاته.

فلا سبيل لمعرفته إلا بأسمائه، وهي آيات خلقه الكبرى، وهي أبواب سماء عزه وحجب نوره، وهي الوسيلة إليه.

ومن ثم أمر عز شأنه وجل جلاله بابتغاء الوسيلة، إذ لا سبيل إلى معرفته إلا بها، وليس الأمر بابتغاء الوسيلة عبثاً حاشى وكلا، بل لضرورة قصدها وانحصار الطريق إليه تعالى بالتوجه إليها.

وبهذه الوجيزة يتبين أن الوسيلة ضرورة في صميم إقامة معرفة الذات والصفات فضلاً عن مقامات التوحيد الأخرى، كيف لا ولم تتعرف العقول على ذاته إلا بمظاهر أفعاله وآياته الكبرى التي هي وجهه الدائم الذي لا يبيد، فإن جل أدلة الحكماء والبراهين التي استرشدوها في معرفة التوحيد هي براهين إنية تنطلق في المعرفة من المعلول «المعلوم» إلى العلة «المجهول»، ومن المخلوق إلى الخالق، وإن أسموها برهان الصديقين وأدلة لمية، إلا أن نقوض ونقود بعضهم على بعض شاهدة على كونها معرفة مسيرها من الآية إلى ذي الآية، وقد أعظم القرآن معرفته تعالى بالآيات، فترى الكتاب المجيد يجلجل منادياً بهذا السبيل، وهو سبيل آياته وهو الوسيلة إلى معرفته.

النقطة الثانية: كل ما يرتبط بالنبي وآلهﷺ وزانه وزان الأصول

وعموما إن كل ما يرتبط بالنبي وأهل بيتهﷺ من قصدهم وزيارتهم، وإحياء مجالس ذكرهم، والاحتفال بمواليدهم وتعظيم ذكرياتهم، والعزاء على مصائبهم وما شابه ذلك، ليس وزانه الاندراج في فروع الدين فحسب، بل هو مرتبط بأصول الدين أيضا، ألا ترى إنهم يذكرون في أدبياتهمـ التي يسطرونها في كتبهم أو يتلونها في محافلهمـ أن التوحيد في العبادة يرتبط بأصول الدين، إذ أن العبادة إما توحيدية

أو شركية، وهذه المقولة في إطارها كشعار صحيحة، إذ الفعل وإن كان في صورته الظاهرية من فروع الدين لكن لبه وجذوره يرجع إلى أصول الدين، إذ الفروع ليست منقطعة عن الأصول، ومن ثم سميت بذلك لتفرعها عليها وانحدارها وانشعابها وتنزلها من شجرتها، فكل غصن من فروع الدين هو انشعاب من الأصول، ونهايته ترتبط بالأصول التي هي جذوره وخلفية مؤداه.

وبنفس التقرير يقال في الطقوس التي نرتبط عبرها بالنبي وأهل بيته ﷺ، فمن الخطأ أن يقتصر في قراءتها على أنها فرع من فروع الدين، بل تعظيمها في الاكتراث بها والتحفظ عليها غاية التحفظ.

ومن ثم ذكر غير واحد من العلماء بما فيهم بعض علماء الشافعية والمذاهب الأخرى في مؤاخذتهم على هذه الجماعة «جماعة التكفير» إن مؤدى جفائهم ورفضهم لأشكال الارتباط بالنبي وأهل بيته ﷺ من الزيارة والتوسل به والتعلق به عبر صور الآداب المختلفة يحمل في طياته وطويتهم قطيعة لسيد الأنبياء ﷺ وتمردا وتجرءا على ساحته المقدسة.

فالخطب ليس في هذه المراسم من جهة أنها صورة في الفروع، بل فيما تحمله في طياتها من معان، فكما يتحسسون في العبادة بزعمهم أنها لابد أن تكون توحيدية مرتبطة بأصول الدين، كذلك هم يخاطبون ويحاجون ويدانون بأن تلك الطقوس التي لا يكترثون لها ويستهينون بها ويستصغرونها هي حاملة في أسرارها وطياتها معان ترتبط بأصول الدين، ومفادها أن سيد الرسل ﷺ هو رسول رب العالمين، وأنه نبي من الأنبياء، فضلا عن أن الأمم مرتبطة بضرورة معية الشهادتين في كمال التوحيد، وأنه لا يتم بـ«لا اله إلا الله»، بل إن أي مسلم من المسلمين لو ادعى أن التوحيد يتم بـ«لا اله إلا الله» من دون بقية الشرائط لكفر؛ لأن دعامة التوحيد بالشهادة الثانية.

وما لنا لا نرى واقع الشهادة الثانية في أدبيات تلك الجماعة التـي تـتشدق بحمل راية التوحيد، فهل إن إغفالهم وعدم اكتراثـهم بـمؤديات الشـهادة الثـانية وتداعياتها وما تمليه من معان ولوازم وطقوس، هل إغفالهم لكل ذلك وقع غفلة وبشكل عفوي وصدفة غير مقصودة !!

بل إنهم لا يقتصرون على الإعراض عن ذلك، بل هاهم يحاربون كل ما هو من مظاهر الشهادة الثانية وطقوسها، فأين هي معطيات الشهادة الثانية فـي أدبـياتهم الكتبية التي تنشر وتوزع على المسلمين في مواسم أداء العبادة؟

وهل إحياء الدين يتم بإعلان كلمة التوحيد «لا اله إلا الله» من دون أن يضم إليها الشهادة الثانية، فضلا عن أنهم أخفقوا في الشهادة الثالثة ويقومون بتأليف ونشـر جملة من الكتب بعضها يحمل اسم: «حقوق النبي بين الإجلال والضلال» وكل ما في هذا الكتاب إزراء بالنبيﷺ بالتشبه بالتأويلات المتشابهة من الآيات القرآنية مع التنكر للآيات الأخرى والتعامي عنها.

فها نحن نرى سياسة قريش التي حاربت النبيﷺ منذ القدم مستمرة إلى يومنا هذا، تلك السياسة العدائية السابقة مع خاتم الأنبياءﷺ التي أرادوا بها أن يخمدوا ويميتوا ركنية النبوة في التوحيد.

وهاهي السياسة الأموية التي تحاول تشطيب وتهميش دور العترة الطاهرة، والتطاول عليها لغاية النيل من نفس النبيﷺ وبـالتالي الرجـوع بـالمسلمين إلى المسار الجاهلي السابق.

الفصل الأول

▣ وجوه الاستدلال على مسألة التوسل

إن الاقتراب من القريب إلى الله اقتراب إلى الله، والدنو ممن هو

قاب إن الاقتراب من القريب إلى الله اقتراب إلى الله، والدنو ممن هو

قاب قوسين أو أدنى من الباري تعالى هو دنو من الله تعالى..

وجوه الاستدلال على مسألة التوسل

قد أكثر أتباع بعض المذاهب الإسلامية في تكفير المسلمين نتيجة استغاثتهم بالرسول ﷺ وندائهم له بـ«يا رسول الله» أو «يا أبا القاسم» أو «يا حبيب الله»، أو الاستغاثة بعترته المطهرة بنداء «يا علي» أو «يا فاطمة يا بنت رسول الله»، فيرمون غيرهم بالشرك وهم قد وقعوا فيه، وينادون بالتوحيد وهم قد ابتعدوا عنه، إذ لو صدق هذا الشعار الذي يرفعونه واستصوب لكان إبليس رائد التوحيد والملائكة أشرك المشركين، حيث قد رفض التوجه بآدم في عبادته بربه، بينما توجهت ملائكة الرب كلهم أجمعون في عبادتهم بخليفة الله في أرضه وجعلوه واسطة بينهم وبين ربهم، وليس وراء هذه الإثارات إلا إنكار حجية هؤلاء الحجج الإلهيين، والإبعاد عن الارتباط بهم، وقطع الصلة الروحية بالنبي وأهل بيته عليهم السلام.

هذا مع أن الذي يتوجه ويستغيث بالنبي وعترته عليهم السلام إنما يتوجه إليهم ويستغيث بهم بصفة أنهم مقربون عند الله عز وجل، ولهم مقام الشفاعة الكبرى والمقام المحمود، واعتقاد المسلمين أنه ﷺ صاحب الوسيلة والدرجة الرفيعة، فهل ترى أحدا من المسلمين يتوجه إلى الرسول ﷺ وعترته؟ ويتوسل بهم ويستغيث بهم إلا لقربهم من الحضرة الإلهية ولكونهم أبواب سماء الرحمة؟

فالمسلم يجد نفسه بالتوجه إلى النبي وعترته؟ هو متوجه إلى الحضرة الإلهية، وأنه حين يستغيث بهم فقد استغاث والتجأ إليها، وهذا أمر مفطور عليه البشر، ألا ترى أن الذي يلتجئ إلى وزير السلطان يقال إنه قد التجأ إلى ذلك السلطان؟

فالمتوجه إلى النبي ﷺ إنما يتوجه إليه بتلك الصفة، وهذا معنى بين واضح ومركوز في ذهن واعتقاد كل مسلم.

فإن الاقتراب من القريب إلى الله اقتراب إلى الله، والدنو ممن هو قاب قوسين أو أدنى من الباري تعالى هو دنو من الله تعالى، كما أن الوصال والاتصال بحبيب الله تحبب إلى الله تعالى، كيف لا وقد وصف الباري نبيه؟ بالرحمة للعالمين؟! وأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، فهل التوجه إلى رحمة الله إلا رحمة؟ وهل الصد والبعد عن رحمة الله إلا نقمة وشقاء؟ وهل التعلق بالعترة إلا ركوب في سفن النجاة؟ إذ هو المغزى من وصفه؟ عترته بسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وهوى، فهو حث منه من الاقتراب من العترة والانشداد إليهم.

فإن الانجذاب إليهم انصهار في هديهم وتطبع لأخلاقهم وتأثر بأنوارهم ينجر إلى إتباع صراطهم ومنهاجهم، وأما الابتعاد عنهم والنفرة من ذكرهم، والاستيحاش من أسمائهم، والاشمئزاز من الحديث عنهم، ولوي الأعناق عن الاهتمام بشأنهم، لا يورث إلا البعد عنهم، والمتاركة لنهجهم والتخلف عن ركبهم، ونبذ كلامهم وهديهم. وهذا سر تركيز القرآن الكريم على مودتهم، فإنها وإن كانت فعلا عاطفيا وانجذابا نفسانيا وميلانا روحيا وانسيابا قلبيا، إلا أنها مفتاح المتابعة لهم والاقتداء بهم وتولية الوجه شطرهم، إذ كيف يقتدي الإنسان بشخص وهو يبغضه؟ وكيف يقتدي به وعلاقته به جافة بجلافة؟ وكيف ينتهج هديه وهو غض فض معه، ينفر من ذكره واللهج باسمه؟ فأمر الله في القرآن بمودتهم ينطوي على سر عظيم في الاهتداء بهديهم والانتهاج بصراطهم والتقيد بوصاياهم، وهل انشداد المسلمين إلى رسول الله ﷺ وعترته إلا لكونه رسولا من رب العالمين، وإلا لكونه داعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا.

واعلم أن هاهنا قاعدة شريفة هامة عظيمة الأثر في باب العبادات وآداب

التقرب إلى الحضرة الإلهية ألا وهي:

«التوجه إليه تعالى بوجهه الكريم» أي «استقبال وجه الله عند التوجه إليه» أي «التوجه إليه تعالى بالوجه بالوجيه عنده».

ويوضح هذه القاعدة الشريفة ويدلل عليها عبر أمور نسوقها فيما يلي من الوجوه.

الوجه الأول

إذا بطل التعطيل والتشبيه فلا يبقى إمكان لمعرفته وإخراج العلاقة معه عن الحدين الباطلين إلا بتوسط آياته الخلقية وأثاره ودلائله، وهو الوجه الذي بقصده وبتوسطه يحصل التوجه إليه تعالى.

التوجه بالوسائل ضرورة عقلية

اقتضاء التوجه والاستقبال والاتجاه القصد إلى وجه الشي الذي يراد الدنو منه ، وليس المراد من هذه المعاني ما يتبادر إلى الذهن في الوهلة الأولى من الاستقبال الجغرافي الجسماني كما هو الحال في استقبال المسجد الحرام حال الصلاة، بل الاستقبال المعنوي لما يتجه به ولما يكون الاتجاه إليه توجه إلى الباري تعالى، وحيث إن ما يتجه به إلى الله يطلق عليه وجه الله، أي إلى جهة يتجه بها إلى الله لا ما يتبادر عند المجسمة والمشبهة ﴿وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً﴾.

إذ الوجه والجهة هما من مادة واحدة في أصل الاشتقاق، فأطلق على الوجه وجه؛ لأنه الجهة التي يتوجه بها ويواجه بها، وليس وجه الله كما يزعمه المشبهة المجسمة أنه جزء الذات الإلهية، إذ ليست الذات الإلهية تفتقر إلى أجزاء، ولا هي محدودة بأبعاد وأعضاء، تعالى الله عما يقوله الضالون علوا كبيرا، بل وجه الله هو فعله وآياته التي لا تفنى ولا تبيد.

ومن هنا أطلق في القرآن وجه الله على آيات الله المخلوقة؛ لأنها علامات تتجه بالناظر إليها والمتدبر فيها إلى الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[١].

فأطلق وجه الله على الآيات في المشرق والمغرب كما أطلق الوجيه على النبي عيسى والنبي موسى عليهما السلام حيث قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[٢].

وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾[٣].

فأطلق على كل منهما وجيها نظرا لقربهما وجلالة شأنهما عند الله تعالى، فيقال لهما وجه عند الله، أي مما يتجه إليهما في نجح الحوائج عند الله.

قال الخليل: «والوجه مستقبل كل شيء، والجهة النحو، والوجهة القبلة وشبهها في كل شيء استقبلته وأخذت فيه»[٤]. انتهى

وقال ابن منظور: «ووجه كل شيء مستقبله»[٥] انتهى

فيقال لشخص وجاهة عند آخر ووجيه عنده بمعنى أنه يقصد ويتوجه إليه ويستقبل به لنجح المسئول عند الآخر.

ومن ذلك يطلق على باب البيت أنه وجه البيت، ومن ثم قال تعالى: ﴿وَأْتُواْ

---

(١) سورة البقرة (١١٥).

(٢) سورة آل عمران (٤٥).

(٣) سورة الأحزاب (٦٩).

(٤) كتاب العين ج٤ ص٦٦.

(٥) ابن منظور في لسان العرب ج١٣ ص٥٥٥.

الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾[١].

فعلم من ذلك: إن القصد إلى الله تعالى لا بد فيه إن يستقبل وجه الله، أي ما يكون وجيها عند الله يتجه به إليه، وأن المستقبل له يتجه به إلى الله.

فالقصد والاتجاه والسلوك والوصول والتقرب والتوجه يتضمن فيه وينطوي معنى الاستقبال إلى الوجه وهو ما يتوجه به، ولأجل ذلك فرض في الصلاة كعبادة استقبال المسجد الحرام كقبلة يتوجه إليها لتتوجه بها إلى الله، كالباب الذي يؤتى منه البيت.

فإذا كانت الكعبة ـ شرفها الله قدرا وعظمها ـ صلحت أن تكون قبلة يتوجه بها إلى الله فكيف لا يكون من تشرفت به الكعبة وهو سيد الأنبياء وسيد الأوصياء عليهما السلام قبلة يتوجه بها إلى الله تعالى؟

وقد قال الله تعالى في موسى الذي مر وصفه بالوجيه عند الله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].

فكانت بيوت موسى وهارون قبلة لبني إسرائيل، بمعنى أنها قبلة يتعبد فيها ويتجه بها للعبادة.

قصد الشي توجه لوجهه

ثم إن هناك ضرورة في مقام التوجه إلى الله تعالى وهي أن يتوجه بشي ويستقبله كي يتوجه به إلى الله تعالى، سواء كانت تلك القبلة جسمانية مادية أو

---

(١) سورة البقرة (١٨٩).

(٢) سورة يونس (٨٧).

معنوية مجردة، وهذه الضرورة تنبع بسبب تنـزه الباري عن الجسمية وتنـزهه عن إحاطة الأذهان والأرواح البشرية بذاته الشريفة، وحيث امتنع ذلك على البـاري للزوم النقص إلا أنه لا ينسد الباب لمعرفته وقصده والتوجه إليه، وإلا لزم التعطيل، وإنما امتنع الجسمية عليه والإحاطة بذاته للزوم النقص عليه وهو بطلان التشبيه.

فإذا بطل التعطيل والتشبيه فلا يـبقى إمكان لمعرفته وإخراج العلاقة معه عن الحدين الباطلين إلا بتوسط آياته الخلقية وآثاره ودلائله، وهو الوجه الذي بقصده وبتوسطه يحصل التوجه إليه تعالى.

فإقامة المعرفة بتوحيده بعد إبطال التشبيه والتعطيل إلى مقام التنـزه والإثبات بآياته وكلماته وهي أسماؤه التي بها يدعى.

وتقريب ذلك ببيان أوضح وأعمق: إن ذات الباري لا محدودة، وكل من صوَّر لها صورة في عقله أو حسه أو خياله أو وهمه، فالباري مـنـزه عـنها؛ لأن هـذه الصورة تبقى محدودة، وهو أجلَ من أن يحد وتنتهي ذاته إلى حد معين، وإلا لعاد ناقصا ومفتقرا إلى ما وراء ذلك الحد سواء كان ذلك الحد جسمانيا أو معنويا مجردا، وحيث إن ذاته لا محدودة فلا يمكن للمخلوق سواء كان جسما أو روحا أو نورا أن يمس أو يحس أو يجس أو يتعلق بذاته أو يكتنيها، فإذا امتنع مثل ذلك الاتصال والارتباط فلا إمكان له إلا عبر المخلوق الذي هو من آياته وآثاره، لكن لا بذلك المخلوق من حيث هو هو، بل من الجهة التي تلي فعل الرب، أي من حيث إنه فعل وأثر للباري وله دلالة عليه، فلم يكن هناك إمكان لدلالته على ذاته إلا بآياته وهي مخلوقة له، فمن ثم تحتم أن يكون وجه الله هو آياته وآثاره التي تدل عليه وتهدي القاصد إليها التوجه إليه، فهذا يـبين ضرورة الأسماء التي هي الآيات المـخلوقة، وإنما استحقت أن تكون أسماء إلهية لآيتيتها أي علاميتها على الباري تعالى، ولا يمكن الاهتداء للذات الإلهية إلا عبر الأسماء، والسمة هي العلامة وهو معنى الآية،

ومن ثم فإن الذي ينكر ويجحد الآيات ويستكبر عليها فقد صدَّ عن التوجه إلى الله تعالى وانصرف عن السبيل على الله، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾[1].

فجعل الباري تعالى آياته أبواب السماء المنتهية إلى عرشه وبالتالي إلى حضرته القدسية.

فالباب إلى السماء هو الوجه الذي يتجه إليه للصعود إلى الله على مستوى العمل والعبادة والدعاء والاعتقاد، فكيف يتجه ويتوجه إليه تعالى بغير آياته؟ وكيف يمكن أن يكون وجهه غير آياته؟ وكيف يدعى بغيرها إذ هي الأسماء والعلامات عليه؟ وقد أشار الله تعالى في قوله: ﴿وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾[2] إلى هذه الحقيقة والضرورة، فكما لا يمكن أن يدعى بغير أسمائه، إذ كيف يهتدي إليه بغير اسمه؟ إذ أن المجهول المطلق لا سبيل إليه ولازمه التعطيل، وبأسمائه عرف وقصد وتوجه إليه، وكيف يكون الاسم غير الآيات؟ إذ مر أن الذات لا يحاط بها ولا تكتنه ولا يتعلق بها مباشرة، فلم يبق إلا آثاره ودلائل فعله وهي آياته.

---

(١) سورة الأعراف (٤٠).

(٢) سورة البقرة (١٨٩).

الوجه الثاني

فلا ينفع الإقرار بالشهادة الأولى من دون الشهادة الثانية، ولا بالشهادتين من دون الإقرار بالشهادة الثالثة، وهي إمامة أمير المؤمنين والأئمة المعصومين عليهم السلام.

النبي وآله أبواب الحضرة الإلهية

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾[1].

ومفاد هذه الآية الشريفة أن الوفود على الله والتوجه إليه لا يكون إلا من أبوابه، وأن الطريق إليه تعالى لا يكون إلا منها، وأن تلك الأبواب هي آياته الخلقية وأعظمها أنبياؤه ورسله كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾[2].

كيف لا وقد زود الأنبياء والرسل والأئمة بالآيات التي هي المعجزات للدلالة على مقاماتهم الاصطفائية، وكونهم سفراء ووسطاء بين الله وخلقه.

مضافا إلى أن إسناد التكذيب للآية في مقابل التصديق بها يدل على أن المراد

(١) سورة الأعراف (٤٠).

(٢) سورة المؤمنون (٥٠).

من الآية هي الحجج المصطفون؛ لأنهم هم الذين يصدق بهم ويتعلق الإيمان بحجتهم ومقاماتهم في مقابل تكذيبهم، بخلاف الآيات التكوينية فإنها لا يتعلق بها التصديق والتكذيب بذاتها، بل الإعراض أو النظر إليها وإلى دلالتها.

فالمراد بالآيات في هذه الآية الذين يتعلق بهم التصديق أو التكذيب وهم الحجج الإلهية.

شرطية الإيمان بالآيات في صعود الأعمال

وتدل الآية السابقة على أن أي عمل للإنسان وأي عبادة، ولو كان الفعل من قبيل الإيمان والعقيدة، لا تصعد ولا تفتح لها أبواب السماء للقبول إلا بالخضوع والإيمان بآيات الله، وهو شرط دخول الجنة.

فيستفاد منها أن التوجه والتوسل بالحجج شرط في صحة الإيمان فضلا عن كونه شرطا في العبادات وبقية الأعمال، وأن الاقتصار على الإيمان بالله ورسوله والأئمة من دون التوجه والتشفع بهم إلى الله لا يكون مقبولا ولا تفتح له أبواب السماء، بل لا بد من اقترانه بالتوجه أو التوسل أو التشفع بهم إلى الله تعالى.

ويدل على اشتراط هذا الشرط في صحة الإيمان وقبوله ما وقع وصدر من إبليس الغوي من إباء وجحود خلافة آدم، واستكباره عن الخضوع والسجود له، فجعل سبب كفره كل من الإباء والاستكبار أي الجحود وعدم التوجه بآدم، فلم يقتصر على الجحود، بل ظاهر الآيات في سور عديدة أن كلا من عدم الإيمان بخلافة آدم وعدم التوجه به كلا منهما سبب مستقل موجب لغواية إبليس وطرده عن باب الرحمة الإلهية.

وهذا يؤكد أن الإيمان لا بد أن يكون مقرونا بالتوجه بحجج الله إلى الله تعالى، والتوسل بهم واللواذ بهم وإلا لما صح الإيمان.

ومن الأدلة على هذه الشرطية ما سيأتي في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾[1] من تقرير أنه لم يكتف بإيمانهم بسيد الأنبياءﷺ، بل أخذ عليهم الانقياد له لأجل إعطائهم مقاما عقائديا يحلونه في العقيدة وهو مقام من النبوة والرسالة والتي هي بنفسها من أصول الاعتقاد.

فإذا كان الانقياد لسيد الأنبياء يورث أصلا اعتقاديا فهو مما يشير إلى خطورة موقعيته وضرورة ضميمته للإيمان.

ومن الأدلة ما سيأتي أيضا في الوجه السادس من قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2] حيث تدل الآية على أن الوصول إلى الله معرفة وسيرا ووفودا لا يتم إلا عبر التوسل بالوسيلة والتوجه بها إليه، وبالتالي عدم تحقق الإيمان إلا بذلك وهو المراد من صحة الإيمان.

وعلى ضوء ذلك يتبين أنه كما حرر أن الإيمان ليس مجرد إدراك، بل تصديق وإذعان وجزم، كذلك يضاف هنا أنه ليس مجرد تصديق وإذعان وإخبات، بل تول عملي بالتوجه والانشداد لهم واللواذ بهم.

فلا ينفع الإقرار بالشهادة الأولى من دون الشهادة الثانية، ولا بالشهادتين من دون الإقرار بالشهادة الثالثة، وهي إمامة أمير المؤمنين والأئمة المعصومينﷺ، حيث وصفهم القرآن الكريم بالطهارة وهو معنى الاصطفاء الإلهي، كما نعت المطهرين بعلم الكتاب، ومقتضاه حجيتهم إلى غير ذلك من أوسمة القرآن لهم الدالة

---

(١) سورة آل عمران (٨١).

(٢) سورة المائدة (٣٥).

على اصطفائهم وحجيتهم.

مضافا إلى أن التعبير في الآية في المقام هو بالجمع «بآيات الله» خطابا لهذه الأمة بالسنة الإلهية الدائمة، فلا ينحصر المراد بسيد المرسلين ﷺ، بل يعم أهل بيته الأطيبين عليهم السلام..

وإن الذي يريد أن يتوجه إلى الحضرة الإلهية من دون أن يخضع ويتولى النبي ﷺ والأوصياء عليهم السلام لا تفتح أبوابها حتى يلج الجمل في سم الخياط.

ولأجل استكبار إبليس عن الخضوع لآدم عليه السلام كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾[1] عن آية الرحمن فلم يقبل إيمانه، ولم تزك عبادته، وردت عليه؛ لأنه لم يقصد الحضرة الإلهية ولم يتوجه إليها بآدم عليه السلام.

فعلم من هذه الآية أن آيات الله هي الأبواب التي من استكبر عنها وصد فقد صد عن التوجه إلى الله تعالى.

فإذا كان الباري قد جعل آياته وأولياءه المصطفين أبوابه، فكيف يؤمل من يستكبر عن التوجه بهم إلى الله أن يحصل له القرب الإلهي والوصول إلى الزلفى والحضرة الإلهية !!

فمفاد الآية الكريمة ضرورة التوجه إليه تعالى بأوليائه المقربين من الأنبياء والمرسلين والأوصياء المطهرين عليهم السلام علاوة على التصديق والإيمان بهم، فهو شرط في الإيمان فضلا عن سائر العبادات والأعمال.

وفي الكتاب المعروف لأمير المؤمنين عليه السلام الذي كتبه إلى أكابر أصحابه، والذي قد رواه الكليني بسنده في كتاب الرسائل، ورواه السيد الرضي عنه أنه قال: «قيل فمن الولي يا رسول الله ﷺ فقال: وليكم في هذا الزمان أنا ومن بعدي وصيي ومن بعد

---

(١) سورة البقرة (٣٤).

وصيي لكل زمان حجج الله كيما لا تقولون كما قال الضُّلال من قبلكم فارقهم نبيهم ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى﴾[١] وإنما كان تمام ضلالهم جهالتهم بالآيات وفهم الأوصياء فأجابهم الله: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾[٢] وإنما كان تربصهم أن قالوا نحن في وسعة عن معرفة الأوصياء حتى يعلن الإمام علمه، فالأوصياء قوام عليكم»[٣].

واستشهاده ﷺ بالآية في غاية الظهور، حيث إن أهل الضلال يوم القيامة يتعذرون لعدم إتباع الآيات بعدم وجود الرسول، ولا يقبل عذرهم هذا؛ لأن اللازم عليهم الفحص والمعرفة بالآيات لكي يتبعوها، فالحجة قائمة عليهم.

وجه آخر في شرطية التوجه بهم إلى الله في صحة العبادات

ومن الوجوه التي يمكن تقريرها بحسب صناعة الاستدلال على ذلك ما هو مقرر في مباحث أصول الفقه ومباحث علم الفقه، من أن قوام المغايرة بين العمل التعبدي والعمل التوصلي هو بالنية والقربة، وأن من مقومات النية قصد امتثال الأمر قربة إلى الله تعالى، فنية القربة والزلفى قصدها كغاية مسبب عن قصد آخر بمثابة السبب وهو قصد الأمر، بل في الحقيقة امتثال الأمر الإلهي، وهذا القالب لنية القربة ولنية سببها مقرر في جميع العبادات من الصلاة والحج والصوم والزكاة وغيرها، وقوام عبادية العبادة بذلك حيث إن قصد امتثال الأمر المحقق للقربة والزلفى إلى الحضرة الإلهية هو في الحقيقة طوعانية وطاعة لله تعالى، فقوام العبادية بالطاعة،

---

(١) سورة طه (١٣٤).

(٢) سورة طه (١٣٥).

(٣) كشف المحجة لثمرة المهجة. السيّد ابن طاووس الحسني ص١٩٠، وبحار الأنوار ج٣٠ ص٣٩.

والعبودية والطاعة من باب واحد، كما أن المعبودية والربوبية والمطاع بالذات من باب واحد، وحيث إن جميع شرائط العبادات هي لا تقتصر على فرائض الله بل تشتمل على سنن النبي ﷺ بضرورة الدين عند المسلمين ويكون إتيانها في العبادات امتثالا لأمر الرسول ﷺ طاعة له بتبع طاعة الله التي هي طاعة ذاتية لتحقيق العبادة لله تعالى، كان قصد القربة الذي يحقق النية العبادية هو مسبب عن قصد امتثال أمر الله تعالى وأمر الرسول ﷺ، وكذلك الحال في سنن أوصياء النبي ﷺ فإن جملة من شروط العبادات وبعض موانعها قد سنها الأوصياء من عترة النبي ﷺ وعلى كلا التقديرين فإن إتيانها في العبادات هو امتثال لأمرهم ﷺ، وبالتالي فتكون نية القربة لله تعالى في العبادات مسببه عن نية امتثال أوامر الله تعالى وهي فرائضه وأوامر النبي ﷺ، وهي سننه وأوامر الأوصياء وهي هديهم ومنهاجهم وطريقتهم.

وهذا التقرير لبيان عبادية العبادة من مباحث التعبدي والتوصلي في علم الفقه وأصول الفقه لم يبلور في الكلمات، ولكن القالب الصناعي لتقرير النية في التعبدي هو ذلك، وهذا مطابق لعموم قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1].

فجعل مقرونا بطاعته طاعة الرسول ﷺ وأولي الأمر، مع أن الطاعة هي العبودية، والعبودية خاصة لألوهيته تعالى، إلا أن طاعة الرسول ﷺ وأوصيائه ﷺ بيان لباب طاعة الله، وبالتالي لعبادته.

كيف لا وهذه الطاعة لله في الآية عامة وشاملة لعموم أبواب الدين لا يشذ عنها فصل من فصوله، كذلك طاعة الرسول ﷺ وأولي الأمر؟، وبالتالي فهم أولياء دين الله، هذا فضلا عن عشرات الموارد التي قرن الله بطاعته طاعة رسوله في السور

---

(١) سورة النساء (٥٩).

القرآنية.

وقد يصعب على البعض تصور هذا المطلب فضلا عن التصديق والإذعان به، أو قد يستغربه البعض الآخر، فلنعد تقريره وبيانه بعبارة أخرى، فإن جملة ما تقدم من الأدلة والآيات دال على شرطية التوسل واللواذ بهم والتشفع بهم إلى الله في العبادات، وما مر من صيغة قصد امتثال الأمر ما هو إلا صيغة صناعية كقالب لذلك.

ولك أن تقول: إن الصلاة التي يأتي بها المؤمن صلاة على وفق منهاج ومذهب جعفر بن محمد عليه السلام، أي أن الصلاة وغيرها من العبادات إنما يؤتى بها بالصورة المأمور بها من قبل الأئمة عليهم السلام المرتبطة بالصورة التي أمر بها الله ونبيه صلى الله عليه وآله، ومن ثم تمثيل أوامر الأوصياء كامتثال أوامر النبي صلى الله عليه وآله في ضمن العبادة التي يؤتى بها امتثالا لأمر الله.

فالعبادة هي لله وحده لا شريك له، إلا أن الباب والمفتاح لإتيان تلك العبادة الخالصة له تعالى لا يتحقق إلا بامتثال أوامر الرسول وأوصيائه عليهم السلام.

ومن ثم يتبين أن العابد في أثناء أداء العبادة إذا أراد الزلفى والقرب إلى الله تعالى، لا بد له من أن يتوسل إلى ذلك بالتوجه بالنبي وأهل بيته عليهم السلام إلى الله، وذلك عبر امتثال أمرهم في ذات العبادة الخالصة لرب العالمين، فامتثال أمرهم نافذ ومتخلل وناخر في الفعل العبادي الذي يأتي به العابد في عبادته.

ولا يتوهم أن هذا تقريب نظري تنظيري لا صلة له بالواقع العملي في العبادة، فإن الداعي الارتكازي المحرك في العبادات مفروض في البين، وهو المحرك نحو خصوص الصورة الخاصة من العبادة التي هي على طبق أوامرهم؟.

فمحركية أوامرهم في العبادة والانقياد لها في الداعي المرتكز في نية العابد في عبادته مقرر ومفروض، فليست أوامرهم طريقا محضا لا يلحظ فيه معنى الطاعة والولاية، كيف وقد أكدت الآيات عنوان الطاعة لهم مقرونة بطاعة الله تعالى.

شرطية التولي والتبري في أصل الإيمان

إن التولي والتبري يعد في كلمات علماء الإمامية من أركان الفروع، وقد بينوا الفرق بينهما وبين الإيمان بولاية أهل البيت عليهم السلام التي هي من أصول الإيمان.

إن ولايتهم تارة على صعيد المعرفة والإذعان والإخبات والتسليم القلبي فهي من أصول الديانة الإيمانية، وتارة بمعنى التولي السياسي والانقياد والمتابعة في التشريع والارتباط السلوكي بهم في كافة الميادين فجعل من الفروع غاية الأمر من أركان الفروع، إلا أن الأدلة التي استعرضناها في التوسل والذي يتطابق في عمومه مع عنوان التولي؛ لأن جعلهم وسيلة يشمل عدة ميادين وأصعدة، من جعلهم وسيلة في معرفة الأحكام، وجعلهم وسيلة في الأخذ بأي منهج ومنهاج سياسي واجتماعي، وقد اتضح من الأدلة أنها تفيد شرطيته في صحة الإيمان.

فعلى ضوء ذلك يكون وقع التولي والتبري ودوره خطيرا في أصل الإيمان وقبوله لا مجرد جعله من أركان الفروع.

وإلى ذلك يشير لفظ الحديث النبوي المروي من طرق العامة والخاصة، وهو قوله صلى الله عليه وآله: «ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»[(١)].

فإن مفاد هذا الحديث الشريف إن التولي والولاء السياسي لهم؟ دخيل في أصل الإيمان فضلا عن معرفتهم التي وردت في طرق أخرى من ألفاظ الحديث.

والتولي والولاء السياسي هو عبارة عن التوسل بهم عليهم السلام واتخاذهم وسيلة بالتوجه إليهم في النهج السياسي، كما هو شأن الوسيلة في التوجه إليها أولاً كي يتم التوجه بها إلى الله.

---

(١) المجموع. محيي الدين النووي ج١٩ ص١٩٠، نيل الأوطار. الشوكاني ج٧ ص٣٥٦.

الوجه الثالث

فاستكبار إبليس عن التوجه بآدم في عبادته اعتبر كفرا بتوحيد الله، وانفراطا للركن القويم للتوحيد بذلك الاستكبار والإباء.

غواية إبليس لاستكباره عن التوجه بآدم

الوجه الثالث في الاستدلال على عقيدة التوسل ما جرى من قصة آدم مع إبليس، وإليك مجموعة الآيات الحاكية عن تلك القصة:

▣ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾(1).

▣ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا للملائكة اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِين * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخرج إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ اخرج مِنْهَا مَذْؤُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾(2).

---

(1) سورة البقرة (٣٤).

(2) سورة الأعراف (١١، ١٨).

▣ وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾[١].

▣ وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[٢].

فبينت الآيات أن سنة الله تعالى لملائكته في التوجه إليه هو أن يتوجهوا إليه في عبادتهم بصفوة أوليائه، فتوجهوا إليه في قمة عبادتهم وهي السجود باستقبالهم آدم خليفة الله في أرضه وإمامه على عباده، فكانت سنة إبليس الاستكبار عن التوجه في العبادة بخليفة الله آدم، بينما سنة الله الخالدة لملائكته هي أن التوحيد في العبادة قوامه بالخضوع لله عبر التوجه إليه بخليفته، فالاستكبار عن هذا الباب تمرد عن الوفود إلى الحضرة الإلهية.

فاستكبار إبليس عن التوجه بآدم في عبادته اعتبر كفرا بتوحيد الله وانفراطا للركن القويم للتوحيد بذلك الاستكبار والإباء[٣].

---

(١) سورة طه (١١٦، ١١٧).

(٢) سورة ص (٧١، ١١٧).

(٣) قال المفسر الآلوسي في روح المعاني ج١ ص٢٣٠ تحت ذيل الآية (٣٤) من سورة البقرة: وفي المعنى المامور به هنا خلاف. فقيل المعنى الشرعي، والمسجود له حقيقة هو الله تعالى وآدم إما قبلة أو سبب.

ومن الناس من جوز كون المسجود له آدم عليه السلام حقيقة مدعياً أن السجود للمخلوق إنما منع في شرعنا، وفيه: إن السجود الشرعي عبادة، وعبادة غير الله سبحانه شرك محرم في جميع الأديان والأزمان. انتهى.

ويضاف الى كلامه ما ذكره الأستاذ الشيخ السند من أن مآل كل شرك الى الضدية والندية الى الذات الإلهية والاستغناء عنها سواء في الشرك الخفي أو الجلي، وفي شرك الأفعال أو الصفات أو الذات، ولا يختلف ذلك فيث كل الشرائع والحالات.

لا مسرح للاشتباه في التطبيق العقائدي

قال البعض: إن الخطأ الصغروي في العقائد لا يخل بالإيمان والهداية، وإنما هو اشتباه في التطبيق نظير الخطأ في بعض العوارض مع إصابة الجوهر، لكن الصحيح ومقتضى التحقيق خطأ هذه المقولة، فإن الخطأ الصغروي في العقائد لا يختلف عن الخطأ الكبروي إلا في شدة الجحود والجهل، وإلا لكان مطلق الخطأ في العقيدة والاعتقادات من قبيل الاشتباه في التطبيق؛ لأنه ما من نِحلة وملة إلا ويزعم أصحابها في أساس وخلفية معتقدها تبني أصلا صحيحا في نفسه، إلا أنهم يطبقوه على مدعى باطل ويستدلون به على نتيجة خاطئة، وهذا كما ترى.

هذا مع أنه قد شدد القرآن الكريم النكير على التكذيب بالآيات والظلم بها، مع أن دورها وشأنها دور الآيات، أي في مقام ظهور الحق في المقامات المختلفة، واعتبر إنكار تلك الآيات غيا وضلالا وكفرا، ومن ثم كان جحود ما هو الحق في أي مسألة اعتقادية هو جحود لظهور الحق في ذلك المقام، إلا أن كل مقام بحسبه وموقعيته من الخطورة والأهمية كمقام لظهور الحق.

وقد نبهنا غير مرة أن أصول الدين هي أبواب أخرى للتوحيد من توحيد الذات وتوحيد الصفات والتوحيد في التشريع وهو النبوة والتوحيد في الولاية وهو الإمامة والتوحيد في الغاية وهو المعاد، غاية الأمر أن الشأن في تفاصيل الاعتقادات يختلف عن الشأن في أصول الدين، لكون ظهور الحق أجلى في الآيات الكبرى ودونه في الآيات الصغرى. وبذلك يظهر أن جحود شيء من أصول الدين هو جحود لظهور الحق في المقامات العظمى، وليس خللا مقصورا على الصغرى.

ومن ثم كان خطأ إبليس في إنكاره لخيرية آدم عليه، وزعمية خيريته على آدم ـ مع إقراره بالذات الربوبية حيث نادى الباري: ﴿قَالَ فَانظِرْنِي إِلَى يَوْمِ

يُبْعَثُونَ﴾[١]. ومع إقراره بالمعاد وإقراره بنبوة آدم في قوله تعالى: **﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أخرتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً﴾**[٢]. إلا أنه جحد ولاية آدم ـ لم يكن ذلك الخطأ شأنه حكم مجرد الاشتباه في التطبيق، بل كان ذلك منه جحودا لأصل من أصول الدين وهو ولاية ولي الله، وبالتالي جحودا للتوحيد في مقام الولاية.

---

(١) سورة الأعراف (١٤).

(٢) سورة الإسراء (٦٢).

الوجه الرابع

إن أكثر الذين نفوا الوسائط وقعوا في شراك التجسيم أو الصور المحسوسة أو المتخيلة أو الموهومة لذات الباري، وهذا من القول بالنقص وانتهاء أمد الذات الإلهية.

لا نفي للتعطيل والتشبيه إلا بالتوسل وهو التوحيد

إن نفي الوسائط التي يتوجه بها إلى الباري تعالى كآيات وأسماء له يستلزم إما التعطيل وإما التجسيم والتحديد ونحوهما وهو التشبيه الباطل، وإن أكثر الذين نفوا الوسائط وقعوا في شراك التجسيم أو الصور المحسوسة أو المتخيلة أو الموهومة لذات الباري، وهذا من القول بالنقص وانتهاء أمد الذات الإلهية، وهو أشد شركا وأوغل في الكفر من عبدة الأوثان، إذ الوثنيون والمشركون ينزهون الذات الإلهية عن الجسمية، وينزهونها عن أن تكون من الأرواح أو النفوس، ويعتقدون أن هناك أرواحا كلية تتعلق بالأصنام وتقوم بدور الوساطة والشفاعة، واتخاذهم للواسطة غير المأذون فيها وبغير سلطان أتاهم من الله هو الذي أوقعهم في الشرك والكفر، لأنهم يحكمون إرادتهم في اتخاذ الواسطة في الشفعاء على إرادة الله تعالى، كما تشير إلى ذلك جملة من الآيات القرآنية، من أن المحذور الذي وقعوا فيه هو أنهم ارتكبوا ذلك بغير سلطان كما في العديد من الآيات، ومنها:

▣ قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ

بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[١].

◘ وقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾[٢].

◘ وقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)[٣].

وقوله تعالى: (قُلْ إنما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وأن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وأن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٤].

◘ وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[٥].

◘ وقوله تعالى أيضا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأنفس وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾[٦].

فتبين من مجموع الآيات أن هذه الوسائط التي اتخذوها كأسماء يدعون الرب بها، وكسمة وعلامة وآية ودلالة وواسطة في التوجه هي أسماء هم سموها لم يسمها الله لهم، أي لم يجعلها وسائط وأبواب يتوجه بها إليه.

---

(١) سورة يوسف (٤٠).

(٢) سورة الأعراف (٧١).

(٣) سورة الأنعام (٨١).

(٤) سورة الأعراف (٣٣).

(٥) سورة الحج (٧١).

(٦) سورة النجم (٢٣).

وغيرها من الآيات الكريمة الدالة، على أن المحذور ليس في ضرورة الوسيلة والواسطة والاسم والسمة والعلامة والآية التي يتوجه بها إليه تعالى، وإنما المحذور أنهم وسطوا وسائط واتخذوا أبوابا وأسماء هي ليست بأبواب ولا وسائل ولا وسائط ولا أسماء ولا علامات ولا آيات يمكنهم عند التوجه إليها التوجه إلى الله تعالى، بل يكون فعلُهم هذا إلحاداً وحياداً وميلاناً وصداً عن سبيل الله.

والوثنيون مع ذلك استشعروا وأقروا بهذه الضرورة، وأدركوا أن الباري منزهٌ عن الجسم، وأنه لا تدركه الأبصار ولا تستوعبه الأوهام، فحيث أدركوا ذلك أحسوا بالعجز وبضرورة الواسطة والاسم والآية، إلا أنهم مع ذلك لم يصل بهم الحال إلى التجسيم والإيهام بصورة يختلقها الوهم، بينما هؤلاء الذين نفوا الواسطة والاسم والعلامة والوجه الوجيه الذي يتوجه به وقعوا في شراك التجسيم والتصوير الوهمي لذات الباري؛ لأنهم حيث لم يتأهلوا للوحي والنبوة فلا محالة اضطروا إلى القول بالتحديد في الذات الإلهية والجهة المكانية، كي يمكنهم بتخيلهم الوفود على الحضرة الإلهية، وإلا فيلجئهم التنزيه مع نفي السفراء والوسائط الإلهيين والآيات إلى التعطيل.

فهم يفرون من محذور ويقعون في محذور أكبر مما وقع فيه أهل الوثنية، حيث إن الوثنية نزهوا ذات الباري إلا أنهم جعلوا ما ليس بوسيلة وسيلة، وما ليس بواسطة واسطة، بينما هؤلاء حجموا الذات الإلهية وحددوها إلى أمد مقداري(١).

ومن ذلك يتبين أن من ينزه الباري عن التحديد والتجسيم والتصوير وعن

---

(١) ومراده الشيخ الأستاذ (حفظه الله) أن الوثنية ومذهب نفي الوسائط يشتركان في القول بفطرية ووجدانية الاعتقاد بالله تعالى، غير أن أهل الوثنية يتميزون بالاعتقاد بفطرية الوسائط التي تقربهم الى الله زلفى، لكن الخطأ عند الوثنيين ينحصر في النصب الذاتي للوسائط غير المأذون فيها، ومن ثم فكل منهما قد ضيع طريق الوصول الى الله، لكن مذهب نفي الوسائط أوغل في الضلال وأبعد عن الحس الفطري.

القيود والحدود الخلقية، فلا محالة لأجل أن لا يقع في التعطيل ويحافظ على التنزيه من دون تشبيه لا مفر له من القول بالآيات الإلهية الكبرى، وأنها وجهه الكريم الذي يتوسل بها إليه، وأنها أسماؤه التي يدعى وينادى ويتوجه بها إليه، وهذا هو الذي تشير إليه الصديقة فاطمة ﷺ في مطلع خطبتها بقولها: «واحمدوا الله الذي لعظمته ونوره يبتغي من في السموات والأرض إليه الوسيلة، ونحن وسيلته في خلقه، ونحن خاصته، ومحل قدسه، ونحن محبته في غيبه، ونحن ورثة أنبيائه»[1].

فمن يعظم الله لابد أن يبتغي إليه الوسيلة، وإلا اضطر إلى تصغير الرب وتحديده وإنهائه إلى أمد وقدر.

والتعظيم يلجئه ويضطره كي لا يقع في التعطيل بعد نفيه للتصغير والتشبيه إلى القول بالوسيلة.

ومن هنا نقف على حقيقة المقام المعرفي والأفق العلمي لأهل البيت ﷺ مع أنهم كانوا يعيشون في بيئة جاهلية متخلفة، بل البشرية من الحضارة الهندية والحضارة الرومية والحضارة الفارسية وإن وصلوا إلى تنزيه الرب إلا أن منهم من لم يدرك ضرورة الوسيلة كاليونانيين، ومنهم من أدرك ضرورة الوسيلة إلا أنه لم يهتد إلى ما هو في الحقيقة وسيلة، ويميزه عما هو صد وصدود عن سبيل الله والوسيلة إليه.

وإلى ذلك أيضا أشار أمير المؤمنين ﷺ حيث قال: «فبعظمته ونوره أبصر قلوب المؤمنين، وبعظمته ونوره عاداه الجاهلون، وبعظمته ونوره ابتغى من في السماوات والأرض من جميع خلائقه إليه الوسيلة بالأعمال المختلفة والأديان المشتبهة»[2].

---

(١) شرح ابن الحديد ج٦: ص ٢١.

(٢) الكافي. الشيخ الكليني ج١ ص ١٢٩.

ويشير عليه السلام إلى نفس ضرورة الوسيلة والواسطة والآية والعلامة والاسم والسمة اللازمة لعظمته تعالى، وأن من أدرك ذلك من الخلق منهم من أخطأ في إصابة الوسيلة الحقيقية فدان بأديان مشتبهة ظنا منه أن تلك الوسائط أسماء وآيات ودلالات ووساطات موصلة، وجهل أنها صدود عن السبيل إلى الله تعالى والوسيلة إليه.

ومثله قول أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام كما عن علي بن سويد، قال: كتبت إلى أبي الحسن موسى عليه السلام وهو في الحبس كتابا أسأله عن حاله وعن مسائل كثيرة، فاحتبس الجواب علي أشهر ثم أجابني بجواب هذه نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العلي العظيم الذي بعظمته ونوره أبصر قلوب المؤمنين، وبعظمته ونوره عاداه الجاهلون، وبعظمته ونوره ابتغى من في السماوات ومن في الأرض إليه الوسيلة، بالأعمال المختلفة والأديان المتضادة، فمصيب ومخطئ، وضال ومهتد، وسميع وأصم، وبصير وأعمى حيران، فالحمد لله الذي عرف ووصف دينه محمد صلى الله عليه وآله...

إلى أن قال: فاستمسك بعروة الدين: آل محمد والعروة الوثقى: الوصي بعد الوصي والمسالمة لهم والرضا بما قالوا، ولا تلتمس دين من ليس من شيعتك، ولا تحبنَّ دينهم، فإنهم الخائنون الذين خانوا الله ورسوله وخانوا أماناتهم.

وتدري ما خانوا أماناتهم؟ ائتمنوا على كتاب الله فحرفوه وبدلوه، ودلوا على ولاة الأمر منهم فانصرفوا عنهم»[1].

وقال الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام عندما سأله أبو قرة المحدث صاحب

---

(١) الكافي. الكليني ج٨ ص١٢٤ وص١٢٥.

شبرمة: «فمن أقرب إلى الله الملائكة أو أهل الأرض؟ قال أبو الحسن عليه السلام: إن كنت تقول بالشبر والذراع، فإن الأشياء كلها باب واحد هي فعله لا يشتغل ببعضها عن بعض، يدبر أعلى الخلق من حيث يدبر أسفله، ويدبر أوله من حيث يدبر آخره، من غير عناء، ولا كلفة، ولا مؤنة، ولا مشاورة، ولا نصب، وإن كنت تقول من أقرب إليه في الوسيلة، فأطوعهم له، وأنتم تروون أن أقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد، ورويتم أن أربعة أملاك التقوا أحدهم من أعلى الخلق، وأحدهم من أسفل الخلق، وأحدهم من شرق الخلق، وأحدهم من غرب الخلق، فسأل بعضهم بعضا، فكلهم قال: «من عند الله أرسلني بكذا وكذا» ففي هذا دليل على أن ذلك في المنـزلة دون التشبيه والتمثيل»[١].

وهذا بيان واف من الإمام الرضا عليه السلام أن من ينف التجسيم عن الله والاقتراب الجسماني فهو مضطر للقول بالقرب المعنوي، وأن صاحب الوسيلة الذي يستشفع بشفاعته إلى الله تعالى ويتوجه به إلى الله تعالى هو أقـرب الخـلق إلى الله، وهـم محمد صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرين الذين ميزهم الله مع نـبيه صلى الله عليه وآله بـالطهارة دون بـقية الخلق.

ومنه يظهر أن التوسل بصاحب الوسيلة والقرب والتوجه به إلى الله هـو مـن صميم التوحيد القائم على التنـزيه ونفي التشبيه والتمثيل والتعطيل، وأن الذي ينفي التوسل والاستشفاع بالشفيع والتوجه بالوجيه يقع في التشبيه والتمثيل أو التعطيل.

(١) العلامة المجلسي. بحار الأنوار ج١٠ ص٣٤٦، ورواه الطبرسي. الاحتجاج ج٢ ص١٨٨.

الوجه الخامس

إن الأسماء الإلهية هي الآيات الدالة عليه تعالى وعلى صفاته العليا، فالمخلوقات العظيمة من جهة دلالتها على عظمة الباري وعظمة صفاته هي آيات وعلامات، وبالتالي هي أسماء إلهية.

آيات الأسماء

▣ قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

▣ قال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾[2].

▣ قال تعالى: ﴿وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أسمائه سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[3].

▣ قال تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

---

(١) سورة البقرة (٣١).

(٢) سورة الأعراف (٧١).

(٣) سورة الأعراف (١٨٠).

لاَ يَعْلَمُونَ﴾[١].

▣ قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾[٢].

▣ قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى﴾[٣].

▣ قال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾[٤].

▣ قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٥].

▣ قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٦].

▣ قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾[٧].

▣ وجاء في الرواية عن عبد الأعلى عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «اسم الله غير الله، وكل شيء وقع عليه اسم شيء فهو مخلوق ما خلا الله، فأما ما عبرته الألسن أو ما عملته الأيدي فهو مخلوق، والله غاية من غاياه، والمغيى غير الغاية، والغاية موصوفة، وكل

---

(١) سورة يوسف (٤٠).

(٢) سورة الإسراء (١١٠).

(٣) سورة طه (٨).

(٤) سورة النجم (٢٣).

(٥) سورة الحشر (٢٤).

(٦) سورة البقرة (١١٤).

(٧) سورة النور (٣٦).

موصوف مصنوع، وصانع الأشياء غير موصوف بحد مسمى»[١].

وخلاصة ما قاله المجلسي:

«بيّن عليه السلام المغايرة بأن اللفظ الذي يعبر به الألسن والخط الذي تعمله الأيدي، فظاهر أنه مخلوق»[٢].

وقوله عليه السلام: «والله غاية من غاياه» المراد أن الغاية تطلق على النهاية وتطلق على الآية والعلامة، فكل من كان له مطلب وعجز عن تحصيله بسعيه يتوسل إليه باسم الله، والمغيى المتوسل إليه لتلك الغاية غير الغاية.

أو يراد بالغاية النهاية وبالله الذات لا الاسم، فالرب تعالى غاية آمال الخلق يدعونه عند الشدائد بأسمائه العظام، والأسماء طرق ومسالك توصل الخلق إلى الله في حوائجهم، والعقل يحكم بأن الوسيلة غير المقصود بالحاجة.

أو أن الغاية العلامة فالباري هو ذو العلامة، فأسماؤه علامات عليه.

ومن زعم أنه يعرف الله بحجاب الأسماء التي هي حجب بين الله وخلقه، ووسائل بها يتوسلون إليه، بأن زعم أنه تعالى عين تلك الأسماء أو الأنبياء والأئمة عليهم السلام، وبأن زعم أن الله تعالى اتحد بهم أو الصفات الزائدة، فإنه حجب عن الوصول إلى حقيقة الذات الأحدية.

أو زعم أنه ذو صورة كما قالت المشبهة، أو بصورة عقلية زعم أنها كنه ذاته وصفاته تعالى، أو بمثال خيالي، أو جعل له مماثلا ومشابها من خلقه فهو مشرك، للزوم تركبه تعالى وكونه ذو أجزاء تعالى الله عن ذلك.

▣ وجاء في الرواية الصحيحة الإعلائية عن ابن رئاب وعن غير واحد، عن

---

(١) التوحيد الشيخ الصدوق ص١٩٢، وبحار الأنوار ج ٤ ص ١٦١.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار ج ٤ ص١٦٢.

أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «من عبد الله بالتوهم فقد كفر، ومن عبد الاسم دون المعنى فقد كفر، ومن عبد الاسم والمعنى فقد أشرك، ومن عبد المعنى بإيقاع الأسماء عليه بصفاته التي وصف بها نفسه، فعقد عليه قلبه ونطق به لسانه في سرائره وعلانيته، فأولئك أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام حقاً».

وفي حديث آخر: «أولئك هم المؤمنون حقاً»[1].

▣ وجاء في الرواية عن إبراهيم بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن الله تبارك وتعالى خلق اسما بالحروف غير منعوت، وباللفظ غير منطق، وبالشخص غير مجسد، وبالتشبيه غير موصوف، وباللون غير مصبوغ، منفي عنه الأقطار، مبعد عنه الحدود، محجوب عنه حس كل متوهم، مستتر غير مستور، فجعله كلمة تامة على أربعة أجزاء معا ليس منها واحد قبل الآخر، فأظهر منها ثلاثة أسماء لفاقة الخلق إليها، وحجب واحدا منها، وهو الاسم المكنون المخزون بهذه الأسماء الثلاثة التي أظهرت، فالظاهر هو الله تبارك وتعالى، وسخر سبحانه لكل اسم من هذه الأسماء أربعة أركان، فذلك اثنا عشر ركنا، ثم خلق لكل ركن منها ثلاثين اسما فعلا منسوبا إليها فهو الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، الخالق البارئ، المصور، الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، العليم، الخبير، السميع، البصير، الحكيم، العزيز، الجبار، المتكبر، العلي، العظيم، المقتدر، القادر، السلام، المؤمن، المهيمن «البارئ»، المنشئ، البديع، الرفيع، الجليل، الكريم، الرازق، المحيي، المميت، الباعث، الوارث. فهذه الأسماء وما كان من الأسماء الحسنى حتى تتم ثلاث مائة وستين اسما، فهي نسبة لهذه الأسماء الثلاثة وهذه الأسماء الثلاثة أركان، وحجب الاسم الواحد المكنون المخزون بهذه الأسماء الثلاثة وذلك قوله تعالى: «قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن

---

(١) الكافي. الشيخ الكليني ج١ ص٨٧.

أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى»[١].

قال العلامة المجلسي بالمعنى: والمراد بالاسم كل ما يدل على ذاته وصفاته تعالى أعم من أن يكون اسما أو فعلا أو جملة، فالله إشارة إلى كل الصفات لكونه موضوعا للذات المستجمعة لكل الصفات الكمالية، وتبارك إلى جميع الصفات الفعلية، وسبحان أو تعالى (على اختلاف النسخ كما في الكافي) دال على الصفات التنزيهية وسلب النقائص، وهذه الأسماء جعلها ليظهر بها على الخلق، فالظاهر هو الاسم والظاهر به هو الرب سبحانه[٢].

وحكى المجلسي عن أبيه المجلسي الأول في تفسير الرواية ما خلاصته: إن الاسم الأول هو الاسم الجامع الدال على الذات والصفات، ومعرفة الذات بالكنه محجوبة عن غيره تعالى، فصار الاسم الدال على الذات محجوبا عن الخلق وهو الاسم الأعظم، والدال على مجموع الاسم والصفات اسم أعظم باعتبار آخر، ويشبه أن يكون الاسم الجامع هو «الله» والاسم الدال على الذات فقط هو «هو»، وتكون المحجوبية باعتبار عدم التعيين.

وقال المجلسي الثاني: أو أن الاسم كناية عن مخلوقاته تعالى، والاسم الأول الجامع كناية عن أول مخلوقاته، ثم عن تشعب المخلوقات وتعدد العوالم[٣].

وقد قيل في سبب نزول قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾[٤]. إنه حين سمع المشركون رسول الله ﷺ يقول: يا الله يا رحمن، فقالوا: إنه

---

(١) بحار الأنوار. العلامة المجلسي ج ٤ ص١٦٦.

(٢) بحار الأنوار. العلامة المجلسي ج ٤ ص١٦٩.

(٣) بحار الأنوار. العلامة المجلسي ج ٤ ص ١٧١.

(٤) سورة الإسراء (١١٠).

ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إله آخر.

وقالت اليهود: إنك لتقل ذكر الرحمن وقد أكثره الله في التوراة، فنـزلت الآية ردا لما توهموه من التعدد أو عدم الإتيان بذكر الرحمن.

وقوله ﷺ: وذلك قوله عز وجل: ﴿قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ﴾ استشهاد بأنه له تعالى أسماء حسنى، وأنه إنما خلقها ووضعها ليدعوه الخلق بها، فقال تعالى قل ادعوه تعالى بالله أو بالرحمن أو بغيرهما، فالمشار إليه بالأسماء شيء واحد وهو الرب سبحانه.

ومن الروايات في الوسيلة ما يلي:

▣ ما رواه جابر بن عبد الله الأنصاري في تفسير قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾[1]. قال: قال رسول الله ﷺ: «أول ما خلق الله نوري ابتدعه من نوره واشتقه من جلال عظمته، فأقبل يطوف بالقدرة حتى وصل إلى جلال العظمة في ثمانين ألف سنة، ثم سجد لله تعظيما، ففتق منه نور علي عليه السلام، فكان نوري محيطا بالعظمة، ونور علي محيطا بالقدرة، ثم خلق العرش واللوح والشمس وضوء النهار ونور الأبصار والعقل والمعرفة وأبصار العباد وأسماعهم وقلوبهم من نوري، ونوري مشتق من نوره، فنحن الأولون، ونحن الآخرون، ونحن السابقون، ونحن المسبحون، ونحن الشافعون، ونحن كلمة الله، ونحن خاصة الله، ونحن أحباء الله، ونحن وجه الله، ونحن جنب الله، ونحن يمين الله، ونحن أمناء الله، ونحن خزنة وحي الله وسدنة غيب الله، ونحن معدن التنـزيل ومعنى التأويل، وفي أبياتنا هبط جبريل، ونحن محال قدس الله، ونحن مصابيح الحكمة، ونحن مفاتيح الرحمة، ونحن ينابيع النعمة، ونحن شرف الأمة، ونحن سادة الأئمة، ونحن نواميس العصر وأحبار الدهر، ونحن سادة العباد، ونحن

---

(١) سورة آل عمران (١١٠).

ساسة البلاد، ونحن الكفاة والولاة والحماة والسقاة والرعاة وطريق النجاة، ونحن السبيل والسلسبيل، ونحن النهج القويم والطريق المستقيم، من آمن بنا آمن بالله، ومن رد علينا رد على الله، ومن شك فينا شك في الله، ومن عرفنا عرف الله، ومن تولى عنا تولى عن الله، ومن أطاعنا أطاع الله، ونحن الوسيلة إلى الله والوصلة إلى رضوان الله، ولنا العصمة والخلافة والهداية، وفينا النبوة والولاية والإمامة، ونحن معدن الحكمة وباب الرحمة وشجرة العصمة، ونحن كلمة التقوى والمثل الأعلى والحجة العظمى والعروة الوثقى التي من تمسك بها نجا»[١].

▣ وروى في بصائر الدرجات بسنده عن سلمان الفارسي عن أمير المؤمنين عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ فقال: «أنا هو الذي عنده علم الكتاب» وقد صدقه الله وأعطاه الوسيلة في الوصية، ولا يخلي أمته صلى الله عليه وآله من وسيلته إليه وإلى الله، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٢].

وروى الصدوق بإسناده عن الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الأئمة من ولد الحسين، من أطاعهم فقد أطاع الله، ومن عصاهم فقد عصى الله، هم العروة الوثقى، وهم الوسيلة إلى الله عز وجل»[٣].

فروى الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل بسنده عن عكرمة في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ قال: «هم النبي وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام»[٤].

---

(١) بحار الأنوار. العلامة المجلسي ج٢٥ ص٢٢.

(٢) بحار الأنوار. العلامة المجلسي ج٣٥ ص٤٣٢.

(٣) بحار الأنوار. العلامة المجلسي ج٣٦ ص٢٤٤.

(٤) الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ج١ ص٤٤٦ ح٤٧٤.

تحقيق في معنى الاسم في القرآن

الاسم في أصل وضع اللغة إما من الوسم وهو الأثر والعلامة.

والموسوم هو من عليه علامة.

ويقال قد سمت فيه الخير أي رأيت فيه أثر، أو من السمو وهو الارتفاع والعلو، يقال سما إليه بصري أي ارتفع بصري إليه.

ويقال سما به أي أعلاه.

ويقال سما لي شخص فلان، أي ارتفع حتى استبنته وسما إليه بصري، إذا رفع لك شيء من البعيد فاستبنته قلت سما لي شيء.

قال ابن منظور في لسان العرب: اسم الشي وسمه «بفتح السين وكسرها وضمها» وسماه علامته.

وقال الزجاج: معنى قولنا اسم، مشتق من السمو وهو الرفعة.

وقال الجواهري: والاسم مشتق من سموت، لأنه تنويه ورفعة.

وإذا نسبت إلى الاسم قلت سموي «بكسر السين وفتح الميم» وسموي «بفتح السين وسكون الميم»...

وقال أبو العباس: الاسم رسم وسمة توضع على الشي فتعرف به.

وقال أبو إسحاق: إنما وضع الاسم تنويها بالدلالة على المعنى؛ لأن المعنى تحت الاسم.

وفي التهذيب: ومن قال إن اسما مأخوذ من وسمت فهو غلط.

وقال الجوهري: سميت فلانا زيدا، وسميته بزيد بمعنى، وأسميته مثله، فتسمى به.

وقال سيبويه: الأصل الباء؛ لأنه كقولك عرفته بهذه العلامة ووضحته بها.

وسُئل أبو العباس عن الاسم أهو المسمى أو غير المسمى، فقال: قال أبو عبيدة:

الاسم هو المسمى.

وقال سيـبويه: الاسم غير المسمى[١]. انتهى

ويتحصل من ذلك:

إن الاسم هو الشي الدال على مسمى علامة عليه ودلالةً وتنويهاً، وأن السمو والوسم متقارب المعنى من حيث الدلالة والبيان والعلامة على الشي.

وإذا اتضح ذلك تبين أن الأسماء الإلهية هي الآيات الدالة عليه تعالى وعلى صفاته العليا.

فالمخلوقات العظيمة من جهة دلالتها على عظمة الباري وعظمة صفاته هي آيات وعلامات، وبالتالي هي أسماء إلهية.

فكلما عظم خلقة المخلوق دل على عظمة فعل وصفات الباري، فكان اسـما أكبر وأعظم، ومن ذلك يظهر أن الكلمة الملفوظة بالصوت التي يتلفظ بها الإنسان الداعي هي مخلوقة له، إنما صح إطلاق اسم الله عليها بلحاظ دلالتها على المعنى، والمعنى في الذهن أيضا مخلوق للنفس الإنسانية، وهو بدوره دال على الصفات أو الذات الإلهية، ولكن أين دلالة الصوت الملفوظ عن المعنى في الذهن مـن دلالة المخلوق الموجود في الخارج، فإن دلالة المخلوقات العظيمة تكوينية بينما دلالة الصوت الملفوظ اعتبارية أدبية، فصدق الأسماء الإلهية على الآيات الخلقية صدق حقيقي، بينما صدقها على الأصوات الملفوظة مجاز عقلي، وأين هذا من ذاك[٢].

---

(١) ابن منظور. لسان العرب ج ١٤ ص ٤٠١ وص ٤٠٢.

(٢) بهذا التقرير العلمي القرآني يظهر وجه الخلل في كلام بن تيمية الذي نقله عنه المفسر الآلوسي في تفسيره روح المعاني ج٣ ص٢٩٦: (أن لفظ التوسل بالشخص والتوجه إليه وبه إجمال واشتراك بحسب الاصطلاح، فمعناه في لغة الصحابة أن يطلب منه الدعاء والشفاعة فيكون التوسل والتوجه في الحقيقة بدعائه وشفاعته، وذلك مما لا محذور

ومن هنا يتبين معنى الآية الكريمة: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى﴾ أي الآيات العظمى ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أي فتوجهوا بها إليه تعالى، وأن معنى قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ﴾[1] يتطابق مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء﴾[2] وكليهما في سورة الأعراف.

ومنه يتنبه إلى الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾[3] فإن أحد الأقوال في تفسير الأسماء هي الأسماء الالهية، أي الأسماء الإلهية كلها، وعلى ذلك يكون قد أطلقت على مخلوقات عظيمة أعظم من الملائكة ومن آدم عليه السلام، حيث قال تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[4].

فاستعمل ضمير الجمع للعاقل الشاعر الحي، وكذلك اسم الإشارة للشاعر الحي العاقل «هؤلاء»، مما يدلل على أن هذه المخلوقات العظيمة حية شاعرة عاقلة لم تكن الملائكة تحيط بها خبرا ولا علما، حيث ﴿قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[5].

فيه. وأما في لغة كثير من الناس فمعناه أن يسأل الله تعالى بطلك ويقسم به عليه وهذا هو محل النزاع، وقد عنمت الكلامف يه، وجعل من الإقسام الغير المشروع قول القائل النهم أسألك بجاه فلان، فإنه لم يرد عن أحد من السنف أنه دعا كذلك، وقال إنما يقسم به تعالى وبأسمائه وصفاته فيقال اسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت يا الله المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإركم ياحي يا قيوم، وأسألك بأنك أنت الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، واسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك) انتهى.

(١) سورة الأعراف (١٨٠).

(٢) سورة الأعراف (٤٠).

(٣) سورة البقرة (٣١).

(٤) سورة البقرة (٣١).

(٥) سورة البقرة (٣٢).

وإلى ذلك الإشارة في قول الإمام الصادق عليه السلام في الروايات السابقة.

فيتضح أن المخلوقات العظيمة التي لها مقام الزلفى والقرب الإلهي هي أسماؤه تعالى، أسماء وآيات دالة عليه تعالى من حيث إنها آيات وكلمات، ومن ثم أطلق على عيسى عليه السلام كلمته، وأطلق عليه وجيها فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[١].

وكذلك موسى عليه السلام. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾[٢].

هذا فضلا عن سيد الأنبياء وأوصيائه الطاهرين عليهم السلام.

ولا بد أن يتنبه إلى ضرورة الأسماء الإلهية في باب المعرفة بالذات الإلهية وباب التوجه إلى الحضرة الإلهية، فإن الطلب للمجهول المطلق ممتنعٌ، وإدراك المبهم المتوغل في الإبهام من كل جهة محال، وهذا حال المخلوق مع كنه الذات الإلهية، فلا بد من علامة يهتدي بها إلى الذات الإلهية، وتلك العلامة هي الاسم والأسماء والآيات.

فلولا دلالة الأسماء على المسمى لامتنع الطريق إليه تعالى، وللزم التعطيل في المعرفة.

ومن ذلك تبين أن الأسماء التي هي الآيات المخلوقة هي الوسيلة إلى معرفته تعالى.

ومن ثم لو أعملنا دقة التحليل في ألفاظ قوله تعالى: ﴿وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى

---

(١) سورة آل عمران (٤٥).

(٢) سورة الأحزاب (٦٩).

فَادْعُوهُ بِهَا﴾ عن المدعو هو الله تعالى، والأسماء هي الوسيلة للدعاء والتوجه والقصد إليه تعالى، وأن الإلحاد عن الأسماء يمنع التوجه إلى الذات الإلهية، وأن حقيقة الأسماء هي الآيات العظيمة في الخلقة الإلهية لا للأصوات الملفوظة والرسوم المنقوشة المكتوبة التي هي نماذج اعتبارية لا تكوينية للأسماء.

الوجه السادس

إن التوجه إلى الله تعالى يجب أن يكون بشي وهو الوسيلة، ولا يتوجه إليه تعالى بدون وسيلة ووصلة، وهذا هو القاعدة التي ذكرناها.

ابتغاء الوسيلة

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقرب وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾[2].

ذكرنا أن معنى الوسيلة هو ما يتوسل به ويتوجه به، أو ما يجعل وصلة للوصول إلى شيء، وذلك الشي هو بمثابة الغاية المطلوبة بالأصل، ومن الجدير بالذكر أن الآيات السابقة لا تعبر بلفظ «ابتغوه» وإنما تعبر بلفظ ﴿وَابْتَغُواْ إِلَيهِ﴾ مما يدلل على أن التوجه إلى الله تعالى يجب أن يكون بشي وهو الوسيلة، ولا يتوجه إليه تعالى بدون وسيلة ووصلة، وهذا هو القاعدة التي ذكرناها.

ومن ثم فإن القول بأن الأعمال الصالحة والقربية هي الوسيلة لا ينافي القول أن هذه الوسيلة تحتاج إلى وسيلة أخرى من أجل أن تصعد وتتأهل للصحة والقبول

---

(١) سورة المائدة (٣٥).

(٢) سورة الإسراء (٥٧).

الإلهي، فإن الأعمال الصالحة لا تقبل إلا بالولاية مما يدلل على أن لهذه الأعمال الصالحة وسيلة وهي ولاية أهل البيت عليهم السلام، فهي وسيلة في وسيلة، وسيأتي ما يتعلق بهذا الوجه.

وبيان مفاد الآية بنحو أوضح أن لفظة فعل الأمر ﴿وَابْتَغُواْ﴾ متعلق أولاً وبالذات بلفظة الوسيلة كمفعول به، أي أن الذي يبتغي ويقصد هو الوسيلة، ولفظة ﴿إِلَيهِ﴾ متعلق ثانٍ، وهو لأجل الوصول إليه تعالى.

فمفاد الآية أن القصد والابتغاء يتوجه أولاً إلى الوسيلة وبها يحصل التوجه إلى الله تعالى.

هذا فضلا عما لو جعلنا الجار والمجرور متعلق بلفظ الوسيلة، فيكون الابتغاء متعلق بنحو التمحض بلفظ الوسيلة، وعلى كلا التقديرين فالقصد متوجه ابتداءً إلى الوسيلة، وعبرها يتم التوجه والوصول إلى الله تعالى.

وهذه الآية نص في أن هناك مسافة وبعداً بين العباد والرب من طرف العباد اتجاه الرب تعالى، وإن كان الرب تعالى قريب من العباد من جهته هو إليهم علما وسيطرة واستيلاء؛ لأنه لو لم تكن مسافة وبعدٌ من العباد اتجاه الرب من جهتهم إليه تعالى لما كان معنى لطلب الوسيلة ولوجودها بينه وبين خلقه، ولكان الأمر بطلبها منه تعالى لغوا، وهو خارج عن الحكمة الإلهية.

ويستفاد من الآية الكريمة أن الوصول إليه تعالى ولقاءه منحصرٌ طريقه وسبيله بالوسيلة ولا يتم بدونها؛ وذلك لأن الآية تقرر وجود البعد والمسافة بين الخلق والخالق من جهة الخلق، وذلك بسبب نقصهم في الكمالات عن الكمال الإلهي، فالبعد ذاتيٌ بينهم وبين الخالق ولا يُطوى من قبل ذاتهم، بل لا بد من أمر آخر خارج عنهم وهو الوسيلة.

كما أن الآية الثانية تبين وتبرهن أن المناط في كون الشي وسيلة يدور مدار قربه إلى الله تعالى، فكلما كان أقرب كان مقامه في الوسيلة أعلى وأنفذ.

كما أن آية الإسراء تدلل على أن الغاية من الوسيلة هي لأجل القرب منه تعالى، وبالتالي تقررُ وجود البعد بين الخلق والله من جهة الخلق إليه تعالى، ولأجل هذا البعد فلا بد في طيه من التوسل بالوسيلة والتوجه إليها وقصدها؛ لأن دور الوسيلة الوساطة والتقريب، ومن ثم يكون أقرب الخلق إلى الله هو أعظمهم وسيلة، ويكون صاحب الشفاعة الكبرى، ويكون هو الرحمة الإلهية القصوى.

ولا ريب بضرورة القرآن والدين أن أقرب الخلق إلى الله هو سيد الأنبياء، ومن ثمَّ خُص بالشفاعة الكبرى، وكان أقربهم وسيلة إلى الله، ووصفه الباري بأنه رحمة للعالمين، وخَلع عليه من خاصة أسمائه الإلهية وهو الرءوف الرحيم.

وقد قرن الله تعالى بنبيهﷺ في جملة من المقامات أهلَ بيته الأطهارعليهم السلام، وجعل الوسيلة إلى القرب من نبيه؟ مسايرةَ أهل بيتهعليهم السلام فقال تعالى: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[1].

فجعل الوصلة إلى نبيهﷺ والباب إليه مودة قرباه، وعظَّم من تلك المودة فجعلها كفوا لجميع الرسالة، تنبيهاً على أنهم الباب الأعظم إلى الرسولﷺ والرسالة والدين والديانة، ثم قال في سورة أخرى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[2].

فبين أن نفع مودة قربى النبيﷺ عائد للخلق والعباد أنفسهم؛ لأنهم وسيلةٌ لهم إلى الله ورسولهﷺ، فقال في سورة أخرى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاء أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾[3].

فكانوا هم السبيل الأعظم إليه والمسلك إلى رضوانه، فنصت مجموع هذه

---

(١) سورة الشورى (٢٣).

(٢) سورة سبأ (٤٧).

(٣) سورة الفرقان (٥٥).

الآيات على كونهم الوسيلة والسبيل إلى الله ورسوله ﷺ، وربطت بين كونهم وسيلة وسبيلاً وبين دور ومقام النبي ﷺ، فجعلت مودتهم التي هي سبيل ووسيلة أجراً لجُهد النبي ﷺ في تبليغ الرسالة، وقد بينت الصديقة فاطمة عليها السلام جملة هذه البيانات القرآنية من بعد الخلق عن الله من جهتهم إليه لا من جهته إليهم، واحتياجهم بالتالي إلى الوسيلة، ودورها في معرفة التوحيد، وأن تلك الوسيلة هم النبي وأهل بيته عليهم السلام، كل ذلك في قولها عليها السلام: «واحمدوا الله الذي لعظمته ونوره يبتغي من في السموات والأرض إليه الوسيلة ونحن وسيلته في خلقه».

ويشير إلى هذا المعنى من كونهم عليهم السلام الوسيلة العظمى إلى الله تعالى ـ أي النبي وأهل بيته عليهم السلام؛ لأن مصطلح القرآن في عنوان أهل البيت كما في آية التطهير المراد به النبي وقرباه المطهرين من المعاصي ـ ما ورد في العديد من الزيارات كما فيما رواه ابن قولويه في كامل الزيارات: «من زار الحسين عارفا بحقه كان كمن زار الله في عرشه».

كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾(١)

فجعل الله تعالى الاستجارة بنبيه ﷺ وفودا عليه للتوبة ومجيئا إليه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى﴾(٢)

كما جعل المجي إلى المسجد زيارة إليه تعالى، فكيف بمن جعل الله مودتهم سبيلا إليه، وأنها العدل الأعظم لرسالته، ومن باهل به الله وجعله حجة من حججه مطهرا، وحججه هي آياته التي يصدق بها، وآياته هي أبواب سمائه ومفاتيح رحمته، كما في سورة الأعراف التي سبقت.

---

(١) سورة النساء (٦٤).

(٢) سورة الأنفال (١٧).

الوجه السابع: وجه الشفاعة

فوجود الأبواب بين المخلوق من جهته إلى الخالق عقيدة قرآنية أصيلة ومعتقد إسلامي أصيل، والتنكر له جحود لعقيدة ركن في نظام السنة الإلهية.

نبدأ البحث باستعراض آيات الشفاعة، وقد وردت آيات الشفاعة في القرآن على طوائف عديدة، ومن المهم تصنيفها إلى أصناف تمهيدا لإيضاح رؤية القرآن فيها:

طوائف الآيات

الطائفة الأولى: آيات نفي الشفاعة

▣ قال الله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾[1].

▣ وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾[2].

الطائفة الثانية: آيات نفي الشفعاء

▣ قال تعالى: ﴿وانذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ

---

(١) سورة المدثر (٤٨).

(٢) سورة البقرة (١٢٣).

وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[١].

▣ وقال: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وأن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾[٢].

▣ وقال: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ﴾[٣].

▣ ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[٤].

الطائفة الثالثة: آيات تحقق الشفاعة مع الإذن الإلهي

▣ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾[٥].

▣ ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إذا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[٦].

---

(١) سورة الأنعام (٥١).

(٢) سورة الأنعام (٧٠).

(٣) سورة الشعراء (١٠٠).

(٤) سورة الأنعام (٩٤).

(٥) سورة يونس (٣).

(٦) سورة سبأ (٢٣).

▣ ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾[١].

▣ ﴿اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾[٢].

الطائفة الرابعة: آيات تحقق الشفاعة من قبل المرضي قولا وفعلا

▣ ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾[٣].

▣ ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾[٤].

▣ ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٥].

الطائفة الخامسة: آيات تحقق الشفاعة في صالح من كان مرضيا

▣ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[٦].

والنتيجة على ضوء الجمع بين مفاهيم الطوائف القرآنية السابقة كما يلي:

---

(١) سورة طه (١٠٩).

(٢) سورة البقرة (٢٥٥).

(٣) سورة مريم (٨٧).

(٤) سورة طه (١٠٩).

(٥) سورة الزخرف (٨٦).

(٦) سورة الأنبياء (٢٨).

(١) استحالة الشفاعة الاستقلالية عن الله من قبل أي مخلوق لآخر.

(٢) بطلان توهم الشفعاء المزعومين من قبل البشر.

(٣) صحة الشفاعة مع صدور الإذن الإلهي بها، والمراد به الإذن التكويني الذي يعني إقدار الله لهم على الشفاعة.

(٤) احتياج الشفيع إلى شرائط روحانية وملكوتية استثنائية تؤهله للشفاعة.

(٥) ضرورة توفر المشفوع له على العقائد الصحيحة التي تجعله جديرا باستيعاب الشفاعة له.

الطائفة السادسة: آيات ضرورة تحقق الشفاعة

▣ الآية الأولى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[١].

▣ الآية الثانية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾[٢].

---

(١) سورة النساء (٦٤).

(٢) سورة آل عمران: ٨١.

بحوث الآية الأولى

▣ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾(١).

القاعدة الأولى: التوسل شرط في صحة التوبة

وهذه الآية من المحكمات ذات المفاد الدائم، ولاسيما وأن للتوبة أكبر علاقة ورابطة بين العبد وربه، والتوبة مأخوذة من الأوبة وهي الرجوع إلى الله تعالى.

وتبين الآية الأولى أن لتوبته تعالى على البشر شرائط وهي كسنة دائمة أبدية، وأول تلك الشرائط ومبدؤها ـ أي التي يراعى في البدء ـ هو التوجه إلى النبيﷺ وقصد الحضرة النبوية، وهذا نحو توسل بالنبيﷺ وتوجه به إلى الله تعالى.

وثانيها استغفار المذنب وهو ندمه وتوبته ورجوعه.

وثالثها استغفار الرسولﷺ، أي أن استغفار مذنبي الأمة وتوجههم بالنبيﷺ وهما الشرطان الأولان ليسا كافيين في حصول توبة الله ما لم يتوسط الرسولﷺ ويتشفع في نجح سؤال المستغفرين.

وقد جعل توسط الرسولﷺ في نهاية المطاف للتدليل على أن ترتب الجزاء وهي التوبة الإلهية إنما يتحقق عقب الدور النبوي في الشفاعة لجميع الأمة، في جميع ما تسأل الأمة من ربها.

ويرتسم لنا من ذلك أن هذا ليس مخصوصاً بباب التوبة والاستغفار من الذنوب الذي هو أعظم حاجيات المخلوقين، بل هو شامل لكل سؤالٍ ودعاءٍ وطلب من الحضرة الربوبية، بل إن حقيقة التوبة هي من الأوب وهو الرجوع

---

(١) سورة النساء (٦٤).

والوفود على الحضرة الإلهية والتوجه إليها وقصدها.

فالبحث في التوبة في الحقيقة بحث في مطلق الزلفى والتقرب والتوجه للحضرة الإلهية.

وقد أُطلق على نوافل صلاة الظهر اسم صلاة الأوابين، لما فيها من الأوبة الخاصة.

فالتوبة في الحقيقة ليست عملا منحازا ومنفصلا عن حقيقة العبادات، إذ كل باب من العبادات نوع من الأوبة إلى الله تعالى، فكل عبادة تصب في نفس مضمار الاستغفار.

وعلى ذلك فالآية تدل على لزوم شرطين آخرين يجب أن ينضما إلى العبادات:

الأول: هو المجي إلى رسول الله ﷺ والوفود على الحضرة النبوية، بعد كون الآية غير مخصوصة بزمان الحياة الشريفة للنبي ﷺ إذ هي تتعرض لأمر أبدي ولأعظم أمر يخص العبد في العلاقة بينه وبين الله، فمؤداها سنة إلهية أبدية تشترط في التوبة المجي للنبي ﷺ.

الثاني: استغفار الرسول ﷺ.

وبصراحة مرة ننبه على أن الفقهاء أغفلوا في كتبهم الفقهية وكتبهم الكلامية الشرط الأول، وإن نبه بعضهم على أن من شرائط التوبة الإيمان بولاية النبي وأهل بيته عليهم السلام، لكنهم أغفلوا هذا الشرط وهو اللجوء والالتجاء واللواذ بحضرة النبي ﷺ وأهل بيته الأطهار عليهم السلام.

وبعبارة أخرى: إن الآية تضيف في شرائط التوبة ـ علاوة على أصل الإيمان بالنبي وأهل بيته عليهم السلام ـ اشتراط التوسل بالنبي ﷺ، فلفظ الآية في الشرط الأول يعني اللجوء إلى الحضرة النبوية واللواذ به والاستعاذة والالتجاء، وهو عين التوسل

والتوجه بالنبي ﷺ.

وقد أفتى فقهاء الإمامية وعلماؤهم في صلاة الفريضة والنافلة باستحباب دعاء التوجه قبل تكبيرة الإحرام بل بعدها أيضا، وهو: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض، وما أنا من المشركين على ملة إبراهيم ودين محمد وهدي علي أو منهاج علي» والدعاء الآخر: «بالله أستنجح وبالله أستفتح، وبمحمد الرسول وآله أتوجه».

مناقشة مع الفخر الرازي

قال الفخر الرازي في التفسير الكبير:

المسألة الثانية: لقائل أن يقول: أليس لو استغفروا الله وتابوا على وجه صحيح لكانت توبتُهم مقبولة؟ فما الفائدة في ضم استغفار الرسول إلى استغفارهم؟

قلنا: الجواب عنه من وجوه

الأول: إن ذلك التحاكم إلى الطاغوت كان مخالفة لحكم الله، وكان أيضا إساءة إلى الرسول ﷺ وإدخالا للغم في قلبه، ومن كان ذنبه كذلك؛ وجب عليه الاعتذار عن ذلك الذنب لغيره، فلهذا المعنى وجب عليهم أن يطلبوا من الرسول أن يستغفر لهم.

الثاني: إن القوم لما لم يرضوا بحكم الرسول ظهر منهم ذلك التمرد، فإذا تابوا وجب عليهم أن يفعلوا ما يزيل عنهم ذلك التمرد، وما ذاك إلا بأن يذهبوا إلى الرسول ﷺ ويطلبوا منه الاستغفار.

الثالث: لعلهم إذا تابوا بالتوبة أتوا بها على وجه الخلل، فإذا انضم إليها استغفار الرسول صارت مستحقة للقبول والله أعلم[1]. انتهى

---

(١) الفخر الرازي، التفسير الكبير ج ١٠ ص ١٣٠.

أقول: وكل ما ذكره من الوجوه فيه نظر

أما الأول: وفيه مع عدم خصوصية المورد؛ لأن المورد لا يخصص الوارد بل يفسره، إن تفسيره لشرطية استغفار الرسولﷺ لا ينطبق على تجاوزهم لحق الرسول؛ لأن اللازم أن يكون التعبير حينئذ «وغفر لهم الرسول»، بخلاف التعبير الذي هو من باب الاستفعال؛ فإنه وساطة وتشفع عند الله، والاستغفار هو طلب الرسولﷺ من الله أن يغفر لهم الله عن حق له تعالى.

وأما الثاني: وفيه أن رجوعهم عن غير تمرد، إنما يكون بالطاعة والانقياد على حسب زعمه، بينما مفاد الآية العام شرطية استغفار الرسول لهم، لا مجرد طلبهم من الرسولﷺ أن يستغفر لهم، مع أن استغفار الرسول متعلق بما هو حق الله، بينما تمردهم على طاعة الرسول هو بالخضوع له لا الحصر بطلب أن يستغفر لهم.

وأما الثالث: وفيه أن هذا اعتراف بأن توبتهم من دون شفاعة النبيﷺ مخدوشة وناقصة ومختلة، وهذا هو كر على ما فر منه وتنكر له، مما يبين صراحة الآية في الشرطية العامة للتوبة من عموم الذنوب، ولو كان الخلل في توبتهم من جهة فعل هم يقومون به، فكيف يقوم فعل من غيرهم مقام فعلهم؟ مع أن ظاهر الآية تمامية الاستغفار كفعل لهم، وإنما التأكيد على ضرورة ضميمة شفاعة النبيﷺ لذلك وضميمة الالتجاء والاستشفاع بالنبيﷺ، ويقرر عموم مفاد الآية[1].

---

(١) تتمة الى مناقشة الشيخ الأستاذ نضيف:

إنّ ما ذكره الفخر الرازي من الوجوه ليست بفنية بحسب القاعدة العقائدية والفقهية، وبالتالي فهي غير صحيحة جملة وتفصيلاً، وبيان ذلك فيما يلي:

▪ إنّ المعصية المتعلقة بالله مباشرة أو بالرسولﷺ الواسطة بين الله والناس، مرجعها الى حقيقة واحدة وليست منحلة الى معصيتين، ومن ثم فإن الإساءة الداخلية على الرسولﷺ بالإعراض عنه أو بالتمرد عليه لا تعود الى الاستطالة على الحق الشخصي للرسول الأكرمﷺ حتى يكون ذلك إساءة شخصية له كإنسان ولابد من تنازله

القاعدة الثانية: شرطا الإيمان والعبادة

قد مر في الوجه الثاني أن نبهنا أن آية سورة الأعراف الآتية وغيرها من الآيات التي مرت في الوجوه السابقة دالة على أن التوسل أو التوجه أو التشفع بهم عليهم السلام شرط في حتمية الإيمان بالله ورسوله وبإمامتهم، فلا يكفي الإيمان بولاية الله ورسوله وأولي الأمر من أهل بيته عليهم السلام من دون اللجوء إليهم.

فالمصلي في الصلاة إلى الله يتوجه بالنبي صلى الله عليه وآله، ولا يقتصر على الإيمان بالنبي

واستغفاره تعبيراً عن رضاه لكي تتحقق التوبة الإلهية وترتفع العقوبة عنهم، وإنما كل معصية أو تمرد عنه صلى الله عليه وآله هو في الحقيقة استطالةواستكبار وتمرد وإباء عنى الله تعالى، والرسول صلى الله عليه وآله إنّما هو الحضرة المكرمة الممثلة لله تبارك وتعالى، وبالتالي فالتوجه الحقيقي لله والامتثال الجاد لأوامره والانتهاء عن نواهيه لا يبقي أي إساءة في ساحة الرسول صلى الله عليه وآله .

▣ لو سلمنا أن الذي تحقق منهم معصيتان الأولى: إعراضهم عن حكم رسول الله صلى الله عليه وآله، والثانية: عصيانهم لله بمتاركتهم قول وحكم وأمر سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله، لكن الملاحظ أن القرآن الكريم يذكر أموراً ثلاثة ينبغي تحققها منهم لأجل تكامل التوبةوالرجوع الى الله تبارك وتعالى، الأول: (جاءوك) ومعناه رجوعهم صاغرين لحضرة سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله بعد إعراضهم عنه. والثاني: (فاستغفروا الله) ومعناه طلب التحلل عن الذنب السابق لكي يتحقق رضا الله ورسوله؛ لأن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله لا يريد شيئاً وراء توبتهم وأخذهم بالحكم المقرر شرعاً. والثالث: (واستغفر لهم الرسول) بمعنى توسطه صلى الله عليه وآله في الاعتذار لهم عند الله عن جرمهم وذنبهم. والسؤال: ماهو موقع استغفار الرسول صلى الله عليه وآله في توبتهم ورجوعهم؟

والجواب: ليس لاستغفاره صلى الله عليه وآله عنهم وجه معقول إلا التعبير عن وجاهته وشفاعته ووسيلته ووصلته لهم ليتأهلوا للوصول لحضرة الإلهية والقرى والزلفى عند الله تعالى.

▣ إنّ الاحتمال الذي ذكره الفخر الرازي في الوجه الثالث تقييد وتحجيم للأمر بالرجوع للحضرة النبوية المذكورة في الآية على نحو الإطلاق، مما يدلل على شرطية إتيانه وطلب استغفاره ووسيلته بالنسبة لسائر الخلق، سواء افترض إتيانهم بالتوبة على الوجه الصحيح أو على الوجه المخل، وهذا ما سوف يبينه الشيخ الأستاذ في بعض البحوث القادمة التي أثبت فيها شرطية وساطة النبي صلى الله عليه وآله الى الله بالنسبة لسائر الخلق أنبياء وغير أنبياء، وبالتالي يتبين ضرورة الرجوع لحضرته المعظمة وطلب شفاعته والتوسل به صلى الله عليه وآله بعد الاستغفار التوبة الذاتية لكي ينال المستغفر التائب الحظوة والحبوة الإلهية.

وأهل بيته عليهم السلام، فما بحثه فقهاء وعلماء الإمامية من أن ولاية أهل البيت عليهم السلام شرط في صحة العبادات، أو شرط في قبولها لا يفي بتمام البحث، إذ كما تلاحظ أن الآية الكريمة تضيف شرطا آخر في صحة العبادة أو قبولها وهو التوجه بهم والتوسل بهم كعمل قلبي قصدي، وهذا الشرط قد دل عليه أيضا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾[١].

حيث لم تكتف الآية بمانعية التكذيب في صعود الأعمال والدعاء والعبادة والعقيدة، بل جعلت المانع أيضا الاستكبار على الآيات في مقابل الالتجاء إليها والتوجه بها، نظير التعبير الذي ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[٢].

فالاستكبار على الآيات في مقابل الالتجاء والتوجه بها.

وقد استعمل هذا التعبير أيضا في استكبار إبليس عن التوجه بآدم والتوسل به للوصول إلى الله تعالى.

فجملة هذه الآيات وغيرها تشترط هذا الشرط زيادة على أصل الإيمان والتصديق بآيات الله وحججه وهم النبي وأهل بيته عليهم السلام.

ومن ثم جاء التعبير فيها كشرط أول «جاؤوك»[٣]، ولم يجعل الشرط الأول الندامة أو الاستغفار أو البكاء، كما لم يجعل الشرط مجرد الإيمان بالنبي وبولاية

---

(١) سورة الأعراف (٤٠).

(٢) سورة المنافقون (٥).

(٣) وقد حمل بعض المفسرين (جاؤوك) على الانصياع السياسي لحاكمية الرسول صلى الله عليه وآله، وهذا التفسير لا ينافي ما نروم إليه، وإن كان التفسير في نفسه ضيق المفاد، إذ على هذا التفسير يتبين أن الآية تشترط وراء الإيمان ارتباطاً عملياً بالنبي صلى الله عليه وآله كشرط في قبول الزلفى الى الحضرة الإلهية.

أهل بيته عليهم السلام، بل جعلت أول شيٍ يفعله المذنبون هو الالتجاء العملي للحضرة النبوية.

وهذا التعبير بالمجي في الاستعمال العرفي يعني الأمر بالاستجارة بالنبي صلى الله عليه وآله والاستنجاد بحضرته وحماه الذي هو حمى رحمة الله تعالى، فيفر مذنبو الأمة من غضب الله إلى رحمة الله تعالى، فالأمر بالمجي إليه صلى الله عليه وآله نص بحسب الاستعمال العرفي كناية عن الاستجارة، وهي نمط من الاستغاثة نظير ما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾(١).

فتشترط الآية قبل استغفارهم وندامتهم أي قبل الإتيان بالعبادة ـ لا خصوص التوبة ـ أن يلتجئوا إلى النبي وأهل بيته عليهم السلام بالترامي في حضرتهم وتعاليمهم ووصاياهم.

ولا بد أن نتعرف في زمننا هذا من هو الذي يجسد امتداد النبي صلى الله عليه وآله؟ ومن هو الذي بالالتجاء إليه يتحقق الالتجاء بالنبي صلى الله عليه وآله؟ ومن الذي يحل محله في هذا الركن؟ وهو بقية الله في الأرضيين الإمام المهدي (عج).

الانتماء الصادق لأهل البيت عليهم السلام

ثم إنه لا يظن إن المجي إلى الحضرة النبوية وأهل بيته عليهم السلام وللمهدي بقية الله في الأرضيين هو المجي الفيزيائي بالبدن، كما ليس المراد من التوسل بهم هو التوسل بمجرد لفظ دعاء التوسل.

بل المراد من المجي إليهم هو الترامي في مسار أهل البيت عليهم السلام بكله، والانتماء إليهم مقدما على أي انتماء سواء انتماء المواطنة، فإن المواطنة الأولى هي لأهل

---

(١) سورة التوبة (٦).

البيت عليهم السلام، أو الانتماء الوظيفي فإن الانتماء الوظيفي الأول هو لهم، أو الانتماء الأسري أو العشائري، فكل ذلك لهم أيضا، أو الحزبي والتنظيمي، فإن الانتماء الأول إلى نظام طائفة أتباعهم، فلا بد من تشديد الانتماء لهم ولمناهجهم والتشبع بهديهم وتعاليمهم، وأن يكون هوانا وعوننا ونصرنا لهم، والذوبان فيهم بفكرنا وعملنا وتخطيطنا وممارساتنا، ولابد من الهجرة لهم في فكرنا، والهجرة لهم في سلوكنا، وفي منهاجنا وفي ولائنا السياسي والاجتماعي والتشريعي القانوني، ولا يكفي أن نؤمن بهم ونحن لا نلتجئ ولا نتوجه إليهم، ونحن جافون قاطعون مبتعدون عنهم، جاعلون ولاءنا ومودتنا في من يباينهم، فهم كهف يؤوى إليه في كل شيء، وباب الرحمة، وموضع العبادة والتقرب.

وقد جُعل هذا التوجه والالتجاء إلى الحضرة النبوية ملجأ يحتمى به من الغضب الإلهي، وعن النقمة الإلهية، وعاصم يعصم من السخط الإلهي.

فالكينونة في تلك الحضرة والروضة بأبعادها المختلفة أمان عاصم وشفيع مشفع، وإلا فالندامة وحدها والاستغفار وإرادة التوجه المباشر للحضرة الإلهية لا يعصم من سطوته تعالى وعقابه بنص الآية.

فالمجي إلى النبي صلى الله عليه وآله التجاء واستعاذة ولواذ به، كما أشار الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وأنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾(١).

فمن عجيب الأمر أن يأمر الله تعالى بذلك، بالتمسك بسيد الأنبياء وباللواذ بحضرته صلى الله عليه وآله بينما تلك الجماعة تحادد الله جهارا، وتنهى عن اللواذ بنبيه وأهل بيته عليهم السلام، وتنهى عن الاستغاثة به.

فينهون عن قول «يا محمد يا علي» ويسمون هذا التوحيد الجلي في الآية

---

(١) سورة الأنفال (٣٣).

الكريمة بالشرك، فهم يحكمون بالشرك بذلك على الملائكة بسجودهم لآدم، ويحكمون بالتوحيد على إبليس، ويجعلون منه الرائد القدوة الذي يتبع في خطواته.

ثم إن الآية تشترط علاوة على ذلك تشفع النبي ﷺ، وتدلل بذلك على مقام عظيم لسيد الأنبياء من أن جميع عبادة العباد لا تقبل في الحضرة الإلهية إلا بتشفع النبي ﷺ لقبولها من قبل الله تعالى.

فجميع أعمال العباد ـ عباداتهم وقصدهم وقرباتهم وتوجههم إلى الحضرة الإلهية ـ لابد لها من وساطة النبي ﷺ لقبولها في الحضرة الإلهية.

فلو أهلك عابد نفسه، وعمر ما عمر نوح في قومه صائماً نهاره قائماً ليله وصلى بين الركن والمقام لما قبلت عباداته من دون شفاعة سيد الأنبياء ﷺ[1].

هذا بعد توفر عبادته على الشرط الأول وهو التوجه بالنبي وأهل بيته ﷺ.

ولا يخفى الصلة الوثيقة بين هذا المقام وبين ما أثبتته جملة من الآيات في النبي وأهل بيته ﷺ من الشهادة على الأعمال كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[2].

---

(١) المحاسن. أحمد بن محمد بن خالد البرقي ج ١ ص ٩٠:

قال: قال أبو عبدالله عليه السلام (يا معنى لو أن عبداً عبدالله مائة عام ما بين الركن والمقام يصوم النهار ويقوم الليل حتى يسقط حاجباه على عينيه وتلتقي تراقيه هرماً جاهلاً لحقنا لم يكن له ثواب).

وسائل الشيعة (آل البيت). الحر العاملي ج ١ ص ١٢٢:

عن أبي حمزة الثمالي، قال: قال لنا علي بن الحسين عليه السلام (أي البقاع أفضل؟ فقلنا: الله ورسوله وابن رسوله أعلم، فقال لنا: أفضل البقاع ما بين الركن والمقام، ولو أن رجلاً عمّر ما عمّر نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، يصوم النهار، ويقوم الليل في ذلك المكان، ثم لقى (لقي) الله بغير ولايتنا لم ينفعه ذلك شيئاً).

(٢) سورة التوبة (١٠٥).

وقوله تعالى مخاطباً أهل البيت عليهم السلام: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾(١)، وغيرها من الآيات.

فإن مقام شهادتهم لأعمال العباد هو لرعايتهم لتلك الأعمال حتى يتشفعوا لقبولها في الحضرة الإلهية، فهي لا تأخذ طريق الكمال والبقاء الأبدي من الفيض الإلهي إلا بواسطة النبي وأهل بيته عليهم السلام لمجرى هذا الفيض.

كيف لا والنبي وأهل بيته عليهم السلام يتشفعون للأنبياء في حصولهم على النبوة والكتاب والحكمة وسائر المقامات الغيبية، كما يأتي في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾(٢).

نزول الفيض الإلهي متوقف على شروط ثلاثة

إن الشرائط المزبورة في الآية ليست شرائط في خصوص التوبة، بل هي شرائط في عموم العبادة الإلهية بما يشمل العبادة العلمية وهي المعرفة العقلية والقلبية، فحصول الإجابة والفيض الإلهي المعرفي والكمالي مشترطة بالشروط الثلاثة المتقدمة.

وهذه الآية تبين سنة قرآنية عظيمة وشرعية في كيفية ناموس الدعاء والطلب من الحضرة الإلهية، وهي أنه ينبغي تقديم التوجه إلى الحضرة النبوية على الدعاء

---

(١) سورة الحج (٧٨).

(٢) سورة آل عمران (٨١).

والطلب، أو قل يلزم في ماهية الدعاء تقديم التوجه إلى الحضرة النبوية عليه.

ثم لابد أن يضاف إلى الدعاء مطالبة النبيﷺ وحمله لذلك الطلب والذهاب به إلى الحضرة الإلهية.

فالآية بيان واضح لسنة إلهية دائمة هي لزوم تشفع النبيﷺ إلى الرب في قضاء جميع حوائج الخلق، فالتوسل بهﷺ مقدم على الدعاء من الحضرة الإلهية، ثم يتعقبه الدعاء من الحضرة الإلهية، ثم ذلك يهيئ الأرضية إلى شفاعة النبيﷺ وتشفعه.

فتبين من ذلك أن الشفاعة ملزومة للتوسل، وأن ما دل على ضرورة الشفاعة دال على ضرورة التوسل، وضرورة اقترانهما بدءاً وختماً للدعاء من الحضرة الإلهية.

ويعاضد الآية السابقة في نفس المفاد قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[1].

فهذه الآية متطابقة مع مفاد الآية السابقة في أطراف مفادها وعناصر مكوناته والخصائص المشار إليها، فها هي تبين أن الخطوة الأولى للمذنبين ولصراط الأوابين إليه تعالى هي أن يتوجهوا إلى الحضرة النبوية، وهذا يتطابق مع الشرط الأول في الآية السابقة مفادًا ورتبة، وهذا الشرط مفادا وتقدما لا يختص بالتوبة من الذنوب، بل هو قوام ودعامة أساسية في كل أوبة ورجوع وتوجه إلى الحضرة الإلهية، وأن طريق السلوك إليها هو بالتوجه إلى بابها وهي الحضرة النبوية.

كما أن الآية تدل على أن شرط حصول التوبة والأوبة إلى الله تعالى هو باستغفار الرسولﷺ وتشفعه في ذلك، وأما استغفار المذنبين فكأنه شرط مطوي

---

(١) سورة المنافقون (٥).

مدلول عليه بإرادة المذنبين للأوبة إلى الحضرة الإلهية.

مضافًا إلى أن الآية تتعرض إلى بيان حقيقة وحكم المنكرين للتوسل بالنبي ﷺ والتوجه به إلى الله تعالى والاستشفاع به، وهي أنهم مستكبرون ـ كحكم إبليس عندما أعرض وأبى عن التوجه بآدم ﷺ في عبادته إلى الله أنه استكبر وكان من الكافرين ـ وأن هؤلاء صادون عن سبيل الله تعالى، وينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[1].

لأنهم أعرضوا عن باب الله الأعظم، وآيته الكبرى، واسمه العظيم الدال على عظمة الذات الإلهية.

فالصادون عن حجج الله تعالى المصطفين مكذبون بهذه الآيات الكبرى، ومستكبرون عليها، وملحدون عنها إلى صراط الغوي.

وبالتالي فالآية الكريمة تشير إلى انحصار الطريق إليه تعالى بالتوسل بالنبي ﷺ والتوجه به إلى الله؛ وذلك لأنها كما تشترط طريق الأوبة والرجوع إلى الله بالتوسل والتوجه بالنبي ﷺ وقيامه بدور الشفاعة، كذلك تبين حكم الطرف المقابل والحالة المقابلة، بأنه طريق غواية وصد عن سبيل الله واستكبار على آياته.

التوجه بهم ناموس وسنّة إلهية

فتأكد بذلك دلالة الحصر عن طريق التقسيم القاطع للشركة، وبيان المنطوق مع التصريح بالمفهوم، فتشير بذلك إلى مفاد الدليل العقلي السابق الدال على حصر الطريق إلى الله بآياته تعالى.

وقد ورد في الأحاديث الصحاح عن أهل البيت ﷺ ما يدل على هذا الناموس

---

(١) سورة الأعراف (١٨٠).

في السنن الإلهية في الدعاء ومنها:

▣ صحيح صفوان الجمال عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كل دعاء يدعى الله عز وجل به محجوب عن السماء حتى يصلى على محمد وآل محمد»[(١)].

▣ صحيح هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «لا يزال الدعاء محجوبا حتى يصلى على محمد وآل محمد»[(٢)].

▣ معتبرة السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من دعا ولم يذكر النبي صلى الله عليه وآله رفرف الدعاء على رأسه، فإذا ذكر النبي صلى الله عليه وآله رفع الدعاء»[(٣)].

وغيرها من الروايات في نفس الباب.

ومضامين هذه الروايات متطابق مع الآية الكريمة في لزوم التوسل بالنبي وآله صلى الله عليه وآله لأجل حصول النيل الإلهي، وأن التوسل بهم مفتاح لأبواب السماء وتصاعد الدعاء، وأن بدونه لا تفتح أبواب السماء لا للدعاء ولا لغيره، حيث إن في الصلاة على النبي وآله صلى الله عليه وآله ذكر له ولهم وتشفع بهم وتوجه بهم إلى الله تعالى.

وإليك طائفة أخرى من الروايات ذكرها صاحب الوسائل في الباب السابع والثلاثين من أبواب الدعاء وهي تؤكد دور التوسل في الدعاء:

▣ عن داود الرقي قال: «إني كنت أسمع أبا عبد الله عليه السلام أكثر ما يلح في الدعاء على الله بحق الخمسة، يعني رسول الله، وأمير المؤمنين، وفاطمة، والحسن والحسين عليهم السلام»[(٤)].

▣ عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: سألت النبي صلى الله عليه وآله عن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه؟ قال صلى الله عليه وآله: «سأله بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن

---

(١) وسائل الشيعة ج٧، ص٩٢، ح١.

(٢) وسائل الشيعة ج٧، ص٩٣، ح٥.

(٣) وسائل الشيعة ج٧، ص٩٣، ح٦.

(٤) وسائل الشيعة (آل البيت). الحر العاملي ج٧ ص٩٧ ح١.

والحسين إلا تبت علي، فتاب عليه»[١].

◘ عن معمر بن راشد، عن الصادق عليه السلام ـ في حديث ـ قال، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنه يكره للعبد أن يزكي نفسه، ولكني أقول: إن آدم لما أصاب الخطيئة كانت توبته أن قال: اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد لما غفرت لي، فغفرها له، وأن نوحا لما ركب السفينة وخاف الغرق قال: اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد لما أنجيتني من الغرق، فأنجاه الله منه، وأن إبراهيم لما ألقي في النار قال: اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد لما أنجيتني منها، فجعلها الله عليه بردا وسلاما، وأن موسى لما ألقى عصاه وأوجس في نفسه خيفة قال: اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد لما أمنتني، فقال له الله عز وجل: لا تخف، إنك أنت الأعلى»[٢].

◘ أحمد بن فهد في «عدة الداعي» عن سلمان الفارسي قال: سمعت محمداً صلى الله عليه وآله يقول: «إن الله عز وجل يقول: يا عبادي، أو ليس من له إليكم حوائج كبار لا تجودون بها إلا أن يتحمل عليكم بأحب الخلق إليكم تقضونها كرامة لشفيعهم؟ ألا فاعلموا أن أكرم الخلق علي وأفضلهم لدي محمد وأخوه علي ومن بعده الأئمة الذين هم الوسائل إلى الله، فليدعني من همته حاجة يريد نفعها أو دهمته داهية يريد كشف ضرها بمحمد وآله الطيبين الطاهرين أقضها له أحسن ما يقضيها من «تستشفعون له» بأعز الخلق إليه»[٣].

◘ الحسن بن علي العسكري عليه السلام في «تفسيره» عن آبائه، عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «إن الله سبحانه يقول: عبادي، من كانت له إليكم حاجة فسألكم بمن تحبون أجبتم دعاءه، ألا فاعلموا أن أحب عبادي إلي وأكرمهم لدي محمد وعلي حبيبي ووليي، فمن كانت له حاجة إلي فليتوسل إليّ بهما، فإني لا أرد سؤال سائل يسألني بهما وبالطيبين من عترتهما، فمن

---

(١) وسائل الشيعة (آل البيت). الحر العاملي ج٧ ص٩٨ ح٣.

(٢) وسائل الشيعة (آل البيت). الحر العاملي ج٧ ص١٠٠ ح٦.

(٣) وسائل الشيعة (آل البيت). الحر العاملي ج٧٨ ص١٠١ ح٨.

سألني بهم فإني لا أرد دعاءه، وكيف أرد دعاء من سألني بحبيبي وصفوتي ووليي وحجتي وروحي ونوري وآيتي وبابي ورحمتي ووجهي ونعمتي؟ ألا وإني خلقتهم من نور عظمتي، وجعلتهم أهل كرامتي وولايتي، فمن سألني بهم عارفا بحقهم ومقامهم أوجبت له مني الإجابة، وكان ذلك حقا علي»(١).

وفي الرواية بيان للتلازم بين قرب المحبوب ودوره في الشفاعة، وبالتالي دوره في صيرورته وسيلة وبابا ووجها إليه تعالى، وأن ما يمارس عند البشر من التوسيط للوسائط كوسائل عند من يقصد طلب الحاجة منه وأن المحبوب باب ووجه يتوجه به، أمر فطري حكيم يمارسه الناس بقضاء فطرتهم.

▣ عن علي بن الحسن بن فضال، عن أبيه، عن الرضا عليه السلام قال: «لما أشرف نوح على الغرق دعا الله بحقنا فدفع الله عنه الغرق، ولما رمي إبراهيم في النار دعا الله بحقنا فجعل الله عليه النار بردا وسلاما، وأن موسى لما ضرب طريقا في البحر دعا الله بحقنا فجعل يبسا، وأن عيسى لما أراد اليهود قتله دعا الله بحقنا فنجي من القتل فرفعه إليه»(٢).

قال الحر العاملي: أقول والأحاديث في ذلك كثيرة جدا من طريق العامة والخاصة، أو في الأدعية المأثورة دلالة على ذلك لأنها مشحونة بالتوسل بهم عليهم السلام(٣).

---

(١) وسائل الشيعة (آل البيت). الحر العاملي ج٧ ص١٠٢ ح١٠.

(٢) وسائل الشيعة (آل البيت). الحر العاملي ج٧ ص١٠٣ ح١٣.

(٣) وسائل الشيعة (آل البيت). الحر العاملي ج٧ ص١٠٣.

بحوث الآية الثانية

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾(١).

القاعدة الثالثة:

نيل كل كمال بالاستشفاع وشفاعة النبي وأهله عليهم السلام

ومقتضى مفاد الآية أن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام كانوا على دين محمد صلى الله عليه وآله قبل أن يبعث، إذ قد أخذ الله عليهم بعد التوحيد الإقرار بنبوة سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله، كما هو نص الآية الشريفة، لا كما يثيره جملة من الباحثين في علم الكلام والتأريخ والسيرة من أن الرسول صلى الله عليه وآله قبل بعثته كان رسولا على دين إبراهيم أو على دين غيره من الأنبياء !!

إذ مقتضى الآية في سورة الأعراف أن إبراهيم كان على دين محمد، وكذا عيسى وموسى وآدم لا العكس.

فإذا كان جميع الأنبياء من قبل على دين النبي محمد صلى الله عليه وآله وإن كانوا على شرائع مختلفة إلا أن دينهم دين واحد وهو دين خاتم الأنبياء، كما هو مفاد العديد من الآيات الآتية:

- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ﴾(٢).

ف وقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾(٣).

---

(١) سورة آل عمران (٨١).

(٢) سورة آل عمران (١٩).

(٣) سورة المائدة (٤٨).

▣ وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(١).

والدين عبارة عن مجموع الأصول الاعتقادية وأركان الفروع، بخلاف الشريعة التي هي عبارة عن تفاصيل الفروع.

وأما أصول المحرمات والواجبات فإنها داخلة في الدين كذلك دون الشريعة، والمقصود من أصول المحرمات والواجبات هي أسس التحريم وأسس الواجبات، مثل تحريم الفواحش والربا، والظلم والعدوان ومثل صلة الرحم، وأداء الأمانة والوفاء بالعهد.

والمقصود بأركان الفروع هي العشرة التي منها الصلاة والزكاة والحج والصوم.

وحيث إن ولاية علي وأهل بيته عليهم السلام هي من نظام الدين لا الشريعة بنص قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾(٢).

حيث جعل تبليغه صلى الله عليه وآله لولاية علي عليه السلام إكمالا للدين، لا حكما فرعيا في تفاصيل الشريعة كما هو مفاد قوله تعالى أيضا: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وأن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾(٣).

فجعلت الرسالة برمتها مرهونة بإبلاغ ولاية علي عليه السلام، أي أن ولاية علي عليه السلام امتداد للتوحيد والنبوة، وهي ولاية الله وولاية الرسول صلى الله عليه وآله، وكذلك مفاد قوله

---

(١) سورة آل عمران (٦٧).

(٢) سورة المائدة (٣).

(٣) سورة المائدة (٦٧).

تعالى: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾(١).

حيث جعلت المودة عدلا للكون على جملة الرسالة بما فيها من أصول الدين، مما ينبه على كون مودة القربى وولاية أهل البيت عليهم السلام هي من الأصول الاعتقادية.

وغيرها من الآيات الواردة في أهل البيت عليهم السلام الدالة على أن ولايتهم عليهم السلام من أصول الدين والديانة، فإذا كان جميع الأنبياء على دين واحد وديانة واحدة وهو دين سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله الذي تضمن ولاية علي وأهل بيته عليهم السلام كأصل من أصوله، فلا محالة فإن جميع الأنبياء قد أخذ عليهم الإقرار بولاية أهل البيت عليهم السلام أيضا، لاسيما بعد الالتفات إلى أن ولاية أهل البيت وإمامتهم عليهم السلام تأتي في ترتيب أصول الديانة بعد ولاية الرسول صلى الله عليه وآله، كما هو مقتضى جملة من الآيات كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾(٢) التي نزلت في علي عليه السلام حينما تصدق بالخاتم، وقد أورد ذلك في كتب عديدة ومن الفريقين(٣).

---

(١) سورة الشورى (٢٣).

(٢) سورة المائدة (٥٥).

(٣) قال الآلوسي في روح المعاني ج٣ ص٣٣٤: وأغلب الإخباريين على أنها نزلت في علي كرّم الله تعالى وجهه، فقد أخرج الحاكم وابن مردويه وغيرهما عن ابن عباس رضي الله تعاليعنهما بإسناد متصل قال: أقبل ابن سلام ونفر من قومه آمنوا بالنبي صلى الله عليه وآله فقالوا: يا رسول الله إن منازلنا بعيدة وليس لنامجلس ولا متحدث دون هذا المجلس، وأن قومنا لما رأونا آمنا بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وصدقناه رفضونا وآلوا على نفوسهم أن لا يجالسونا ولا يناكحونا ولا يكلمونا، فشق ذلك علينا، فقال لهم النبي صلى الله عليه وآله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ...﴾، ثم أنه صلى الله عليه وآله خرج الى المسجد والناس بين قائم وراكع، فبصر بسائل فقال: هل أعطاك أحد شيئاً؟ فقال: نعم، خاتم من فضة فقال: من أعطاكه، فقال: ذاك القائم وأومأ الى علي كرم الله تعالى وجهه، فقال النبي صلى الله عليه وآله: على أي حال أعطاك؟ فقال: وهو راكع، فكبّر النبي صلى الله عليه وآله ثم تلا هذه الآية، فأنشأ حسان رضي الله تعالى عنه يقول:

أبا حسن تفديك نفسي ومهجتي وكل بطيء في الهدى ومسارع

أيــذهب مـديك المـحبر ضـائعاً ... ومـا المـدح في جنب الإله بـضائع
فـأنت الذي أعـطيت إذ كـنت راكـعاً ... زكـاة فـدتك النـفس يـا خـير راكـع
فـــأنزل فـــيك الله خــــير ولايــــة ... واثـــبتها أثـــنا كـــتاب الشـــرائـع

وفي الدر المنثور ج ٢ ص ٥١٩، طبعة دار الكتاب العلمية:

وأخرج عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ...﴾ الآية: نزلت في علي بن أبي طالب، وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه عن عمار بن ياسر قال: وقف بعلي سائل وهو راكع في صلاة تطوع، فنزع خاتمه فأعطاه السائل، فأتى رسول الله ﷺ فأعلمه ذلك، فنزلت على النبي ﷺ هذه الآية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ فقرأ رسول الله ﷺ على أصحابه ثم قال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال: نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ في بيته: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ...﴾ الى آخر الآية، فخرج رسول الله ﷺ فدخل المسجد جاء والناس يصلون بين راكع وساجد وقائم يصلي، فإذا سائل هل أعطاك أحد شيئاً؟ قال: لا إلا ذاك الراكع. لعلي بن أبي طالب. أعطاني خاتمه. وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن سلمة بن كهيل قال: تصدق علي بخاتمه وهو راكع فنزلت: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ... الآية﴾. وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ... الآية﴾ نزلت في علي بن أبي طالب تصدق وهو راكع. وأخرج ابن جرير عن السدي وعتبة بن حكيم مثله. وأخرج ابن مردويه من طرق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: أتى عبدالله بن سلام ورهط معه من أهل الكتاب نبي الله ﷺ عند الظهر فقالوا يا رسول الله: إن بيوتنا قاصية لا نجد من يجالسنا ويخالطنا دون هذا المسجد، وأن قمنا لما رأونا قد صدقنا الله رسوله وتركنا دينهم أظهروا العداوة وأقسموا أن لا يخالطونا ولا يؤاكلونا، فشق ذلك علينا فبيناهم يشكون ذلك الى رسول الله ﷺ، إذ نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ ونودي بالصلاة صلاة الظهر وهرج رسول الله فقال: أعطاك أحد شيئاً؟ قال: نعم، قال: من؟ قال: ذاك الرجل القائم، قال: على أي حال أعطاكه؟ قال: وهو راكعه، قال: وذلك علي بن أبي طالب، فكبر رسول الله ﷺ عند ذلك، وهو يقول: (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإنحزب الله هم الغالبون) المائدة الآية ٥٦. وأخرج الطبراني وابن مردويه وأبو نعيم عن أبي رافع قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو نائم يوحى إليه فإذا حية في جانب البيت فكرهت أن أبيت عليها فأوقظ النبي ﷺ وخفت أن يكون يوحى إليه، فاضطجعت بين الحية وبين النبي ﷺ لئن كان منها سوء كان في دونه فمكثت ساعة، فاستيقظ النبي ﷺ وهو يقول: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ

▣ وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[١].

▣ وقوله تعالى: ﴿مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٢].

▣ وقوله تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾[٣] وغيرها من الآيات.

وقد قرن أهل البيت عليهم السلام مع سيدهم سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله في آية التطهير ولم يشرك معه غيرهم، كما قرنوا تابعين معه في آية المباهلة.

وعلى ضوء ذلك:

فإذا كان جميع الأنبياء إنما قد حصلوا على مقام النبوة وتأهلوا لذلك بالإقرار بدين خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله المتضمن لولاية أهل بيته تلو ولاية الرسول صلى الله عليه وآله، فذلك دال

وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ الحمدلله الذي أتم لعني نعمه وهيأ لعني بفضل الله إياه. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان عني بن أبي ط الب قائمٌ يصني، فمر سائل وهو راكع فأعطاه خاتمه، فنزلت هذه الآية ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ... الآية﴾ قال: نزلت في الذين آمنوا وعني بن أبي طالب أولهم. وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ قال: يعني من أسنم فقد تولى الله ورسوله والذين آمنوا، وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن أبي جعفر أنه سئل عن هذه الآية (من الذين آمنوا) قال (الذين آمنوا) قيل له بنغنا أنها نزلت في عني بن أبي طالب، قال: عني من الذين آمنوا. وأخرج أبو نعيم في الحنية عن عبدالمنك بن أبي سنيمان قال: سألت أبا جعفر محمد بن عني عن قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ قال: أصحاب محمد صلى الله عليه وآله قنت يقولون عني، قال: عني منهم...».

(١) سورة النساء (٥٩).

(٢) سورة الحشر (٧).

(٣) سورة الحج (٧٨).

على أنهم لم يحصلوا على تلك المقامات إلا بالإقرار بولاية الرسول وولاية أهل بيته عليهم السلام.

وهذا مما يقضي أن جميع الأنبياء والمرسلين توسلوا وتشفعوا بالنبي وأهل بيته عليهم السلام ليحصلوا على مقام النبوة والحكمة والكتاب، ومما يدعم ذلك قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[١].

وسوف تأتي الرواية التي رواها الحاكم النيسابوري في تفسير الآية[٢].

وقد أطلق القرآن الكريم الكلمة على عيسى كما مر، والتعبير في الآية بالكلمات لا الكلمة، ولا ريب أن الكلمة الإلهية أصدق على سيد الأنبياء من عيسى عليه السلام، وقد مر اقتران أهل البيت عليهم السلام بسيد الأنبياء في مقام التطهير في سورة الأحزاب[٣]، وفي مقام الحجية في سورة آل عمران في آية المباهلة[٤]، وفي مقام الطاعة في سورة النساء[٥]، وغير ذلك من المقامات في السور القرآنية.

فتبين من ذلك أن الكلمات التي تاب الله بها على آدم بعد توسله وتشفعه هي النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام.

◘ وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي

---

(١) سورة البقرة (٣٧).

(٢) نقل أن آدم لما أقترف الخطيئة، قال: ياربي، أسألك بحق محمد صلى الله عليه وآله لما غفرت لي، فقال: يا آدم، كيف عرفت؟ قال: لأنك لما خلقتني إلى العرش فوجدت مكتوباً فيه: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فرأيت اسمه مقروناً مع اسمك، فعرفته أحبّ الخلق إليك) صححه في المستدرك للحاكم ج ٢ ص٦١٥.

(٣) قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ سورة الأحزاب (٣٣).

(٤) قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَاذِبِينَ﴾ سورة آل عمران (٦١).

(٥) قوله تعالى: ﴿يَآأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ سورة النساء (٥٩).

جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾(١).

إذ الكلمات التي ابتلي بها إبراهيم عليه السلام وامتحن لنيل مقام الإمـامة لا ريب أن أحدها هو ولاية سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله، كما نصت على ذلك آية أخذ الميثاق التي نحن بصدد الحديث عنها.

وقد مر أن مفاد الآية أخذ الإقرار بولاية أهل البـيت عليهم السلام أيـضا عـليهم فـي الميثاق؛ لأنه قد أخذ عليهم الإقرار بدين خاتم الأنبياء المتضمن لكل من ولاية الله ورسوله وأهل بيته عليهم السلام، ومن ثم بين القرآن الكريم تفوق علم أهل البيت عليهم السلام ـ بعلم الكتاب كله ـ على علم جميع الأنبياء السابقين، حيث أثبتت لهم علم بعض الكتاب، فورد في شأن أهل البيت عليهم السلام في سورة الرعد قوله تعالى: **﴿وَيَقُولُ الَّـذِينَ كَـفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾**(٢).

والآية مكية النـزول، حيث نزلت في مكة المكرمة في بدايات البعثة نـاعتة لعلي بن أبي طالب عليه السلام بمن عنده علم الكتاب، والإضافة تقضي الاستغراق مع «أل» العهدية، وكذلك ورد في شأنهم قوله تعالى: **﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾**(٣).

فأثبتت الآية الكريمة أن المطهرين من هذه الأمة ـ الذين شـهد لهـم القـرآن بالطهارة ـ ينالون ويحيطون بالقرآن كله، في مقام الكتاب المكنون، إذ قـد أسـند المس للكتاب كله.

وغيرها من الآيات الدالة على علمه عليه السلام، بينما نعت القرآن الكريم العلم الذي أوتيه النبي عيسى بقوله تعالى: **﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَـاتَّقُوا اللَّـهَ**

---

(١) سورة البقرة (١٢٤).

(٢) سورة الرعد (٤٣).

(٣) سورة الواقعة (٧٧، ٨٠).

وَأَطِيعُونِ﴾[1].

وقال تعالى في شأن موسى ﷺ في التوراة التي أنزلت عليه: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[2].

فوصف العلم في التوراة بالتبعيض، بينما نعت القرآن الكريم بأنه: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[3].

وأنه: ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[4].

ثم إن قضاء الضرورة الدينية بمقام الشفاعة بالنبي وأهل بيته ﷺ يقضي بأن يكون الطلب مباشرة من الله هو من قبل الشفيع لا المشفوع له، وأن الاستغاثة بالشفيع ترجع في حقيقتها إلى طلب الشفاعة من الشفيع، بأن يشفع ويكون الطلب منه مباشرة.

وهذا المفاد ذاتي في مكونات الشفاعة، فالتوجه بالطلب والاستغاثة بالشفيع من المقتضيات الذاتية للشفاعة التي هي سنة إلهية وقرآنية.

---

(١) سورة الزخرف (٦٣).

(٢) سورة الأعراف (١٤٥).

(٣) سورة يوسف (١١١).

(٤) سورة النحل (٨٩).

سؤال حول قرب الله وضرورة الواسطة إليه

وقد يعترض قائل بأنه كيف يدعى لزوم الحاجة إلى التوسل والتوجه بالنبي وأهل بيته ﷺ في العبادة لله ودعائه، مع أنه تعالى قد قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[1].

فإذا كان الباري تعالى قريب، فأي حجاب وحاجب بينه وبين خلقه؟ فهو لا يحتجب عن خلقه، وقد قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أقرب إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[2].

الجواب:

إن هذا القائل تخيل أن قرب الله تعالى من خلقه ملازم لقرب الخلق منه تعالى، وظن أن قرب أحد الطرفين وهو الله من الآخر وهو الخلق يلازم قرب الخلق منه تعالى، وهذا التوهم مبني على حساب أن هذا القرب قرب مكاني كقرب جسم من جسم، وتشبيه بالمواد الفيزيائية، فإن في القرب الجسماني افتراض قرب أحد الطرفين يلازم قرب الطرف الآخر، ويمتنع افتراض قرب أحدهما من الآخر وافتراض بعد الآخر من الأول.

وهذا بخلاف القرب والبعد المعنوي، فإن قرب الله تعالى من خلقه بمعنى نفوذ قدرته فيهم وسيطرته عليهم وقيامهم بحوله وقوته، واستعلائه على فعله وهيمنته على مخلوقاته.

فقربه تعالى قرب قدرة واقتدار وسيطرة واستعلاء وهيمنة وقيومية ونفوذ علم، فالخلق قائم به تعالى بحوله وقوته، وبفيض مدده يكون كل كائن، فأنى للمخلوق أن

---

(١) سورة البقرة (١٨٦).

(٢) سورة ق (١٦).

يبتعد قيد شعرة عن قبضته؟! كيف وحاق كينونة ذات المخلوق بيده تعالى.

وقربه تعالى قرب القادر من العاجز، وقرب المحيط من المحاط به، وقرب الغني من الفقير، وقرب المدد من المستمد، وقرب القوي من الضعيف، وقرب القاهر من المقهور، وقرب ذي البطش النافذ من المنفوذ فيه.

فقدرته تعالى داخلة في الأشياء لا بالممازجة، وخارجة عنها لا بالمزايلة، فمن ذا يقرب من الله كقربه تعالى من الأشياء، وأنى للأشياء أن تقترب إليه كقربه هو منها.

بل هذا القرب منه تعالى يتلازم مع بعد الأشياء من أن تصل إلى مقامه وعلو شأنه، ومن ثم كان تعالى بعيدا في قربه وقريبا في بعده، أي أنه تعالى بعيد عن أن يضاهيه شيء غيره، في حين أنه قريب القدرة والتصرف والنفوذ في الأشياء.

ومن ثم عمل العاملون، وعبد العابدون، وأطاع المطيعون، وتسابق المتسابقون، وتنافس المتنافسون في الاقتراب منه، كما جعلت نية الأعمال والعبادات لأجل الزلفى والقربى منه تعالى، وعلى ضوء ذلك اختلفت درجات قرب العباد وبعدهم منه تعالى.

فهناك المقربون والسابقون الأولون وأصحاب اليمين والأبرار وأصحاب الشمال، وهناك المذحور المطرود المرجوم كإبليس الغوي الرجيم، فليس زلفى العباد على درجة واحدة، ولأجل ذلك اختلف العطاء الإلهي والهبات منه بحسب مقامات القرب والبعد.

واختلاف المخلوقات في القرب منه تعالى والبعد لا يعني اختلاف قرب الباري منهم جميعا، بل الباري تعالى قربه من الأشياء كلها على استواء واحد، فإن قدرته تعالى على جميع مخلوقاته سواء العظيم منها والحقير.

فإذا تبين ذلك اتضح أن قرب الباري تعالى من العباد لا يعني استواء قربهم هم

منه تعالى، وعدم وجود الحجاب بالنسبة إليه تعالى اتجاه الخلق والمخلوقات لا يعني عدم وجود الحجاب والحاجب بالنسبة إلى المخلوقات اتجاه الباري تعالى، إذ هذا هو حال المحيط والمحاط به، فإن المحيط لا يحجبه حاجب عن إدراك المحيط به والاقتدار عليه والعلم بشؤونه، لكن ضعف المحاط به أكبر حاجب عن أن يدرك ويحيط بمن هو محيط.

وبعبارة أخرى: هذا هو حال القرب والبعد الناشئ من الكمال والنقص، وهذا هو معنى استواء الرب تعالى على العرش، أي عرش القدرة والعلم. واستواؤه أي سيطرته وهيمنته ونفوذ علمه وقدرته في الأشياء على استواء وسواسية.

فإذا كانت العلاقة من طرف الخالق إلى المخلوق تختلف عن العلاقة من طرف المخلوق اتجاه الخالق، وأن المخلوقات على اختلاف فيما بين بعضها البعض قربا وبعدا من الباري تعالى، فلا محالة كان بعضها وسيلة للبعض الآخر؛ لأن المخلوق البعيد الضعيف ليس في قابليته أن يدرك من باريه إلا فعله وهو المخلوقات العظيمة الشأن قربا، والتي تمثل آية للصفات الربانية وعلامة ودلالة للتعرف على شأن الذات الإلهية.

فسبيل معرفة الذات الإلهية ممتنع على المخلوقات الضعيفة لامتناع أن تحيط بذات الباري، بل لا يمكنها إلا نيل شعاع فعل الله، وهي آياته من مخلوقاته الكريمة المقربة عنده في الفيض والعطاء والهبات الإلهية.

ومن كل ذلك يتبين الضرورة العقلية للتوسل بالنبي وأهل بيته ﷺ والاضطرار إلى التوجه بهم في مقام المعرفة بالذات الإلهية والإيمان بها ومقام القصد في العبادة وكل أوبة إليه تعالى، ولنيل كل فيض وعطية ومقام إلهي.

الصفات الإلهية العظمى والحاجة إلى وساطة كلماته تعالى

إن هذا الشأن ـ ضرورة التوسل بالموجود المقدس للوصول إلى الله تـعالى ـ جار في سائر الصفات الإلهية لعدم تناهيها فضلا عن الذات الإلهية، فإن تعاظم تلك الصفات وعدم انتهائها إلى حد محدود يوجب امتناع استغراق الفكر فيها، ويحول دون استقصاء القلب لمعرفة كنهها، وبالتالي يستحيل إدراكها من المـخلوقات إلا بتوسط علامات ودلائل في أفعاله تعالى، وهي مخلوقاته العظيمة، فتكون بـمثابة العلامات والآيات والدلائل على تلك الصفات، فتلك المخلوقات أسماؤه الحسنى؛ لأنها سمات وعلامات ودلائل على شموخ صفاته وتعاظمها.

بل إن هذا الشأن مقرر في أفعال الله وفيضه العميم الدائم الذي لا يبيد كما تشير إلى ذلك عديد من الآيات:

▣ قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[1].

▣ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ إنما فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2].

▣ وكذا قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[3].

فإن لفظة «شيء» مبهمة فضلا عن إضافة لفظة «كل» التي هي مـن أدل ألفـاظ العموم إليها.

▣ وكذا قوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا

---

(١) سورة الكهف (١٠٩).

(٢) سورة لقمان (٢٧).

(٣) سورة النحل (٨٩).

أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أكبر إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[١].

▣ وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[٢].

وغيرها من الآيات التي تصف الكتاب المبين بالإحاطة بغيب المقدرات الماضية والكائنة في المستقبل والحاصل في الحال في جميع طبقات السماء والأرض.

▣ وكقوله تعالى في وصف نعيم الجنة: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[٣].

▣ وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾[٤].

▣ وقوله تعالى في وصف فاكهة الجنة: ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾[٥]. وغيرها من الآيات الواصفة لعظمة أفعاله تعالى وأن فيضه عميم دائم لا يبيد ولا ينقطع، فهو دائم الفضل، فإذا كان هذا شأن فعله سواء في جانب الهداية أو العلم أو الحكمة أو النور، فمن ذا الذي يحيط بكتاب الله ليزعم ويتزعم تلك المقولة «حسبنا كتاب الله» متوهما أن في قدرته وإمكانه الإحاطة بكتاب الله، ومن ثم إمكان التمسك بكله وأنى له ذلك !!

فهو الكتاب الذي لا تنفذ كلماته ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض، ولا غائبة ولا كائنة إلا أحصاها.

---

(١) سورة سبأ (٣).

(٢) سورة النمل (٧٥).

(٣) سورة هود (١٠٨).

(٤) سورة الرعد (٣٥).

(٥) سورة الواقعة (٣٢، ٣٣).

تعليق على مقولة الاستغراق في الرسالة دون الرسول ﷺ

ومن الذي يحيط بشريعة الله ورسالته كي يزعم ويوصي بالذوبان في الرسالة والاستغراق فيها دون الاستغراق والذوبان في الرسول والأئمة من أهل البيت عليهم السلام، ظنا منه أنه يحيط بالكتاب والرسالة منفكا عن النبي والأئمة والأوصياء عليهم السلام الذين هم على اتصال بالغيوب يسترفدون من بحور غيب الله مددا متصلا.

ومن ثم ركز القرآن الكريم وأصر على لزوم الرجوع إلى ثلة من هذه الأمـة، مرتبطة بغيب مقامات القرآن الكريم، يتنـزل عليها تأويل الكتاب كل عـام ليـلة القدر وفي كل وقت، وأشار إليهم بالخصوص وشخصهم بالتعيين حيث قال تعالى: ﴿انَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ، فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ، لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾[1].

فأشار إلى أن القرآن الكريم المجيد في الكتاب المكنون واللوح المحفوظ لا يمسه ولا يناله إلا المطهرون، وهم الذين شهد القرآن لهم بالتطهير في قوله تعالى: ﴿إنما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[2].

فهم أهل بيت النبي وقرابته ﷺ.

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ﴾[3].

فخص علم التأويل بالراسخين في العلم.

وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا

---

(١) سورة الواقعة (٧٧، ٧٩).

(٢) سورة الأحزاب (٣٣).

(٣) سورة آل عمران (٧).

إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾(١).

فخص الذين أوتوا العلم بأن القرآن كله آيات بينات في صدورهم، وليس منه آيات متشابهة عندهم، بل كله آيات بينات محكمات، مما يعزز أن «الواو» في آية سورة آل عمران للعطف.

وكيف لا وقد أثبتت سورة الواقعة نيل المطهرين من أهل البيت عليهم السلام للكتاب المكنون، والمطهر غير المتطهر بالوضوء أو الغسل، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّـهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾(٢).

وكما شهد القرآن أيضا لهم في قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾(٣).

وهي آخر آية من سورة الرعد المكية نزولا، ولم يكن قد آمن أحد من النصارى واليهود في مكة قبل الهجرة، حيث ورد أنها نزلت في علي عليه السلام، وكيف لا وهو الذي احتج الله به في آية المباهلة على النصارى واليهود إلى يوم القيامة، وجعله بمنزلة نفس النبي صلى الله عليه وآله، وقد أمر النبي صلى الله عليه وآله ببيان الكتاب كله كما في مجموعة هذه الآيات:

▣ قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٤).

▣ وقال تعالى: ﴿وأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ

---

(١) سورة العنكبوت (٤٩).

(٢) سورة البقرة (٢٢٢).

(٣) سورة الرعد (٤٣).

(٤) سورة النحل (٦٤).

يَتَفَكَّرُونَ﴾(١).

▣ وقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾(٢).

فإن بيان القرآن الكريم كله من المسؤوليات الملقاة على النبيﷺ ومن بعده علي بن أبي طالب عليه السلام الذي هو بمنزلة نفس النبيﷺ بشهادة القرآن الكريم، وأنه لقب بأنه من عنده علم الكتاب، ومن بعده أهل البيت من ذريته عليهم السلام.

▣ وكذا قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾(٣).

فبينت الآيات الكريمة أن بيان القرآن الكريم بجميع فصول معارفه من أدناها إلى أعلاها هي من وظيفة سيد الأنبياءﷺ، أي أنه الذي يحيط علما بالكتاب وبيانه، وأن تبيان القرآن يقوم به ما دام حيا، ومن بعده يقوم به أهل بيته عليهم السلام استمرارا ومواصلة لبيان القرآن الذي لا يحد ولا ينتهي، بل يتنزل تأويله في كل عام وبالتحديد في ليلة القدر، لحاجة البشر بحسب ذلك العام، ومن ثم تتنزل الملائكة والروح في ليلة القدر بتأويل الكتاب، ومن ثم ربط بين تنزل الملائكة والروح ونزول القرآن في سورة القدر(٤)، وفي سورة الدخان(٥).

فالقرآن والكتاب والرسالة والدين بحر لا ينزف، وغيب لا ينقطع، ولا

---

(١) سورة النحل (٤٤).

(٢) سورة القيامة (١٦، ١٩).

(٣) سورة النحل (٨٩).

(٤) قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ سورة القدر (٤).

(٥) قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ سورة الدخان (٣).

يستطيع العقل بكل ما فيه إلا من له موطأ قدم في علوم الغيب، ويطلع على الغيوب باطلاع من رب العالمين.

فمن ادعى التمسك بالكتاب من دون أن يستمسك بأصحاب القرآن، ومن ادعى الاستغراق في الرسالة والدين من دون أن يستمسك بالذين يبلغون رسالات الله، فقد زيف بأراجيف قد بان عوارها[1].

على أن تلك المقولة تستلزم الإمامة النوعية إذ لا يتقيد بالأشخاص، وبالتالي قالب الإمامة نوعي غير منحصر ومختص ولا متقيد بأشخاص، وكذلك الحال في الرسالة فيؤدي إلى النبوة النوعية، بينما شدد القرآن الكريم على ضرورة الإيمان بالشخوص والأسماء الخاصة للأنبياء، ولم يكتف بالإيمان بالنبوة العامة من دون الإيمان بالنبوات الخاصة، وكذلك الحال في الاعتقاد بإمامة شخوص قربى

---

(١) الكافي. الشيخ الكليني ج٨ ص ٣١١:

عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد بنخالد، عن أبيه، عن محمد بن سنان، عن زيد الشحام قال: دخل قتادة بن دعامة عني بن أبي جعفر عليه السلام فقال: يا قتادة أنت فقيه أهل البصرة؟ قال: هكذا يزعمون فقال أبو جعفر عليه السلام بنغني أنك تفسير القرآن؟ فقال له قتادة: نعم، فقال له أبو جعفر عليه السلام بعنم تفسره أم بجهل؟ قال: لا، بعنم. فقال له أبو جعفر عليه السلام: فإن كنت تفسيره بعنم فأنت أنت وأنا اسألك؟ قال قتادة: سل، قال: أخبرني عن قول الله عز وجل في سبأ: «وقدرناه فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين» فقال قتادة: ذلك من خرج بين بيته بزاد حلال وراحنة وكراء حلال يريد هذا البيت كان آمناً حتى يرجع الى أهنه، فقال أبو جعفر عليه السلام نشدتك الله يا قتادة هل تعنم أنه قد يخرج الرجل من بيته بزاد حلال وراحنة وكراء حلال يريد هذا البيت فيقطع عنيه الطريق فتذهب نفته ويضرب مع ذلك ضربة فيها اجتياحه؟ قال قتادة: اللهم نعم، فقال أبو جعفر عليه السلام: ويحك يا قتادة إن كنت إنما فسرت القرآن من تنقاء نفسك فقد هنكت وأهنكت، وأن كنت قد أخذته من الرجال فقد هنكت وأهنكت، ويحك يا قتادة ذلك من خرج من بيته بزاد وراحنة وكراء حلال يروم هذا البيت عارفاً بحقنا، يهوانا قنبه كما قال الله عز وجل ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ فنحن والله دعوة إبراهيم عليه السلام التي من هوانا قنبه قبنتحجته وإلا فلا، يا قتادة فإذا كان كذلك كان آمناً من عذاب جهنم يوم القيامة، قال قتادة: لا جرم والله لا فسرتها إلا هكذا، فقال أبو جعفر عليه السلام: ويحك يا قتادة إنما يعرف القرآن من خوطب به).

النبيﷺ وعددهم وعدتهم الإثني عشر، وأنه الدين القيم.

كما أن خطورة هذه المقولة هي في هدم هذا الشرط الذي هو شرط ركني في صحة وقبول الإيمان، أي هدم التوسل والالتجاء والتوجه بهم، ومن ثم فإن هذه المقولة تتظافر مع مقولة السلفية في الصد عن النبي وأهل بيتهﷺ، وهذه هي غاية الجاحدين والمنكرين للشريعة ولولاية أهل البيتﷺ(١).

---

(١) ويُضاف الى كلام الشيخ الأستاذ جواب آخر وهو بمثابه النقض على الإشكال السابق، فإن القرآن الكريم النازل من الله تبارك وتعالى والمؤلف بين الدفتين على يد رسول اللهﷺ يمكن أن يحلل الى أمرين:

الأمر الأول: أنه رسالة معنوي شاملة للعقيدة والسلوك والمعاملة.

الأمر الثاني: أنه كتاب تدويني يضم حروب وكلمات وجمل القرآن الكريم، ولا يخفى على أحد أن للجهة الأولى من القرآن أحكام عديدة من جملتها وجوب الاعتقاد بما فيه ومطابقة السلوك الإنساني لأوامره ونواهيه، وكذلك للجهة الثانية منه أحكام وقوانين شرعية من جملتها حرمة مس حروفه لغير المتطهر، وحرمة تنجيسه، وحرمة تمكين الكافر منه، الى غيرها من الأحكام الفقهية.

فهل يقال أنه مادام الأصل هو الرسالة بعقائدها ومضامينها المعنوية والسلوكية فلا نحتاج الى قتديس ظاهر القرآن الذي يحمل تلك العقائد والمضامين، وهل يقال علينا أن نستغرق في المحافظة على الرسالة، ولا نستغرق في المحافظة على القرآن الكتبي.

لو قيل كذلك لكان القائل في منتهى الجهل بحرمات الشريعة السماوية، فإن التحفظ على طهارة ظاهر القرآن وتقديس الكتاب الكريم هو المعبر الأساس لتقديس الرسالة والباطن القرآني، ما أن قلة الاكتراث والعناية بظاهر القرآن تسري الى هجران المبادىء وقلة الاكتراث بتطبيقها واملاءآتها. وعلى قياس هذا المثال يقال في العلاقة بين الرسالة والرسول مع الالتفات الى أن المثال الذي طرحناه يشتمل على نقطة ضعف وهي أن القياس بين الرسول والرسالة ليس على مستوى القياس بين ظاهر القرآن وباطنه، لأن الرسول والإمام ليس هو ظاهر الرسالة، وإنما هما الرسالة الناطقة والباطن المتجسد، فكم فرق بين الوجود الكتبي وبين الوجود التجسيمي الواقعي للرسالة، فالقرآن الكريم من قبيل الأول والرسول والإمام من قبيل الثاني. على أنه يمكن القول إن القرآن له أنحاء ثلاثة من الوجود مترتبة ومتصاعدة من حيث الحرمة والقداسة:

الحول الأول: هو الكتاب اللفظي، النحو الثاني: هو الرسالة الذنية والعقائدية المعنوية، النحو الثالث: هو القرآن الناطق والوجود الواقعي وهو الرسول والإمام.

التوفيق بين قربه تعالى منا وبعدنا عنه

إن الباري تعالى قربه إلينا عين بعدنا عنه؛ لأنه قريب إلينا قرب قدرة واستعلاء وقاهرية، ونحن بعيدون عنه قدرة وسلطانا وقاهرية ونورا، حتى أولئك الذين يجحدون التوسل ويحاربون الواسطة بين الله وخلقه، هم يقولون بالتوسل بالأعمال وسائر القربات، ومن ثم يطرح عليهم السؤال التالي:

أليس هناك مسافة من جهة العابد بينه وبين المعبود، لا من جهة المعبود للعابد؟ فمن ثم لا بد لك أن تسير على صراط الاقتراب، بأن تهتدي إلى الصراط والطريقة والوسيلة، ومن ثم أكدت أعظم سورة في القرآن على لزوم الاهتداء إلى الصراط المستقيم، صراط الهداة المنعم عليهم، المعصومون من غضب الله، والمعصومون من الضلال، فهم وصراطهم الوسيلة والوصلة للهداية إلى الساحة الربوبية.

فكيف يصد عنهم وقد أمر الله بإتباع صراطهم والتمسك بحبلهم، فكون الله قريب من جميع عباده لا يعني أن الكل مقرب، وليس الكل بدرجة إبراهيم الخليل عليه السلام، بل الأنبياء ليسوا على درجة واحدة، إذ بعضهم أفضل من بعض، فالفاضل يتوسل بالأفضل، كما أن النبي إبراهيم يتوسل ويتبع ويستمسك بسيد الأنبياء صلى الله عليه وآله، كما مر في آية سورة آل عمران[1] من أن جميع الأنبياء والمرسلين من آدم ونوح وإبراهيم وسائر الأنبياء والمرسلين عليهم السلام نالوا وحصلوا على النبوة بإقرارهم بولاية سيد الأنبياء وبالتوسل به صلى الله عليه وآله.

احتياج عموم الخلق لوساطة سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله

ومن ثم يتساءل:

لماذا الواسطة بين الله وأنبيائه فضلا عما بين الله وخلقه؟ بل بين آدم ونوح

---

(١) وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ سورة آل عمران (٨١).

وإبراهيم وموسى وعيسى وبين الله فضلا عن بقية الأنبياءعليهم السلام، مع أن الله قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، فهو تعالى أقرب شيء إلى المخلوقات، ولا تتفاوت المخلوقات إليه في قربه منها، ومع قربه تعالى لم تحتج الأنبياءعليهم السلام كأولي العزم للواسطة، والحال أنهم أنبياء الله تعالى وفي أعلى مستويات المقربين، فلم يحتاجون إلى الإيمان بنبوة سيد الأنبياءصلى الله عليه وآله والتذلل له بأن يقروا على أنفسهم أنهم تابعون ناصرون له مقرون بولايته، إذ إن الناصر تابع والمنصور متبوع، والتابع مأموم والمتبوع إمام وهو سيد الأنبياءصلى الله عليه وآله، فهو الواسطة بين الله عز وجل وبين أولي العزم من أنبيائه الذين هم عظماء الأنبياءعليهم السلام؟

الجواب:

إن الحجاب بين المخلوق والخالق من جهة المخلوق مع الخالق لا من جهة الخالق مع المخلوق لا يعني نقص قدرة وقصور في الخالق، وإنما يعني عظم الخالق وقصور المخلوق، فالحجاب والحجب الربوبية هي من جهة المخلوقين اتجاه الخالق لا من جهة الخالق اتجاه المخلوقين، ألا ترى أن الرئيس والملك ذا المهابة، والسلطان ذا الحجاب والحجب، أن حاجبه هو من جهة الرعية من دون أن يكون حجابا من جهة الملك عن أن يطلع على الرعية.

ومن ثم يقال في اللغة السيد المحجب أي المعظم، فالحجاب في الأصل هو تعظيم لصاحب الحجاب من طرف المحجوب عنه من دون أن يكون ذلك قصورا في المحجوب ونقصا، فالحجاب يحجب من طرف دون الطرف الآخر.

فكلما تكامل المخلوق كلما عرف من كمال خالقه أكثر فأكثر، فإن الكمال الذي في المخلوق هو من فعل الخالق وهو آية لصفات الخالق، وكلما نقص كمال المخلوق كلما قلت معرفته بالخالق لقلة ما يعكسه كمال ذاته من كمال الصفات الإلهية، وعلى ضوء ذلك تفاضل الأنبياء في الفضل والكمال كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ

الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾(٢).

فتفاوت درجاتهم وقربهم وبعدهم من الله تعالى، إذ قد مر أن القرب والبعد قرب معرفة وعلم وقدرة وكمال لا قرب جغرافي وبعد جسماني، فأقربهم إلى الله تعالى أكثرهم كمالا وأكثرهم معرفة، فأقرب الخلق حجاب من جهة الخلق اتجاه الرب، وهو حجاب ربوبي من جهة الخلق أيضا اتجاه الخالق.

نفي الواسطة رؤية إبليسية

فقرب الله من خلقه قرب سيطرة وقدرة وعلو وسلطان، وكل شيء قائم به من السماوات والأرضيين، وكل شيء في الكون والمكان كذلك قائم بالله، فكيف يكون المكان محيطا بالله تعالى ونحن بعيدون عن الله قدرة وسلطانا وقاهرية ونورا.

فتعظيم الباري تعالى هو بأن تتوسل بواسطة قريبة، وتوسلك بتلك الواسطة إقرار على نفسك بأنك بعيد في الصفات الحقيرة عن صفات الباري العظيمة، فالتوسل واتخاذ الواسطة والوصلة عين التعظيم لرب العزة تعالى، ورفض الواسطة كما فعل إبليس هو عين التكبر على الله تعالى، واستنقاص عظمة الباري، كقول إبليس عندما خوطب من قبل الله بأن يتوجه بآدم عليه السلام في سجوده، حيث قال الباري تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾(٣).

---

(١) سورة البقرة (٢٥٣).

(٢) سورة الإسراء (٥٥).

(٣) سورة الأعراف (١٢).

وقال تعالى: ﴿قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾[١].

فإن إبليس رأى التعاظم من ذات نفسه، ورأى أن لا حجاب بينه وبين الحضرة الربوبية، وهذه الرؤية الإبليسية في الحقيقة استنقاص لمقام الذات الإلهية؛ لأنه يرى أن بكمال ذاته المحدودة يتعرف على كل صفات الرب مع أن كمال إبليس في الخلقة ناقص ومنحدر.

فمن ثم كان التكبر من جذور الكفر، والعبودية والتواضع من جذور التوحيد، إذ في العبودية سر وهو الاعتراف بالنقص والفقر الذي هو بدوره اعتراف بتعاظم عظمة الباري.

فتبين أن التوسل من صميم جوهر التوحيد، وجحود التوسل من صميم جوهر الكفر، ومن ثم مر في آية سورة النساء[٢] تقديم الباري مجي مذنبي الأمة إلى الرسول ﷺ على استغفارهم وندامتهم، إذ بالمجي إلى النبي ﷺ إقرار منهم بالبعد من ساحة الباري، بخلاف مقولة إبليس ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[٣]، بل يقرون على أنفسهم بالنقص والاحتجاب، وهو تعظيم للباري تعالى.

النبي وأهل بيته ﷺ الأبواب والحجب والسدنة

فالإيمان بوجود الحجب الإلهية من جهة المخلوق اتجاه الخالق هو من الاعتقاد بعظمة الباري وعلوه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا

---

(١) سورة الإسراء (٦١).

(٢) قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ سورة النساء (٦٤).

(٣) قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ سورة الأعراف (١٢).

وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾[١].

ألا ترى أن الآية تثبت بين المخلوقين من جهتهم والخالق أبوابا هي حجب مسدودة مفتاحها التصديق بحجج الله المصطفين، والخضوع والتواضع لهم، لا كما فعل إبليس من التكذيب والجحود بمقام خلافة آدم ﷺ، واستكباره عن السجود والخضوع لولاية آدم، ولا كما فعل المنافقون كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[٢].

بل بالتصديق بحجج الله الذين اجتباهم واصطفاهم وطهرهم، بالانقياد لولايتهم والتوجه والتوسل بهم، ليكون ذلك مفتاحا وفتحا لأبواب السماوات، فالآية لا تثبت بابا واحدا بل أبوابا، وهذه الأبواب حجب لسماوات الحضرة الإلهية؛ لأن الباب بمعنى الحجاب، فإذا قصد وفتح صار وسيلة ووصلة إلى الهدف، وإذا صد واعرض عنه صار حجابا وسدا.

فوجود الأبواب بين المخلوق من جهته إلى الخالق عقيدة قرآنية أصيلة ومعتقد إسلامي أصيل، والتنكر له جحود لعقيدة ركن في نظام السنة الإلهية.

ومع الإقرار بأن لسموات الحضرة الإلهية والسدانة الربوبية أبوابا، لا بد من طلب المفتاح لتلك الأبواب، والوسيلة لفتحه والتوجه إلى تلك الأبواب، وليس لك أن تتجهم أن تواجه ربك بأن تخاطب الرب تعالى من دون أن تتوسل إليه بتلك المفاتيح.

وإذا كان عيسى بن مريم وأمه آية كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ

---

(١) سورة الأعراف (٤٠).

(٢) سورة الأعراف (٤٠).

آية﴾(١).

فكيف بسيد الأنبياء وأهل بيته ﷺ !

وقد احتج الله بالنبي وأهل بيته الخمسة من أصحاب الكساء ﷺ حججه على العالمين إلى قيام يوم الدين في آية المباهلة، كما اصطفاهم في آية التطهير.

وقد جعلت الآية في سورة الأعراف المتقدمة مفتاح أبواب السموات التصديق بآيات عديدة وليست بآية واحدة، فالإيمان بحجج الله والتصديق بهم والتوجه بهم إلى الله مفتاح أبواب السماء، ألا ترى إلى قوله تعالى في القبلة التي يتوجه إليها في الصلاة إلى الله «وهي الكعبة» وقد كان المسلمون يتوجهون إلى بيت المقدس، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾(٢).

أي ما جعلنا وفرضنا استقبال القبلة إلا لنعلم من ينقاد إلى رسول الله ﷺ، فجعل القبلة غايته الانقياد إلى النبي ﷺ، في مقابل من ينقلب على عقيبيه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفإِن مَّاتَ أَو قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ﴾(٣).

فباب استقبال القبلة والتوجه إليها هو التوجه بالنبي ﷺ إلى الله تعالى.

وقد كان الامتحان صعبا على قريش إذ كانت قبلتهم التي ورثوها من ملة إبراهيم وإسماعيل هي الكعبة، فتبدلت إلى بيت المقدس في أوائل الإسلام، واختيار هذا الامتحان الصعب لقريش غايته هو معرفة انقيادهم وتبعيتهم لخاتم الأنبياء ﷺ.

---

(١) سورة المؤمنون (٥٠).

(٢) سورة البقرة (١٤٣).

(٣) سورة آل عمران (١١٤).

وقد أشار الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام في دعائه في يوم عرفة إلى ذلك حيث يقول: «ولا تردني صفرا مما ينقلب به المتعبدون لك من عبادك، وإني وإن لم أقدم ما قدموه من الصالحات فقد قدمت توحيدك، ونفي الأضداد والأنداد والأشباه عنك، وأتيتك من الأبواب التي أمرت أن تؤتى منها، وتقربت إليك بما لا يقرب به أحد منك إلا بالتقرب به، ثم اتبعت ذلك بالإنابة إليك، والتذلل والاستكانة لك»(١).

وقد كان قد قدم في أول دعائه الحمد والثناء على الله بالتوحيد والنعت بالصفات الإلهية، ثم أردف ذلك بالإطالة في الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام ووصفهم بالوسيلة.

فهو يشير بذلك إتيان الله من الأبواب التي أمر بها والتي لا يمكن التقرب إلا منها، كما يشير صلى الله عليه وآله أن بالتوسل والتوجه بهم تتحقق الخطوة الأولى المقدمة على شرائط التوبة، والتي يستأهل المذنب بذلك أن يشرع في الاستغفار والندم والتوبة، وهو مطابق للآية المتقدمة وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾(٢).

فما في دعائه صلى الله عليه وآله يشير ويفسر الترتيب في الآية، بأن المجي إلى النبي واللواذ به والالتجاء إليه والاستعاذة به جعل بابا للوفود والأوبة إلى الحضرة الإلهية، ومن ثم بدأ به في الآية لأنه باب للاستغفار.

الشفاعة فعل تكويني

إن طلب الشفاعة في الحقيقة يرجع إلى نمط من الاستغاثة؛ لأن تشفع الشافع

---

(١) السيد ابن طاووس الحسيني، إقبال الأعمال ج٢ ص٩٤.

(٢) سورة النساء (٦٤).

غوث وإغاثة للمشفوع له، وهذا لا يتنافى مع كون مصدر الإنعام والفضل والشفاعة كلها بيد الله تعالى، وأن كل حول وقوة منه تعالى، لكن جرت سنته تعالى على إجراء الفضل بيد كرام خلقه عليه والمقربين لديه.

وفي الحقيقة فإن الشفاعة من الشافع إذا كانت تكوينية تكون في الحقيقة إيجاد من الشافع للشي المراد بإذن الله تعالى، والشافع يكون مجرى لفيض الله تعالى، كما هو الحال في حقيقة المعجزة التي يجريها الله على يد صاحب المعجزة.

فكما تعددت الرؤى والنظريات في حقيقة المعجزة، هل هي مجرد سؤال من صاحب المعجزة ودعاء منه بإنشاء الكلام؟ أم أنه مقام تمكين يوهب له من الله تعالى، ويستفيض مدده من الباري تعالى؟

بل وقع هذا التحليل في تفسير مقام مستجاب الدعوة وكرامات الأولياء، هل هي بإنشاء لفظي وطلب اعتباري؟ أم أنه مقام تمكين وإقدار إلهي يوهب منه تعالى لذلك الولي؟

وهناك قول ثالث يزاوج بين القولين السابقين، فإنه يتقدم الدعاء اللفظي والتوجه القلبي إلى الحضرة الربوبية، ومن ثم يفاض منه تعالى القدرة على نفس الولي تكوينا، فينال مقام التمكين والاقتدار على الفعل.

بل إن تضرع الداعي والتجاءه إلى الحضرة الإلهية هو السبب في استدرار الفيض والرحمة الإلهية، أي سبب قابلي واستعدادي للجود الرباني، فإن الجود والفضل الإلهي دائم وحتميٌ إذا تمت قابلية القابل، إذ لا بخل في الحضرة الإلهية ولا عجز.

ومن ذلك يرتفع توهم أن تشفع الشافع عبارة عن مجرد مسألة وطلب لفظي منه يتوجه بها إلى الحضرة الإلهية، فإن روح وحقيقة الدعاء هو الطلب من الحضرة الإلهية وليست مجرد تمتمة لفظية، وإنما قوامه التوجه القلبي والضراعة الروحية من

الداعي حينما يولي وجه قلبه شطر وجه الرب تعالى، وهو وصول إلى حد من حدود العبودية التي تستمطر الفيض التكويني الربوبي.

فالقول الثالث قول متين يجمع ويزاوج بين خصائص القولين الأولين، فيجمع بين حال العبودية والضراعة الفطرية للمخلوق وحال الإفاضة الإقدارية الربانية، وأن حقيقة الشفاعة والمعجزة ومقام استجاب الدعوة مقامات تكوينية وهبية منه تعالى.

طلب الشفاعة تعلق بالاسم الإلهي التكويني

إن الشفاعة هي الوساطة وطلب الشفيع من المشفوع إليه أو المشفوع عنده لقضاء حاجة المشفوع له، فالاستشفاع هو بعينه توسل، فصاحب الشفاعة هو الوسيلة والمتوسل إليه هو الباري تعالى، وهو بعينه استغاثة إلى الله تعالى بالوسيلة وبالوجيه عند الله.

وقد أشار السيد العلامة الطباطبائي في الميزان إلى أن الشفاعة ترجع حقيقتها إلى الشفع في الأسماء، أي الاقتران، وبالتالي يكون الأثر لمجموع الاسمين، أي أن الذي يتوجه بالشفيع إلى الله يتوجه باسم إلهي ليقترن مع اسم آخر ليكون نجحا لحاجته بالأسماء الإلهية إلى الله، أي توجه إلى الله بأسمائه الحسنى[1].

وقد مر أن المخلوقات العظيمة التي لها القربى والزلفى والوجاهة عند الله هي الأسماء الإلهية التي يتوجه بها إلى الله تعالى ويدعى بها.

ومن ثم الاستشفاع بسيد الأنبياءﷺ، والذي قد وصفه الباري تعالى بأنه رحمة للعالمين وأنه بالمؤمنين رءوف رحيم، استشفاع بالرحمة الإلهية وباسمه

---

(١) العلامة الطباطبائي. الميزان في تفسير القرآن ج١ ص١٥٧.

الرؤوف الرحيم.

استعراض بعض روايات المقام

وفي ما يلي نستعرض بعض روايات الشفاعة من كتب الفريقين:

▣ عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسا لم يعطها أحد قبلي: جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، ونصرت بالرعب، وأحل لي المغنم، وأعطيت جوامع الكلم، وأعطيت الشفاعة»(١).

تدل الرواية على أن الشفاعة تكوينية؛ لأنها عطفت على مقام جوامع الكلم، ولأن جوامع الكلم عبارة عن الكلمات التكوينية، وجوامعها عبارة عن التوفر على كمالات وقدرات الكلمات التامات وقدرات الآيات العظمى.

▣ ورد في الاحتجاج عنه ﷺ: «السلام عليك أيها العلم المنصوب، والعلم المصبوب، والغوث والرحمة الواسعة»(٢).

فصفة الحجة المنتظر بأنه الغوث، وهي دالة على أنه من شؤونه ونعوته ومقاماته أنه يستغاث به ويلتجأ إليه في طلب الحاجة.

▣ حدثنا علي بن عياش قال حدثنا شعيب بن أبى حمزة عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمدا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته، حلَّت له شفاعتي يوم القيامة»(٣).

▣ حدثنا العباس العنبري، أخبرنا عبد الرزاق عن معمر عن ثابت عن أنس

---

(١) وسائل الشيعة (آل البيت). الحر العاملي ج٣ ص٣٥٠ ح٤.

(٢) الاحتجاج. الشيخ الطبرسي ج٢ ص٣١٦.

(٣) صحيح البخاري. البخاري ج١ ص١٥٢.

قال: قال رسول الله ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي».

وفي الباب عن جابر هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه[1].

(١) سنن الترمذي. الترمذي ج٤ ص٤٥.

الوجه الثامن: بحث الكلمات

ويتحصل من آيات الكلمات أن الكلمات التي يتوسل بها إلى الله تعالى ويتوجه بها إليه لنيل كل نائلة وللاحتظاء بالزلفى والقربى هي النبي وأهل بيته عليهم السلام.

آيات قرآنية في الكلمات الإلهية

▣ قال الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(١).

▣ وقال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾(٢).

▣ وقال تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(٣).

▣ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾(٤).

▣ وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ

---

(١) سورة البقرة (٣٧).

(٢) سورة البقرة (١٢٤).

(٣) سورة البقرة (٣٧).

(٤) سورة الأنعام (٣٤).

الْعَلِيمُ﴾(١).

▣ وقال تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخرة لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(٢).

▣ وقال تعالى: ﴿وَيُحِقُّ اللّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾(٣).

▣ وقال تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾(٤).

▣ وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾(٥).

▣ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ إنما فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٦).

▣ وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إنما الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إنما اللّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً﴾(٧).

ومن مجموع هذه الآيات يظهر أن الكلمة أطلقت على من هو حجة مصطفى لديه تعالى، ومن ثم عبر في آيات أخرى بتصديق تلك الكلمات، أي الإيمان بمن

---

(١) سورة الأنعام (١١٥).

(٢) سورة يونس (٦٤).

(٣) سورة يونس (٨٢).

(٤) سورة الكهف (٢٧).

(٥) سورة الكهف (١٠٩).

(٦) سورة لقمان (٢٧).

(٧) سورة النساء (١٧١).

هو حجة إلهية، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾[١].

فقوبل في الآية بين الكتب والكلمات وأسند التصديق إلى الكلمات، مما يدل على الإيمان بالحجج الإلهية المصطفين.

فتبين أن الكلمة الإلهية تطلق في الاستعمال القرآني على الحجج الإلهية، وهذا هو الأصل في معناها الحقيقي، إذ الكلمة هي الشي الدال على المعنى أو الشي المضمر أو الغائب، وحينما تكون دلالة الشي الدال دلالة تكوينية لا بتوسط الاعتبار الأدبي تكون الدلالة حقيقية، وإطلاق الكلمة على الدال حقيقة واقعة، بخلاف إطلاق الكلمة على الدال بالاعتبار الأدبي، فإنه إطلاق مجازي عقلائي.

تحقيق في معنى الكلمة في القرآن

ولا يخفى أن هناك تقارب بين معنى الكلمة والاسم والآية، فإن كلًّا من الثلاث فيه معنى العلامية والدلالة، فمن ثم يتطابق الاستعمال في هذه الطائفة من الآيات مع الطوائف السابقة في الأسماء والآيات.

ويتبين حينئذ أن معنى حصول توبة الله تعالى على آدم عليه السلام بتوسط الكلمات، دال على أن الكلمات وسيلة آدم عليه السلام في التوجه إلى الله تعالى وأوبته ورجوعه، وأنه بتوسط تلك الكلمات عندما توجه آدم بها قبلت توبته منه تعالى.

والتدبر في هذه الكلمات التي تلقاها آدم عليه السلام يعطي تطابقها مع الأسماء التي علمها الله إياه، من كون تلك الكلمات والأسماء حقيقة واحدة غيبية هي غيب السموات والأرض من عالم ملكوت السماوات والأرض، حيث إن الاسم كما مرَّ

---

(١) سورة التحريم (١٢).

يطابق معنى الكلمة الإلهية، فإن كلاً منهما علامة وآية على الصفات والذات الإلهية.

حيث إنه قد وصفت تلك الأسماء وأشير إليها بضمير العاقل والشاعر كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ﴾[٣].

مما يدل على أن هذه الحقائق هي أنوار ذوات الحجج الإلهية المصطفين من النبي ﷺ وأهل بيته ﷺ، وهم الذين شرف آدم ﷺ بتعليمه إياهم، وهذه الأنوار الإلهية وصفها تعالى بقوله: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[٤].

وهذه الذوات النورية كما هي أسماء إلهية فإن لها بدورها أسماء تظهر بها، فمن ثم تغاير التعبير في آيات قصة آدم ﷺ، حيث ورد التعبير الأول عنها أنها أسماء، ثم بعد عرضهم على الملائكة عبر عنها بقوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء﴾[٥].

حيث أضيف إلى ذوات هذه الأسماء أن لها أسماء.

ولا يخفى أن هذه الذوات الشريفة كما أطلق عليها أنها أسماء إلهية، ولها أسماء أطلق عليها أنها كلمات إلهية.

والظاهر أن التغاير حيثي بين الأسماء والكلمات، فإن تلك الذوات النورية الشريفة المخلوقة آيات إلهية، فمن حيث حكايتها عن الصفات والذات الإلهية

---

(١) سورة البقرة (٣١).

(٢) سورة البقرة (٣١).

(٣) سورة البقرة (٣٣).

(٤) سورة البقرة (٣٣).

(٥) سورة البقرة (٣١).

حكاية الاسم عن المسمى هي أسماء، وبالنظر إلى ذواتها بما هي هي، أي إذا أمعن النظر إلى ذاتها أولاً ثم أنتقل منها إلى دلالتها على الصفات والذات الإلهية يطلق عليها حينئذ الكلمات.

أو لعلَّ هذه الذوات الشريفة ذات مراتب، ففي أوائل مراتب صدورها عن الباري ـ وهي أعالي ومعالي مراتبها ـ يطلق عليها أسماء إلهية، نظرا لجامعيتها للكمالات، وبالتالي شفافيتها في حكاية العظمة الإلهية، بخلاف مراتبها اللاحقة فإنها وإن كانت على جانبٍ من تمامية الكمال الخلقي؛ إلا أنها دون المراتب الأولى، وبالتالي فهي دونها في الحكاية والإراءة للشؤون الإلهية والربوبية، فمن ثم كانت تلك المراتب كلمات.

ومن ذلك يتنبه إلى أن الكلمات التي ابتُلي وامتُحن بها إبراهيم عليه السلام لكي ينال مقام الإمامة؛ هي عبارة عن امتحانه بجملة من الآيات الخلقية، وهي من الحجج التي اصطفاها الله تعالى فوق مرتبة النبي إبراهيم عليه السلام .

وقد أشار قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾[1]. حيث بينت الآية أن النبي إبراهيم عليه السلام وغيره من المرسلين؛لم يعطوا مقام النبوة والرسالة والكتاب والحكمة إلا بعد أخذ العهد منهم والالتزام بأن يؤمنوا بخاتم الأنبياء، ويلتزموا ويتعهدوا بنصرته ومتابعته والانقياد إليه وطاعته.

فلا ريب أن أول الكلمات التي ابتلي بها إبراهيم عليه السلام وامتحن كي ينال مقام الإمامة هي امتحانه بقبول الإذعان والانقياد لولاية خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله.

---

(١) سورة آل عمران (٨١).

ولا ريب أن بقية تلك الكلمات التي امتحن بها إبراهيم عليه السلام ليتأهل للإمامة هي أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، وذلك لإشراك الله تعالى إياهم لخاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله في مواطن عديدة، منها مقام العصمة والتطهير في آية التطهير كما في قوله تعالى: ﴿إنما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(١).

ومنها مقام الحجية كما في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وأنفُسَنَا وأنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾(٢).

فأشركت الآية أهل البيت عليهم السلام بالنبي صلى الله عليه وآله في مقام الحجية على العالمين، كما أنها نزلت نفس علي أمير المؤمنين عليه السلام منـزلة نفس النبي صلى الله عليه وآله، كما أنه في آية الفي والخمس والشهادة على أعمال العباد قرن أهل البيت عليهم السلام بالنبي في تلك المقامات.

وكذلك في مقام العلم بالكتاب وغيرها من المقامات التي أشاد بها القرآن الكريم في النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام.

كل ذلك مما يبرهن أن الكلمات التي ابتلي بها إبراهيم عليه السلام وامتحن هي انقياده لولاية خاتم الأنبياء وأهل بيته عليهم السلام، فبطاعته لهم استأهل مقام الإمامة.

ويتحصل من آيات الكلمات أن الكلمات التي يتوسل بها إلى الله تعالى، ويتوجه بها إليه لنيل كل نائلة، وللاحتظاء بالزلفى والقربى؛ هي النبي وأهل بيته عليهم السلام.

وقد ورد في روايات الفريقين أن الله تعالى قبل توبة آدم عليه السلام عندما توجه بسيد الأنبياء صلى الله عليه وآله، فقد نُقل أن آدم عليه السلام لما اقترف الخطيئة قال: «يا ربي، أسألك بحق محمد صلى الله عليه وآله لما غفرت لي» فقال: «يا آدم، كيف عرفت؟» قال: «لأنك لما خلقتني نظرت إلى العرش فوجدت مكتوبا فيه: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» فرأيت اسمه مقرونا مع اسمك،

---

(١) سورة الأحزاب (٣٣).

(٢) سورة آل عمران (٦١).

فعرفته أحب الخلق إليك»[١].

هذا ما ذكره الحاكم في مستدركه، وفي رسائل المرتضى:

«إن آدم رأى مكتوبا على العرش أسماء معظمة مكرمة، فسأل عنها، فقيل له هذه أسماء أجلّ الخلق منزلة عند الله تعالى، وأمكنهم مكانة، ذلك بأعظم الثناء والتفخيم والتعظيم، أسماء محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم، فحينئذ سأل آدم عليه السلام ربه تعالى وجعلهم الوسيلة في قبول توبته ورفع منزلته»[٢].

---

(١) صححه في المستدرك للحاكم ج٢ ص٦١٥.

(٢) رسائل المرتضى. الشريف المرتضى ج٣ ص١١٦.

الوجه التاسع

فمركز رحى الدين مودة آل إبراهيم وآل إسماعيل وهم آل محمدﷺ، وصار التوجه إلى بيت الله الحرام، والتوجه إلى إقامة شعائر الدين هو توجه إليهم، فهذه هي غاية الحج وغاية الشعائر وتشييد الدين، وهي التوجه إليهم وبهم إلى الله تعالى.

دلالة القصد إلى الحج وأداء المناسك على ضرورة التوسل بحضرتهم

غاية الحج وكماله أن ينفر الناس إلى أهل البيتﷺ، ويقصدوهم ويتوجهوا إليهم وبهم إلى الله تعالى.

وقد أشير إلى ذلك في آيات الحج المبينة لفلسفته ولأعماله وأركانه، وجعل في جملة المشاعر والأعمال بصمات وعلامات وآيات ترشد الحاج والمعتمر والناسك إلى التوسل والتوجه بالنبي وأهل بيتهﷺ إلى الله تعالى.

وأما الآيات، فمنها قوله تعالى على لسان النبي إبراهيمﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ، رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فإنه مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فإنك غَفُورٌ رَّحِيمٌ، رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي

﴿إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[١].

وللتدبر في معنى الآية لا بد من التركيز على جملة من النقاط:

الأولى: ما هي الغاية من إسكان النبي إبراهيم عليه السلام أهله في الوادي الذي هو حرم مكة عند بيت الله، أي المسجد الحرام؟ وقد كان إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر اتخذا المسجد الحرام بيتا لهما، وقد سمي حجر إسماعيل بذلك؛ لأنه كان من المرافق التي يستخدمها إسماعيل في شؤون حياته، وتجيب الآية عن الغاية على لسان النبي إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[٣].

فجعل الغاية من إسكان أهله في حرم البيت هو إحياء بيت الله الرحمن بإقامة الصلاة وسائر العبادات ومعالم الشريعة، فيحيوا شعائر التوحيد ومعالمه.

الثانية: إن الذي قام به إبراهيم من إسكان هاجر وإسماعيل الطفل الصغير ـ من دون وجود قرية أو قبيلة أو مأوى أو حمى أو كفيل أو ضامن في وادي غير ذي زرع، وقد كان موضعا قاحلا وواديا قفرا لا ماء ولا كلأ ـ امتحان صعب وفداء وتضحية عظيمة، إلا أن المهم أن يُشيد التوحيد والدين في تلك البقعة المقدسة كمركز انطلاق، وقد جعل على عاتق ذرية إبراهيم عليه السلام.

الثالثة: ثم عطف كغاية مرتبة على تلك الغاية: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾.

---

(١) سورة إبراهيم (٣٥، ٣٧).

(٢) سورة إبراهيم (٣٧).

(٣) سورة البقرة (١٢٥).

فسواء جعلت الفاء للترتب وترتيب الغاية تلو الغاية، أو لترتيب السبب على المسبب(١)، أي أن السبيل لتشييد الدين هو أن تهوي الأفئدة إلى تلك الذرية، إذ الضمير في «تهوي» يعود إلى الذرية التي اسكنها إبراهيم عليه السلام ذلك الوادي، أي إسماعيل ومن يتوالد منه.

وهذه الذرية قد دعا في حقها إبراهيم وإسماعيل دعوات أخرى كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾(٢).

فدعا بأن تكون الإمامة الإلهية في نسله من إسماعيل عليه السلام إلى يوم القيامة، ثم قال تعالى بعد تلك الآية مباشرة: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾(٣).

فوحدة سياق الآيات يقضي بأن الذرية التي دعا إبراهيم بأن تكون الإمامة فيها هي التي اسكنها عند البيت المحرم، وهي في البلد الذي دعا أن يكون آمنا،

---

(١) يعني سواء قلنا أن هوى الناس وتحببهم للذرية غاية مترتبة ولاحقة لإقامة الصلاة والحج والشعائر الدينية. أو قلنا أن هوى الناس إليهم سبباً لإقامة الشعائر والطقوس الدينية.

(٢) سورة البقرة (١٢٤).

(٣) سورة البقرة (١٢٥، ١٢٩).

وهي الذرية التي دعا إبراهيم وإسماعيل أن تكون فيها أمة مسلمة، أي على درجة من التسليم في الإسلام على حذو وصف إبراهيم وإسماعيل بالمسلمين.

فهي الذرية من نسل إسماعيل التي بقيت الإمامة في عقبه باستجابة دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في خصوص الذرية الطاهرة من نسل إسماعيل، وهم المعنيون في آخر سورة الحج: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾[1].

وهم المصطفون المجتبون من قبل الله تعالى للإمامة وللشهادة على أعمال الخلق، ويكون الرسول صلى الله عليه وآله عليهم شهيدا، فهم ذو وصلة بسيد الرسل صلى الله عليه وآله، وهناك تطابق واضح بين آية دعاء إبراهيم: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾.

وبين قوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[2].

فإن قربى النبي صلى الله عليه وآله كما فرض الله على الخلق مودتهم، بين على لسان إبراهيم عليه السلام في دعائه لله تعالى بأن تهوي قلوب الخلق إليهم، وهو معنى المودة والمحبة إلى ذريته من نسل إسماعيل، الذين دعا في شأنهم بأن تكون الإمامة فيهم، وهم المجتبون المسمون بالأمة المسلمة.

فجعلت مودتهم وهوى قلوب الخلق إليهم غاية لتشييد الدين.

والإسكان كان بأمر من الله تعالى، فبين إبراهيم الغاية من أمر الله تعالى بالإسكان، وهي إحياء شعائر ومعالم الدين من الصلاة والحج وتعظيم بيت الله الحرام.

---

(١) سورة الحج (٧٨).

(٢) سورة الشورى (٢٣).

ويترتب على ذلك ثمرة وفائدة قصوى تتمثل في قوله تعالى: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾.

سواء جعلنا حرف «الفاء» لترتيب الغاية على الغاية أي المسبب على السبب، أو لترتب السبب على المسبب.

لاسيما وأن تشييد الدين قد جعل فعلا تقوم به تلك الذرية، أي إن إشادة الدين لا يتم إلا بتوسطهم وعلى يدهم ومن المسؤوليات الملقاة على عاتقهم، وهو بمعنى إمامتهم للخلق وهدايتهم له.

فمن ثم لا بد من أن تهوي إليهم أفئدة من الناس وهم أهل الإيمان خاصة، ولا بد أن يفترض الله مودتهم على الخلق لينقادوا لهم ويتبعونهم.

فصار محور الصلاة والحج ومحور إقامة وإحياء شعائر ومعالم الدين من المسجد الحرام هو مودة قربى النبي ﷺ، وهوي أفئدة من الناس إليهم، أي ولايتهم.

فمركز رحى الدين مودة آل إبراهيم وآل إسماعيل وهم آل محمد ﷺ، وصار التوجه إلى بيت الله الحرام والتوجه إلى إقامة شعائر الدين هو توجه إليهم، فهذه هي غاية الحج وغاية الشعائر وتشييد الدين، وهي التوجه إليهم وبهم إلى الله تعالى.

وقد أشير في كلام الباقر ﷺ إلى برهان تاريخي أدياني من السيرة، وهو الذي أشار إليه ﷺ فيما رواه الكليني في الصحيح عن الفضيل عن أبي جعفر ﷺ نظر إلى الناس يطوفون حول الكعبة، فقال: «هكذا كانوا يطوفون في الجاهلية، إنما أمروا أن يطوفوا بها ثم ينفروا إلينا، فيعلمونا ولايتهم ومودتهم، ويعرضوا علينا نصرتهم، ثم قرأ هذه الآية: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾[1].

وفي مصحح أبي عبيدة قال: سمعت أبا جعفر ﷺ ورأى الناس بمكة وما

---

(١) أصول الكافي، الشيخ الكليني ج١ ص٣٩٢.

يعملون، قال فقال: «كفعال الجاهلية، أما والله ما أمروا بهذا، وما أمروا إلا أن يقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم، فيمروا بنا فيخبرونا بولايتهم ويعرضوا علينا نصرتهم»[١].

وفي رواية سدير عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال يا سدير: «إنما أمر الناس أن يأتوا هذه الأحجار فيعرضوا فيطوفوا بها، ثم يأتونا فيعلمونا ولايتهم لنا، وهو قول الله: ﴿وإني لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى * ثم أومأ بيده إلى صدره إلى ولايتنا﴾[٢].

فيشير عليه السلام فيما مر إلى برهان من الملة الحنيفية الإبراهيمية، ويتضح هذا البرهان بالإجابة على التساؤل عن الفرق بين حج المشركين وحج المسلمين، وكيف تحول الحج الإبراهيمي «حج إبراهيم وإسماعيل» الذي توارثته قريش، من حج إبراهيمي إلى حج شرك وإشراك، ثم تبدل وعاد إلى الحج على الحنيفية البيضاء وهو الحج المحمدي «حج المسلمين»؟ حيث إن المشركين كانوا في حجهم يتجردون عن الثياب فيحرمون ويطوفون بالبيت، ويسعون بين الصفا والمروة، ويقفون بعرفات، ويزدلفون للمشعر الحرام، ويقربون القرابين في منى، فيأتون بكل تلك الطقوس والنسك التي تشاهد من المسلمين، فما الذي أوجد الفرق بين حج المشركين وحج المسلمين؟ وما الذي أوجد الفرق بين حج إبراهيم وحج المشركين؟

الجواب: لو فتشنا عن الفرق ـ بعد الالتفات إلى أن المشركين لا ينكرون أصل وجود الله، وإنما يتقربون إليه بالأصنام والأوثان اقتراحا منهم على ربهم ـ لا نجده إلا في نبذ المشركين ولاية إبراهيم وإسماعيل والذرية الطاهرة من إسماعيل إلى

(١) أصو الكافي، الشيخ الكليني ج١ ص٣٩٢.

(٢) أصول الكافي، الشيخ الكليني ج١ ص٣٩٢.

ولاية الأصنام والأوثان، أي أنهم تركوا ما هو الغاية من الحج الذي بينه الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾(١).

كما لا نجد الفرق من جانب حج المشركين مع حج المسلمين بعد أن خاطب الله عز وجل المسلمين بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إنما الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وأن خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(٢).

فنهى الله عز وجل عن إحرام المشركين، وعد طوافهم بالبيت وسعيهم بين الصفا والمروة ووقوفهم بالمشاعر وتقديمهم القرابين ورميهم للجمرات وصلاتهم بالبيت اتجاه الكعبة وصدقاتهم واعتكافهم من المنهي عنه، مع أنه في الصورة يشابه أفعال المسلمين، بينما شرّع ذلك للمسلمين، وليس الفارق إلا إذعان المسلمين لولاية رسول الله صلى الله عليه وآله وإقرارهم بالشهادة الثانية ونبذهم لولاية الأصنام والأوثان التي لم ينزل الله بها من سلطان.

أي أن المسلمين في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله عملوا وأوفوا بما هو عماد وركن الحج الركين، وهو هوي أفئدتهم إلى الذرية الطاهرة التي هي محل استجابة دعوة إبراهيم بالإمامة والمودة لهم، فوفوا بما هو الغاية من الحج، ومن ثم صار حجهم على نهج حج إبراهيم.

فهذا برهان تاريخي أدياني تقتضيه الملة الحنيفية، دال على أن الحج وأعماله ونسكه من دون تولي وولاية الذرية المجتباة من نسل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام،

---

(١) سورة إبراهيم (٣٧).

(٢) سورة التوبة (٢٨).

يقضي بكون أفعال الحج والعبادات كفعال المشركين.

وهذا هو الذي أشار إليه الإمام الباقر عليه السلام كبرهان تاريخي في الملة داعما لمفاد الآية الكريمة التي هي دليل قرآني أول.

ثم أشار عليه السلام في الروايات إلى دليل ثاني وهو قوله تعالى: ﴿وإني لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾[1].

أي أن المغفرة يشترط فيها أربعة شروط، والشرط الرابع هو الهداية مضافا إلى الإيمان والتوبة والعمل الصالح.

ومن الواضح أن هذه الهداية أمر وراء أصل الإيمان بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وآله، كما تشير إلى ذلك سورة الحمد، فبعد أن استعرضت التوحيد والنبوة والمعاد أشارت في ذيلها إلى أن النجاة يشترط فيها الاهتداء إلى صراط ومنهاج ثلة قد أنعم الله عليهم وعصمهم من الغضب الإلهي ومن أن يضلوا.

وفي مصحح زيد الشحام قال: دخل قتادة بن دعامة على أبي جعفر عليه السلام فقال: «يا قتادة أنت فقيه أهل البصرة؟ قال: هكذا يزعمون فقال أبو جعفر عليه السلام: بلغني أنك تفسر القرآن؟ فقال له قتادة: نعم، فقال له أبو جعفر ؟ بعلم تفسره أم بجهل؟ قال: لا بعلم، فقال له أبو جعفر عليه السلام: فإن كنت تفسره بعلم فأنت أنت وأنا أسألك؟ قال قتادة: سل قال: أخبرني عن قول الله عز وجل في سبأ: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ فقال قتادة: ذلك من خرج من بيته بزاد حلال وراحلة وكراء حلال يريد هذا البيت كان آمنا حتى يرجع إلى أهله، فقال أبو جعفر عليه السلام: نشدتك الله يا قتادة هل تعلم أنه قد يخرج الرجل من بيته بزاد حلال وراحلة وكراء حلال يريد هذا البيت فيقطع عليه الطريق فتذهب نفقته ويضرب مع ذلك ضربة فيها اجتياحه؟ قال قتادة: اللهم نعم، فقال أبو جعفر عليه السلام: ويحك يا

(١) سورة طه (٨٢).

قتادة إن كنت إنما فسرت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت وأهلكت، وأن كنت قد أخذته من الرجال فقد هلكت وأهلكت، ويحك يا قتادة ذلك من خرج من بيته بزاد وراحلة وكراء حلال يروم هذا البيت عارفا بحقنا يهوانا قلبه كما قال الله عز وجل: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ فنحن والله دعوة إبراهيم ﷺ التي من هوانا قلبه قبلت حجته وإلا فلا، يا قتادة فإذا كان كذلك كان آمنا من عذاب جهنم يوم القيامة، قال قتادة: لا جرم والله لا فسرتها إلا هكذا، فقال أبو جعفر ﷺ: ويحك يا قتادة إنما يعرف القرآن من خوطب به»[١].

وفي هذه الرواية مضافا إلى الأدلة السابقة، يشير ﷺ إلى دليل آخر وهو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾[٢].

وكذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾[٣].

وقد أشير إلى هذا الدليل في رواية أخرى عن الصادق في حواره مع أبي حنيفة كما في علل الشرائع، قال: «حدثنا أبو زهير بن شبيب بن أنس عن بعض أصحابه، عن أبي عبد الله ﷺ قال: كنت عند أبي عبد الله ﷺ إذ دخل عليه غلام من كندة فاستفتاه في مسألة فأفتاه فيها، فعرفت الغلام والمسألة فقدمت الكوفة، فدخلت على أبي حنيفة فإذا ذاك الغلام بعينه يستفتيه في تلك المسألة بعينها، فأفتاه فيها بخلاف ما أفتاه أبو عبد الله ﷺ، فقمت إليه فقلت ويلك يا أبا حنيفة إني كنت العام حاجا فأتيت أبا عبد الله ﷺ مسلّماً عليه فوجدت هذا الغلام يستفتيه في هذه المسألة بعينها فأفتاه بخلاف ما أفتيته، فقال: وما يعلم جعفر بن محمد أنا أعلم منه، أنا لقيت الرجال وسمعت من أفواههم، وجعفر بن محمد

---

(١) أصول الكافي. الشيخ الكليني ج٨ ص ٣١١.

(٢) سورة سبأ (١٨).

(٣) سورة آل عمران (٩٦، ٩٧).

صحفي أخذ العلم من الكتب ! فقلت في نفسي والله لأحجن ولو حبوا. قال فكنت في طلب حجة، فجاءتني حجة فحججت، فأتيت أبا عبد الله عليه السلام فحكيت له الكلام فضحك ثم قال: أما في قوله إني رجل صحفي فقد صدق قرأت صحف آبائي إبراهيم وموسى، فقلت ومن له بمثل تلك الصحف، قال: فما لبثت أن طرق الباب طارق وكان عنده جماعة من أصحابه فقال الغلام انظر من ذا فرجع الغلام فقال أبو حنيفة، قال أدخله فدخل فسلم على أبى عبد الله عليه السلام فرد عليه، ثم قال أصلحك الله أتأذن في القعود؟ فأقبل على أصحابه يحدثهم ولم يلتفت إليه، ثم قال الثانية والثالثة فلم يلتفت إليه، فجلس أبو حنيفة من غير إذنه، فلما علم أنه قد جلس التفت إليه فقال: أين أبو حنيفة؟ فقيل هو ذا أصلحك الله، فقال أنت فقيه أهل العراق؟ قال نعم، قال: بما تفتيهم؟ قال: بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله. قال: يا أبا حنيفة تعرف كتاب الله حق معرفته وتعرف الناسخ والمنسوخ؟ قال نعم، قال: يا أبا حنيفة لقد ادعيت علما، ويلك ما جعل الله ذلك إلا عند أهل الكتاب الذين أنزل عليهم، ويلك ولا هو إلا عند الخاص من ذرية نبينا صلى الله عليه وآله ما ورثك الله من كتابه حرفا فإن كنت كما تقول ولست كما تقول فاخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ أين ذلك من الأرض؟ قال حسبه ما بين مكة والمدينة، فالتفت أبو عبد الله عليه السلام إلى أصحابه فقال: تعلمون أن الناس يقطع عليهم بين المدينة ومكة فتؤخذ أموالهم ولا يؤمنون على أنفسهم ويقتلون؟ قالوا نعم، قال فسكت أبو حنيفة، فقال يا أبا حنيفة أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ أين ذلك من الأرض؟ قال: الكعبة، قال أفتعلم أن الحجاج بن يوسف حين وضع المنجنيق على ابن الزبير في الكعبة فقتله كان آمنا فيها؟ قال: فسكت، ثم قال له يا أبا حنيفة، إذا ورد عليك شيء ليس في كتاب الله ولم تأت به الآثار والسنة كيف تصنع؟ فقال أصلحك الله: أقيس وأعمل فيه برأيي، قال يا أبا حنيفة: إن أول من قاس إبليس الملعون قاس على ربنا تبارك وتعالى فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ فسكت أبو حنيفة، فقال يا أبا حنيفة أيما أرجس البول أو الجنابة؟ فقال البول، فقال: فما بال

الناس يغتسلون من الجناية ولا يغتسلون من البول؟ فسكت، فقال يا أبا حنيفة أيما أفضل الصلاة أم الصوم؟ قال الصلاة، قال: فما بال الحائض تقضي صومها ولا تقضي صلاتها؟ فسكت، فقال يا أبا حنيفة: أخبرني عن رجل كانت له أم ولد وله منها ابنة وكانت له حرة لا تلد فزارت الصبية بنت أم الولد أباها، فقام الرجل بعد فراغه من صلاة الفجر، فواقع أهله التي لا تلد وخرج إلى الحمام فأرادت الحرة أن تكيد أم الولد وابنتها عند الرجل فقامت إليها بحرارة ذلك الماء فوقعت عليها وهي نائمة، فعالجتها كما يعالج الرجل المرأة، فعلقت، أي شيء عندك فيها؟ قال: لا والله ما عندي فيها شيء، فقال يا أبا حنيفة: أخبرني عن رجل كانت له جارية فزوجها من مملوك له وغاب المملوك، فولد له من أهله مولود وولد للمملوك مولود من أم ولد له فسقط البيت على الجاريتين ومات المولى، من الوارث؟ فقال جعلت فداك: لا والله ما عندي فيها شيء، فقال أبو حنيفة: أصلحك الله إن عندنا قوما بالكوفة يزعمون أنك تأمرهم بالبراءة من فلان وفلان وفلان فقال: ويلك يا أبا حنيفة لم يكن هذا، معاذ الله، فقال أصلحك الله: إنهم يعظمون الأمر فيهما، قال: فما تأمرني؟ قال: تكتب إليهم، قال: بماذا؟ قال: تسألهم الكف عنهما، قال: لا يطيعوني، قال: بلى أصلحك الله إذا كنت أنت الكاتب وأنا الرسول أطاعوني، قال يا أبا حنيفة أبيت إلا جهلا، كم بيني وبين الكوفة من الفراسخ؟ قال أصلحك الله ما لا يحصى، فقال كم بيني وبينك؟ قال لا شيء، قال أنت دخلت علي في منزلي فاستأذنت في الجلوس ثلاث مرات فلم آذن لك، فجلست بغير إذني خلافا علي، كيف يطيعوني أولئك وهم هناك وأنا هاهنا؟ قال فقبل رأسه وخرج وهو يقول: أعلم الناس ولم نره عند عالم. فقال أبو بكر الحضرمي جعلت فداك الجواب في المسألتين فقال يا أبا بكر سيروا فيها ليالي وأياما آمنين، فقال: مع قائمنا أهل البيت، وأما قوله ومن دخله كان آمنا، فمن بايعه ودخل معه ومسح على يده ودخل في عقد أصحابه كان آمنا»[1].

---

(١) علل الشرائع، الشيخ الصدوق: ج ١ ص ٨٩

فهذا يدلل على أن المراد من الأمن هو الأمن الأخروي والنجاة من النار، وأنه لا يجازى به إلا من وفى بعهد الله من إتيان الحج والعبادات وهوي فؤاده ومودته إلى الذرية من نسل إبراهيم وإسماعيل، وهم الذين فرضت مودتهم من قربى النبي وعترته عليهم السلام.

ويشير إلى ذلك قوله تعالى في آيات سورة البقرة من تقييد الأمم بمن آمن، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾(١).

وفي رواية للباقر عليه السلام في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ قال: «نحن بقية تلك العترة، وقال كانت دعوة إبراهيم لنا خاصة»(٢).

وفي رواية أخرى عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ فقال عليه السلام: «ما قال إليه يعني البيت، ما قال إلا إليهم، أفترون الله فرض عليكم إتيان الأحجار والتمسح بها، ولم يفرض عليكم إتياننا وسؤالنا وحبنا أهل البيت، والله ما فرض عليكم غيره»(٣).

وفي رواية أخرى إشارة إلى دليل آخر وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾(٤).

فالمفاد أن الطهارة والكمال المرجو من العيادة لا يتم إلا بلقاء الإمام عليه السلام.

وعن عبدالله بن سنان، عن ذريح المحاربي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: «إن الله

(١) سورة البقرة (١٢٦).

(٢) بحار الأنوار ج٢٣ ص٢٢٣ ورواه العياشيء أيضاً وزاد ونحن بقية تلك الذرية.

(٣) بحار الأنوار ج٢٣ ص٢٢٤.

(٤) سورة الحج (٢٩).

أمرني في كتابه بأمر فأحب أن أعمله، قال: وما ذاك؟ قلت: قول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال: ليقضوا تفثهم لقاء الإمام، وليوفوا نذورهم تلك المناسك، قال: عبدالله بن سنان فأتيت أبا عبد الله ﷺ فقلت: جعلت فداك قول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال: أخذ الشارب وقص الأظفار وما أشبه ذلك، قال: قلت: جعلت فداك إن ذريح المحاربي حدثني عنك بأنك قلت له: ﴿لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ لقاء الإمام ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ تلك المناسك، فقال: صدق ذريح وصدقت إن للقرآن ظاهرا وباطنا، ومن يحتمل ما يحتمل ذريح؟!»[١].

---

(١) أصول الكافي. الشيخ الكليني ج ٤ ص٥٤٩.

شواهد من مناسك الحج

تجسد التوسل واللواذ بحضرة الأولياء عليهم السلام

ثم إن في الحج جملة من الشواهد الأخرى:

الشاهد الأول: مقام إبراهيم عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[1].

فإن هذا الأمر باتخاذ الحجر التي ركب عليها إبراهيم عليه السلام في بناء البيت مقاما مقدسا يصلى عنده ويتوجه إليه، ويتوجه به إلى الكعبة، ينطوي على نفس المفاد من أن العبادات قد أخذ فيها التوجه بأولياء الله وأصفيائه من الأنبياء والأوصياء عليهم السلام إلى الله تعالى، لاسيما وأن هذا المقام قد نصب في بيت الله الحرام معلما ليدل على أن العبادة التوحيدية لله لا تتم ولا تتحقق إلا بولاية أوليائه المصطفين، وأنه كما أن البيت قطب لرحى التوحيد، فبابه هم أولياؤه المصطفون آيات بينات فيه.

ولا يخفى ما في التعبير بكلمة «مقام» فإنه للتعظيم والتفخيم والتبجيل، مع أن هذا الحجر ليس هو إبراهيم الخليل عليه السلام، وإنما أضيف إليه لملامسته جسد إبراهيم عليه السلام.

فالمكان الذي اتصل ولامس وماس جسده الشريف أمرنا في السنة الإلهية أن نتخذه محلا للعبادة ونتوجه فيه ومنه إلى الله تعالى.

---

(١) سورة البقرة (١٢٥).

فما أشد المطابقة بين مفاد هذه الآية وما تقدم من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾(١).

حيث جعل الباري تعالى المجي في الحضرة النبوية موضعا يزدلف فيه إلى الله تعالى ويتقرب فيه إليه ويتوجه فيه ومنه إليه.

فتلاحم التوجه إلى الله بالتوجه بالنبي محمد وآله ﷺ وإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى الله تعالى، فكانوا أبواب سماء الحضرة الإلهية.

الشاهد الثاني: حجر إسماعيل عليه السلام

فإن هذا الحجر قد جعل بضميمة الكعبة مما يطاف به، وقد استخدمه إسماعيل لبعض مرافق معيشته، وفي جملة من روايات الفريقين أن هاجر وإسماعيل مدفونان به، وفيها أن عشرات النبيين قد دفنوا تحته(٢).

---

(١) سورة النساء (٦٤).

(٢) وإليك بعض روايات وكلمات علماء الفريقين، أما من الشيعة:

▣ وسائل الشيعة (آل البيت). الحر العاملي ج١٣ ص٣٥٣:

محمد بن يعقوب، عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن الحسين بن سعيد، عن فضالة بن أيوب، عن معاوية بن عمار قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن الحجر أمن البيت هو أو فيه شيء من البيت؟ فقال: لا، ولا قلامة ظفر، ولكن إسماعيل دفن فيه أمه فكره أن يوطأ، فجعل عليه حجراً وفيه قبور أنبياء).

▣ وسائل الشيعة (آل البيت. الحر العاملي ج١٣ ص ٣٥٤:

وعن بعض أصحابنا، عن ابن جمهور، عن أبيه، عن محمد بن سنان، عن المفضل بن عمر، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: (الحجر بيت إسماعيل وفيه قبر هاجر وقبر إسماعيل).

وأما من السنة:

▣ المصنف. عبدالرزاق الصنعاني ج٥ ص ١٢٠:

فجعل الحجر الذي هو ذكرى لإسماعيل ﷺ ولموضع قبره مطافا، مما يؤكد على أن المدار في التوجه إلى الله أن يكون بالتوجه إليه عبر حججه وأصفيائه، ومن هنا جاء في القرآن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾(١)

فالبيت المقدس وما يحويه من ذكريات الأنبياء ﷺ ومقاماتهم وقبورهم وسيلة للصعود إلى عالم الطهارة والحظوة عند الله تعالى.

عبدالرزاق عن ابن جريج قال: أخبرني عبدالله بن عثمان عن ابن سابط عن عبدالله بن ضمرة السلولي قال: طفنت معه حتى إذا كنا بين الركن والمقام، فذك ركذا وكذا، حتى ذكر قبر إسماعيل هنالك. أحسبه. ذكر نحو تسعين نبياً، أو سبعين).

■ الدر المختار. الحصفكي ج٢ ص٥٤٤:

قالوا: ويمر بجميع بدنه على جميع الحجر (عاجلاً) قبل شروعه (رداءه تحت إبطه اليمنى ملقيا طرفه على كتفه الأيسر) استناناً (وراء الحطيم) وجوباً، لأن منه ستة أذرع من البيت، فلو طاف من الفرجة لم يجز كاستقباله احتياطاً، وبه قبر إسماعيل وهاجر (سبعة أشواط) فقط (فلو طاف ثامناً مع علمه به) فالصحيح أن (يلزمه إتمام الأسبوع للشروع) أي لأنه شرع فيه ملتزماً، بخلاف ما لو ظن أنه سابع لشروعه مسقطاً لا مستلزماً، بخلاف الحج.

■ حاشية رد المختار. ابن عابدين ج٢ ص٥٤٦:

وذكر بعضهم أن ابن الجوزي أورد أن قبر إسماعيل فيما بين الميزاب الى باب الحجر الغربي.

■ تحفة الأحوذي. المباركفوري ج٢ ص٢٢٧:

فلا حرج في ذلك لما ورد أن قبر إسماعيل عليه السلام في الحجر تحت الميزاب، وأن في الحطم بين الحجر الأسود وزمزم قبر سبعين نبياً ولم ينه أحد عن الصلاة فيه.

(١) سورة البقة (١٢٥).

الشاهد الثالث: ولادة علي عليه السلام في الكعبة

وهذا التخصيص لعلي عليه السلام ـ وصي رسول الله والمنـزل منـزلة نفس النبي صلى الله عليه وآله في آية المباهلة، الذي هو من أهل البيت عليهم السلام في آيـة التـطهير، والذي هـو ولي المؤمنين حصرا بعد رسول الله صلى الله عليه وآله بنص آية التصدق في الركوع ـ بهذه الآيـة بأن تكون ولادته في جوف وبطن الكعبة وهي مركز القبلة الإلهية[1]، ومركز الطواف ومركز بيت الله الحرام، إشارة إلهية واضحة في أنه كما يتوجه إلى الكـعبة لأجـل التوجه إلى الله، فكذلك لا بد من التوجه بسيد الأوصياء الذي هو باب مدينة علم

---

(١) وقال الحاكم النيسابوري في ترجمة حكيم بن حزام في مستدركه على الصحيحين المجلد ٣ صفحة ٤٨٣: (وقد تواترت الأخبار أن فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه في جوف الكعبة).

وقال الآلوسي في كتابه الخريدة الغيبية في شرح العقيدة العينية ص١٥: (وكون الأمير كرم الله وجهه ولد في البيت أمر مشهور في الدنيا، وذكر في كتب الفريقين السنة والشيعة، ولم يشتهر وضع غيره كما اشتهر وضعه، بل لم تتفق الكلمة عليه).

وقال أيضاً: (وقيل أحب عليه السلام (يعني علياً) وأن يكافىء الكعبة حيث ولد في بطنها) ص٧٥.

وقال الشاه ولي الله الدهلوي والد مصنف التحفة الإثني عشرية: (تواترت الأخبار أن فاطمة بنت أسد ولدت علياً في جوف الكعبة، فإنه ولد في يوم الجمعة الثالث عشر من رجب بعد عام الفيل بثلاثين سنة في الكعبة، ولم يولد فيها أحد سواه قبله ولا بعده). إزالة الخفاء ج٢ ص ٢٥١.

وقد ذكر العلامة الأميني العديد من مصادر العامة، فلاحظ المجلد السادس ص٢٣ من كتاب الغدير، وغيرها من المصادر الكثيرة فضلاً عن تواتر الروايات عند الإمامية.

وسأل صعصعة بن صوحان علي عليه السلام: أنت أفضل أم عيسى بن مريم؟ فقال: عيسى كانت أمه في بيت المقدس، فلما جاء وقت ولادتها سمعت قائلاً يقول: أخرجي هذه بيت عبادة لا بيت الولادة، وأنا أمي فاطمة بنت أسد لما قرب وضع حملها كانت في الحرم، فانشق حائط الكعبة وسمعت قائلاً يقول لها: أدخلي فدخلت في وسط البيت، وأنا ولدت به وليس لأحد هذه الفضيلة لا قبلي ولا بعدي). النعمة البيضاء، التبريزي الأنصاري ص ٢٢٠، الأنوار النعمانية ج١ ص٢٧ نقلاً عن المناقب.

النبيﷺ لأجل التوجه به إلى الله ورسولهﷺ.

فالقران والاقتران بين الكعبة ومولد علي عليه السلام في التقدير والقضاء الإلهي تشعير منه تعالى لشعيرة الوسيلة، وأن النبي وأهل بيته عليهم السلام هم وجه الله الذي يتوجه به إليه تعالى، لاسيما مع ما لابس ذلك الحدث من انشقاق الجدار لفاطمة بنت أسد، ومكثها ثلاثة أيام، ومحاولة أبي طالب وقريش فتح باب الكعبة فلم ينفتح، فعلموا أن ذلك بتدبير من الله، وغيرها من الإرهاصات كتسمية المولود، واللوح النازل من السماء والذي علق في الكعبة وكان فيه اسم علي عليه السلام(١).

وغير ذلك مما أبان عن كون هذا الحدث آية ربانية خص بها الباري علي ابن أبي طالب عليه السلام، للتدليل على اصطفائه، وأنه الباب الذي منه يقصد إلى الله ورسولهﷺ.

ومن ثم عبر المحدث المتتبع نادرة زمانه الميرزا النوري بقوله: «لا يبعد القول بأن ولادة علي في الكعبة من ضروريات المذهب» تدليلا على كونها أمرا عقديا وليس مجرد حدثا تاريخيا(٢).

---

(١) ينابيع المودة ج٢ ص٣٠٦، كفاية الطالب للحافظ الكنجي ص٤٠٦، مناقب آل أبي طالب ابن شهر آشوب ج٢ ص٢٣.

(٢) سر ولادة علي عليه السلام في الكعبة:

تحتل منقبة ولادة علي عليه السلام في الكعبة مكانة في غاية الأهمية في خانة مقاماته ومناقبه، مما حدا بالعلامة النوري عليه الرحمة الى القول: (لا يبعد القول إنها من ضروريات مذهب الإمامية).

وقد ذكر الأعلام أسراراً عديدة، ودلالات قيمة لتلك المنقبة، ونشيرها هنا الى سر من أسرارها مرتبط ببحث التوسل، وبيانه أن تلك الولادة والخصوصيات المرافقة لها تشير الى أن التوحيد في باطن الاعتقاد بالولاية، وأنه لا توحيد إلا بالولاية.

فالتوجه والقصد الحقيقي لله تالى لا يحصل ولا يتم إلا بالقصد إلى آيته وبابه الأعظم، بمعنى أن قوام صحة العبادة تمام صورتها الشرعية لا تتحقق مالم يتوجه المصلي الى الكعبة والآية المولودة فيها.

وبعبارة أوضح إن العبادة تتقوم بتوجه المصلي الى الكعبة بوجهه الظاهري، والى علي عليه السلام بوجهه القلبي الباطني، ليكونا وسيلة وباباً الى الله تعالى.

ومحال أن تتكامل حقيقة العبادة مالم يتوسل به عليه السلام مقروناً بكل عبادة دينية، فما لم ينضم التوسل والقصد إليه عليه السلام لا تحصل الزلفى والقربى المرجوة من أداء العبادة، ولعل هذا سرّ من أسرار ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله في قوله: (علي صلاة المؤمنين وصومهم).

فكما أن غاية الصلاة خلف مقام إبراهيم عليه السلام هو استحضار مقامات إبراهيم، والتوسل به في القصد الى الله، كذلك التوجه الى الكعبة استحضار لمقامات علي عليه السلام المولود في جوفها، والتقرب بوسيلته الى الله تعالى.

وكما أنه صح كون مقام إبراهيم عليه السلام قبلة للمصلي في أداء ركعتي الطواف ال بالكعبة، فإن التوجه الى الكعبة قبلة للتوجه لسيد الأنبياء صلى الله عليه وآله وسيد الأوصياء عليه السلام، وكيف يقبل أن يكون الحجر قبلة لله، ولا يقبل أن يكون سيد الأولياء وآدم الأوصياء عليه السلام قبلة لله تعالى!!

وعلى ضوء ما مر يفهم أن القبلة التي يتوجه بها الى الله قبلتان: الأولى ظاهرية وهي الكعبة، والثانية باطنية وهي الاعتقاد بولايتهم والتوجه بهم والتوسل بمقامهم حال أداءالعبادة لكي تكون مشروعة وصحيحة.

وقد تعرضت هذه المنقبة العظيمة كالعادة للتمييع والتبسيط والتصغير، فادعى الحاكم النيسابوري أن حكيم ابن حزام هو أول من ولد عند الكعبة المشرفة سابقاً ولادة علي عليه السلام فيها، ومشاركاً له في هذه المنقبة.

والرد على ذلك في نقاط عديدة:

النقطة الأولى: ما نقله الحاكم النيسابوري مخالف للشهرة التاريخية التي أطبق عليها علماء الفريقين، وقد نقل العديد من الأعلام نصوصاً تاريخية مؤكدة لتلك الشهرة.

النقطة الثانية: على فرض صحة ما نقله الحاكم فإن المقايسة بين الولادتين قياس مع الفارق؛ لأن مدعى الحاكم ولادة حكيم ابن حزام عند الكعبة أي بقربها وعلى أحد جوانبها، وأما ما قامت عليه الشهرة التاريخية بين الفريقين في ولادة علي عليه السلام فهو تحققها في جوف الكعبة المشرفة وفي بطنها وليس على أحد جوانبها.

النقطة الثالثة: كانت ولادة حكيم بن حزام المدعاة محض الصدفة وقضاء الاتفاق، بمعنى أن أمه كانت تطوف بالكعبة فاتفق أن سقط منها وليدها عند أحد جوانب الكعبة كما يتفق أن تضع البقرة وليدها في الطريق، وأما وضع فاطمة بنت أسد مولودها المبارك في جوف الكعبة المعظمة فكانت جامعة ومترادفة مع كل مكرمة وفضيلة، مما يشهد على وجود تخطيط إلهي وتدبير رباني ورعاية وعناية مقصودة، فإنها لما بدا عليها آثار الوضع أخذ بها أبو طالب الى الكعبة، فالتجأت الى الكعبة من ألم الوضع، وهتف بها هاتف بالدخول الى جوف الكعبة، وانفتح لها الباب أو

الشاهد الرابع: شواهد أخرى

ومن الشواهد على البحث الذي نحن بصدده جملة الأعمال الأخرى في الحج كالسعي بين الصفا والمروة، فإن فيه بصمة وعلامة من آدم صفي الله، ومن ثم سمي الصفا، ومن حواء وهي امرأة، ومن ثم سمي مروة، حيث ورد أن آدم نـزل عـلى الصفا عندما أهبط، وحواء نزلت على المروة.

مضافا إلى ارتباط استحباب الشرب من زمزم بنبع الماء لإسماعيل وهاجر، وكذلك عرفات حيث سميت بذلك لاعتراف آدم عليه السلام بخطيئته إلى الله تعالى بترك ما هو أولى، وكذلك المزدلفة حيث ازدلف آدم إلى ربه فيها، وكذلك ذبح الهدي كقربان في منى وكافتداء عن إسماعيل.

وبالجملة فهذه النسك مضافا إلى كونها عبادات لله تعالى، فإنها مقترنة بمشاهد للأنبياء والمرسلين عليهم السلام مذكرة بهم احتفاء بهم وبأسمائهم، وتقربا باحتذائهم إلى الله

انشق الجدار ثم عاد الى الانضمام، وحول من في الكعبة أن يفتحوا الباب فلم يتمكنوا، وبقيت فاطمة بنت أسد في جوف الكعبة ثلاثة أيام في ضيافة الله تعالى كرامة لوليدها دون أكل أو شرب، فكل ذلك وأكثر يدل على الكرامات والفضائل الإلهية التي أحاطت بولادة علي عليه السلام مما لا يتعقل معها أي قياس أو مقارنة بأي ولادة.

النقطة الرابعة: لو صح ولادة حكيم بن حزام عند الكعبة فإن أقصى ما يدل عليه ذلك تشرفه بالوضع بجوارها المبارك، وأما الذي حصل بولادة علي عليه السلام في جوف الكعبة فهو تشرف الكعبة وتألقها وتعاظمها بولادته المباركة، وهل يصح القياس بين ولادة من تشرف بالكعبة وبين من شرفت ولادته الكعبة.

وليس ببعيد القول كما أن حجر المقام ماس جسد إبراهيم عليه السلام، واتصل به فصار مقاماً مشرفاً وقبلة للعبادة يتوجه بها الى الله تعالى، فكذلك الكعبة إنما صارت مثوبة لأهل الإيمان وكعبة للعبادات والنسك لتشرفها بمماسة جسد علي عليه السلام حال ولادته وظهوره الشريف للحياة الدنيا.

كسبيل وباب إليه تعالى.

ومن ثم يتفطن إلى ما في لزوم الإتباع لسنة الرسولﷺ من معنى التوجه به إلى الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَـانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخر وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[1].

فإن التأسي به توجه به إلى الله، وتقديمه إماما وافدا في السير والوفود على الله، فيكون سيره وسيرته سبيلا يتوجه به إلى الله تعالى، وبابا يطرق للوفود عـلى الحضرة الإلهية، فلا يتوجه إلى الله إلا بتقديمهم له إماما سواء في نهج المعرفة أو في سبيل العمل.

أو ليس الجائي بمعارف القرآن من عند الله تعالى هو رسول اللهﷺ فضلا عن شريعة الأعمال، فمن وحد الله قبل عنهم ومن قصده توجه بهم، وهذا هـو مـعنى اتخاذهمعليهم السلام وسيلة إلى الله تعالى.

---

(١) سورة الأحزاب (٢١).

الوجه العاشر

فلا سبيل إلى التوحيد في الذات والصفات والأفعال بالنحو الذي ذكرناه إلا بتقرير العظمة الإلهية والكمال اللا متناهي، وهو إنما يتقرر بتقرير أن الذات الإلهية أعظم من صفات الفعل ومن أسمائها وأفعالها.

قاعدة الإثبات بلا تشبيه والتنزيه بلا تعطيل

إن السنن الإلهية في الصفات والأفعال ونظام الوسائط هو نظام تنزيه بلا تعطيل وإثبات بلا تشبيه.

فإن تطبيق هذه القاعدة في إقامة التوحيد خروجاً عن حد التشبيه وحد التعطيل في مقام الأفعال، وكذلك في مقام الصفات الفعلية والأسماء الحسنى، هو بتثبيت النسبتين المعبر عنه بنظام الوسائط.

وليس المراد من هذا العنوان ما قد يتخيل من أن الفعل إسناده إلى الباري من بعيد، وإسناده إلى الواسطة المخلوقة من قريب، فإن هذا نحو من التعطيل أو التشبيه بصدور الأفعال من العقول بأن يتصور نحو استغناء في الوسائط عن الباري.

كما أنه ليس المراد من قرب إسناد هذه الأفعال من الباري التشبيه بتصوير مباشرة الباري للمادة أو النفس في صدور الأفعال منه، فكم أخطأ من يتصور أن الإسناد من قرب يعني الملابسة للمادة والمباشرة كمباشرة النفس، كما أنه يخطأ من

ينزه الباري عن ملابسة المادة، وعن المباشرة كمباشرة الروح، بأن يتصور أن إسناد الفعل للباري على ضوء ذلك هو عن بعد، فإن البعد والقرب في إسناد الأفعال ليس بمباشرة المادة وعدمها، ولا بملابسات الروح، ولا بالبعد والقرب الجغرافي والجسماني، بل إنما هو بسيطرة القدرة ونفوذ القوة وهيمنة السلطان، فإن كل شيء قائم به.

فهذه القاعدة لا يقتصر في مراعاتها كقاعدة أسسها أهل البيت عليهم السلام وكشفوا عنها، وتلقتها سائر المدارس الكلامية بالقبول ـ لسانا وشعارا لكنهم أخفقوا في تطبيقها في مجالات عديدة من مسائل العقيدة، فلربما ترى بعض المدارس تراعي تلك القاعدة في تنظير معرفة التوحيد في مقام الذات لكنها تخفق في مراعاتها في تنظير التوحيد في مقام الصفات أو مقام الأفعال، بل قد وقع في ورطة الإخفاق في مراعاة القاعدة في المقامين الآخرين جملة من المدارس الإسلامية ـ في مقام دون مقام؛ لأن أهل البيت عليهم السلام قد شددوا في مراعاتها في كل المقامات، فترى المدارس الإسلامية الأخرى قد جعلت جملة من الصفات الفعلية للباري تعالى من منزلة ومقام الصفات الذاتية، فوقعت في التشبيه كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾[1]

فجعلوا الأيدي هاهنا من الصفات الذاتية مع أنها من صفات الفعل.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾[2]

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾[3]

---

(١) سورة يس (٧١).

(٢) سورة هود (٣٧).

(٣) سورة طه (٣٩).

فجعلوا الأعين والعين صفة الذات بينما هي من صفات الفعل.

وكذلك قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾(١)

فجعلوا الوجه صفة الذات بينما هي صفة الفعل.

وقوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾(٢)

فجعلوا الجنب صفة الذات بينما هو صفة الفعل.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾(٣)

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٤)

فجعلوا الكلام صفة الذات بينما هو صفة الفعل.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾(٥)

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾(٦)

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وإِنا لَمُوسِعُونَ﴾(٧)

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ

---

(١) سورة الرحمن (٢٦، ٢٧).

(٢) سورة الزمر (٥٦).

(٣) سورة الفتح (١٥).

(٤) سورة البقرة (٧٥).

(٥) سورة الأعراف (٥٧).

(٦) سورة المائدة (٦٤).

(٧) سورة الذاريات (٤٧).

كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ (١)

وغيرها من الصفات الأخرى في القرآن الكريم، فجعلوها من صفات الذات فوقعوا في أعظم تشبيه للخالق بالمخلوقات كأحكام التجسيم أو التشبيه بالنفس والروح أو الفعل.

فجعلوا لعين الذات الإلهية عينا ويدا وجنبا ووجها وساقا ونحو ذلك، بينما هناك فرق بين ثبوت صفات الفعل للذات الإلهية وثبوت صفات الذات للذات الإلهية، فإن صفات الذات عين الذات، بينما صفات الفعل هي عين الفعل لا عين الذات، نعم هي قائمة ومملوكة للذات الإلهية، كمملوكية جميع المخلوقات للذات الإلهية، ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (٢)

فإن هذه الأسماء أضيفت إليه تعالى بلام الملكية والاختصاص للدلالة على أنها مملوكة له تعالى، وهذه الأسماء هي عين صفات الفعل، كما مر بيان ذلك في رواية هشام بن الحكم عن الصادق عليه السلام.

بينما أكدت مدرسة أهل البيت عليهم السلام على أن هذه الصفات صفات فعل وليست صفات الذات، وأن من يسند هذه الصفات إلى الذات على نحو صفات الذات فقد وقع في التشبيه.

ومن ثم ورد عن أمير المؤمنين وعنهم عليهم السلام أنهم عين الله الناظرة ولسانه الناطق وجنبه وعيبة علمه، وأنهم يده الباطشة وأذنه الواعية.

وكذلك وقع أكثرهم في التشبيه في إسناد الأفعال إليه تعالى، فجعلوا إسناد تلك

---

(١) سورة ص (٧٥).

(٢) سورة الأعراف (١٨٠).

الأفعال على نمط إسنادها إلى غير الله تعالى، وهو إثبات بتشبيه كما في العديد من الآيات:

◘ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[١]

◘ وقوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون﴾[٢]

◘ وقوله تعالى: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا﴾[٣]

◘ وقوله تعالى: ﴿رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٤]

◘ وكذلك قوله تعالى. ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[٥]

◘ وكذا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾[٦]

◘ وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[٧]

◘ وقوله تعالى: ﴿وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاء﴾[٨].

---

(١) سورة الزخرف (٥٥).

(٢) سورة يس (٣٠).

(٣) سورة الفتح (٦).

(٤) سورة المائدة (١١٩).

(٥) سورة المجادلة (١).

(٦) سورة التوبة (٢٥).

(٧) سورة محمد (٧).

(٨) سورة آل عمران (١٣).

▣ وقوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾(١)

▣ وقوله تعالى: ﴿كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾(٢)

▣ وقوله تعالى: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أكبر مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمان فَتَكْفُرُونَ﴾(٣).

وغيرها من سائر الأفعال التي أسندت في ظاهر الكتاب إلى الذات الإلهية، فحمل الإسناد في هذه الأفعال على نمط الإسناد إلى المخلوقين، وهو ما يستلزم القول بطرو الأحوال الحادثة على الذات الإلهية، وسبحان الله عما يصفون.

وهو من التشبيه في الأفعال إما بالأفعال الصادرة من النفس أو الروح أو الصادرة من الجسم، بينما إسناد هذه الأفعال المفروض فيه أنه بنمط آخر، كما في إسناد أي فعل يصدر من المخلوق، فإن له نسبة إسناد إلى الله لا تستلزم الجبر، فإن نسبة الأفعال إلى الله هي بنمط ما منه الوجود، أي ما كان ابتداء ونشأة وإيداع وجوده منه تعالى.

ونسبة الأفعال نفسها إلى المخلوقين نسبة ما به الوجود، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وأن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وأن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا * مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا﴾(٤).

فتدل الآية على أن تقدير الأمور كلها من عند الله تعالى، كما تدل على أن

---

(١) سورة الكهف (١١).

(٢) سورة التوبة (٤٦).

(٣) سورة غافر (١٠).

(٤) سورة النساء (٧٨، ٧٩).

مطلق الخير وإن صدر على يد العبيد وأسند إليهم، إلا أن منشأه وابتداءه هو من عند الله تعالى، وقد ورد في الحديث القدسي: «إن الله أولى بحسنات العبد من نفسه كما إن العبد أولى بالسيئات من الله»[١].

وبعبارة أخرى:

إن جملة هذه الأفعال هي أفعال من يلابس المادة أو الجسم أو النفس، وصدورها عن الباري لا بالملابسة، وإن كان ذلك الفعل لا ينفك عن الملابسة لتقوم هويته بتلك الملابسة، وتقوم نسبته إلى النفس أو المادة أو الجسم، فمن ثم تكون له نسبتان:

الأولى: نسبة إلى الباري بنحو الإبداع.

الثانية: نسبة إلى المخلوق بنحو التكوين أو التوليد.

و من ثم أشير إلى هاتين النسبتين في جملة من الآيات، وأسند الفعل إلى كل من الذات الإلهية، وإلى ذات المخلوقين، كما في:

- قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾[٢].
- وقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ﴾[٣].
- وقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾[٤].

فأسند تعالى التأييد إلى كل من الذات الإلهية وإلى روح القدس والجنود الغيبية، فدخل حرف «الباء» على مجرى الفيض وواسطة الإيجاد، وكذا في:

---

(١) السيد الخوئي. البيان في تفسير القرآن ص٤٥٥، عن الوافي باب الخير والقدر ج١ ص١١٩.

(٢) سورة البقرة (٢٥٣).

(٣) سورة المجادلة (٢٢).

(٤) سورة التوبة (٤٠).

▣ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[(١)].

▣ وكما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ﴾[(٢)].

▣ وقوله تعالى: ﴿حَتَّىَ إِذا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ﴾[(٣)].

▣ وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[(٤)].

▣ وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[(٥)].

فأسند الموت في هذه الآيات إلى ثلاث نسب، أي إلى كل من أعوان ملك الموت من الملائكة والرسل، وإلى ملك الموت نفسه، وإلى الذات الإلهية.

معنى نسبة الفعل بإسنادين لفاعلين بالطولية

وقد عبر عن التوفيق بين النسب السابقة بأنها على نحو النسب الطولية، وقد يوهم هذا التعبير ما مر من إسناد الفعل إلى الذات الإلهية من بعد، وإسناد الفعل من قرب إلى المخلوقين، وهذا معنى خاطئ للطولية.

بل المراد من الطولية تقوم كل من المخلوق وفعله بالذات الإلهية، فكل شيء قائم به، وكل حول وقوة به تعالى، أي أن المراد من الطولية افتقار الفعل والفاعل من المخلوقين إليه تعالى، والتقوم والانتهاء إليه.

وإن نسبة الفعل إلى ملك الموت وأعوانه ليس بنحو يستقل عن نسبة الفعل إلى

---

(١) سورة الأنبياء (٣٠).

(٢) سورة النحل (٢٨).

(٣) سورة الأنعام (٦١).

(٤) سورة السجدة (١١).

(٥) سورة الزمر (٤٢).

الباري، فنسبة الفعل إليهم ليست في عرض يغاير ويباين ويستقل عن ذات النسبة التي للباري تعالى، بل النسبة إليهم متقومة بتلك النسبة التي إليه تعالى.

ويضاف أن هناك مغايرة بين النسبتين في أن النسبة التي للملائكة ولملك الموت هي بمباشرة ملك الموت وأعوانه لنحو ما للمادة، ولارتباط معين بالروح، بخلاف نسبة الإماتة للباري تعالى، فإنها ليست بتعلق ببدن الميت ولا بمحاذاة روحية، بل بنسبة إبداعية خالية من شوب نقائص الاحتياج إلى المادة أو ما يتعلق بالمادة كالنفس.

ومن ثم ورد عنهم عليهم السلام أن معنى غضب الله أن يغضب أولياؤه، وأن ابتهاجه تعالى هو ابتهاج أوليائه المصطفين وهكذا، وإليك بعض الروايات:

في الكافي عن الحارث بن المغيرة النصري قال: سئل أبو عبد الله عليه السلام عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ فقال عليه السلام: «ما يقولون فيه؟ قلت: يقولون: يهلك كل شيء إلا وجه الله. فقال: سبحان الله لقد قالوا قولا عظيما، إنما عني بذلك وجه الله الذي يؤتى منه»[1].

وعن حمزة بن بزيع، عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ فقال: إن الله عز وجل لا يأسف كأسفنا ولكنه خلق أولياء لنفسه يأسفون ويرضون وهم مخلوقون مربوبون، فجعل رضاهم رضا نفسه وسخطهم سخط نفسه؛ لأنه جعلهم الدعاة إليه والأدلاء عليه، فلذلك صاروا كذلك، وليس أن ذلك يصل إلى خلقه، لكن هذا معنى ما قال من ذلك وقد قال: «من أهان لي وليا فقد بارزني بالمحاربة ودعاني إليها»، وقال: «من يطع الرسول فقد أطاع الله» وقال: «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم»، فكل هذا وشبهه على ما ذكرت لك،

---

(١) الكافي، الشيخ الكليني ج١ ص١٤٣.

وهكذا الرضا والغضب وغيرهما من الأشياء مما يشاكل ذلك، ولو كان يصل إلى الله الأسف والضجر، وهو الذي خلقهما وأنشأهما لجاز لقائل هذا أن يقول: إن الخالق يبيد يوما ما؛ لأنه إذا دخله الغضب والضجر دخله التغيير، وإذا دخله التغيير لم يؤمن عليه الإبادة، ثم لم يعرف المكون من المكوَّن، ولا القادر من المقدور عليه، ولا الخالق من المخلوق، تعالى الله عن هذا القول علوا كبيرا، بل هو الخالق للأشياء لا لحاجة، فإذا كان لا لحاجة استحال الحد والكيف فيه، فافهم إن شاء الله تعالى[1][2].

---

(١) الكافي. الشيخ الكليني ج ١ ص ١٤٤.

(٢) قال مولى محمد صالح المازندراني، شرح أصول الكافي ج ٤ ص ٢٢١.

(فقال: إن الله تعالى لا يأسف كأسفنا)؛ لأن الأسف من تغير المزاج وثوران القوة الغضبية وانفعال النفس عن المكاره الواردة عليها، وكل ذلك على الله محال (ولكنه خلق أولياء لنفسه) يحبهم ويحبونه ويذكرونه في جميع الحالات ولا يغفلون عنه في وقت من الأوقات (يأسفون ويرضون) أي يغضبون على من خالف حبيبهم ويحزنون به أشد الحزن ويرضون عمن أطاعه وتبع مرضاته (وهم مخلوقون مربوبون) خلقهم الله على أحسن الصور والهيئات ورباهم الى ما قدر لهم من الحالات والكمالات (فجعل رضاهم رضا نفسه وسخطهم سخط نفسه) لكمال القرب والاتصال بينه وبينهم حتى يظن الجهلة والغلاة أنهم هو، وليس كذلك لوجوب المغايرة بين الخالق والمخلوق والرب والمربوب، (لأنه جعلهم الدعاة اليه والأدلاء عليه) يدعون عباد الله بعد خوضهم في بحار الفتن والآفات وتوغلهم فيما اكتسبوه من الآثام والسيئات الى الإقرار بوجوده ووحدانيته في الإلهية وتفرده في الربوبية وتوحده باستحقاق الطاعة والعبادة، ويدلونهم على ذلك بالحجج البالغة والدلائل القاطعة والبراهين الواضحة (فلذلك صاروا كذلك) أي فلذلك المذكور من كونهم أولياء الله والدعاة اليه والأدلاء عليه صاروا بحيث يكون رضاهم رضاه وسخطهم سخطه حتى نسب سبحانه أسفهم بقوله: (فلما آسفونا) الى ذاته المقدسة عن الاتصاف به.

وعن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول الله عز وجل: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ قال: إن الله تعالى أعظم وأعز وأجل وأمنع من أن يظلم ولكنه خلطنا بنفسه، فجعل ظلمنا ظلمه، وولايتنا ولايته، حيث يقول: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني الأئمة منا.

ثم قال في موضع آخر: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1][2].

وكذلك ما ورد من الأفعال التي هي أليق بالمخلوقين من الخالق، فإن الله لا يعتريه ما يعتري النفوس والأرواح من الأحوال والعوارض، ولا يقتصر قصور العقول.

ومن ثم نخرج بقاعدة عامة أن جملة صفات الأفعال وأسمائها، والأفعال هي مخلوقات لا هي عين الخالق، ولا هي أمور تعتري ذاته، وإنما هي مخلوقات تقوم به صدوراً، وهذه المخلوقات لها نسب إلى ذوات مخلوقة، فتتحقق فيها نسبتان نسبة إلى ذات الخالق تعالى، ونسبة إلى تلك الذوات المخلوقة، إلا أن نسبتها إلى الذات الإلهية نسبة الصدور من الخالق، وما منه الوجود ينشأ ويبتدئ، ونسبتها إلى

---

(١) الكافي. الشيخ الكليني ج١ ص١٤٦.

(٢) حاشية معاني الأخبار. الشيخ الصدوق ص١٩.

قد عرفت أن الرضا والغضب وما ضاهاهما تعرض الإنسان إذ هو ذو نفس متعلقة بالبدن المادي وفي نسبتها اليه تعالى سر أفشاه تعالى بقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ وذلك أن بعض أفراد الإنسان كالنبي والولي يصل من العبودية الى مقام يندك إرادته في إرادة الله تعالى، فلا يريد إلا ما يريده سبحانه، وحيث أن تقوم الفعل الاختياري بالإرادة فالأفعال التي تصدر عنه وإن كانت قائمة به ومسندة اليه بوجه لكنها يصح إسنادها الى الله سبحانه لكون إرادته هي الأصيلة المتبوعة.

تلك الذوات ما به الوجود، أي ما يجري به الفيض الإلهي ويظهر بصورته ويلابسه، أي يلابس الفعل الإلهي تلك الذوات المخلوقة.

ومن ذلك يتبين أن الارتباط بالذات الإلهية وعبر فعله تعالى والذي يكون اسماً وصفة ونفس تلك الأفعال هي ذوات مخلوقة شريفة، وهي آيات دالة وكاشفة عن العظمة الإلهية، وعظمة الكمال الذاتي.

وبذلك يظهر إن الوصول والزلفى والتوجه إلى الذات الإلهية لا يقدر عليه المخلوق إلا عبر التوجه بتلك الآيات والذوات الشريفة المخلوقة، فهي وسائل للمعرفة الإلهية والقربى والزلفى للحضرة الإلهية.

فلا سبيل إلى التوحيد في الذات والصفات والأفعال بالنحو الذي ذكرناه إلا بتقرير العظمة الإلهية والكمال اللامتناهي، وهو إنما يتقرر بتقرير إن الذات الإلهية أعظم من صفات الفعل ومن أسمائها وأفعالها، وما هذه الأمور إلا آيات وعلامات على عظمة الـذات الإلهية.

لأن هذه الأمور حيث اشتملت على نسب خلقية، فلا محال أن تكون محدودة، فلا تكون عين الخالق، بل مخلوقة دالة عليه، ووسيلة إلى معرفة عظمته، وأنه فوقها وهي دونه، ومن ثم هي متكثرة لمحدوديتها، وهو الواحد الأحد الذي ليس له حد يكثره.

الفصل الثاني

▣ تحليل مفاد وأبعاد يا محمد ويا علي

فهذا اللفظ الحاكي للنداء والتـوجه هـو بـنفسه عـبادة راجـحة أصيلة من جذر تعاليم الدين، فهو ذكر صلاتي عظيم ومـن أحكـامه الفقهية الثابتة بطلان صلاة كل مسلم دان بدين الإسلام إن لم يأت به، فكيف بما هو خارج الصلاة!!



المقام الأول

مقام النداء

فيكون التركيز التربوي في الصلاة على التوجه لرسول الله ﷺ ونداءه ومخاطبته، ومخاطبة عباد الله الصالحين تجذير لهذه السنة الدينية الأصيلة لدوام التوجه والاتصال برسول الله ﷺ وعدم الانقطاع عنه، وأن بالتوجه إليه يتوجه إلى الله تعالى.

إن قول «يا محمد» أو «يا علي» في التركيب اللغوي يشتمل على «يا» النداء والمناداة، ويتضمن في معناه توجه من المنادي إلى المنادى، كما أنها تشتمل على فعل التنبيه، أي جلب التفات المنادى للمنادي، فهي في قوام معناها توجه وخطاب يوطأ لما بعده من الكلام، وهو في نفسه بهذا القدر ليس إلا توجه وخطاب ونداء ونحو زيارة لفظية ومعنوية من بعد، كما في قول المصلي المسلم في داخل الصلاة: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته» فهو في لب معناه زيارة وتوجه ونداء، فإن عبارة «أيا» من أدوات النداء مثلها مثل «يا» النداء؛ لأن النداء قد يصاغ بـ«يا» وقد يصاغ بـ«أيا» ونحوه.

فهذا اللفظ الحاكي للنداء والتوجه هو بنفسه عبادة راجحة أصيلة من جذر تعاليم الدين، فهو ذكر صلاتي عظيم، ومن أحكامه الفقهية الثابتة بطلان صلاة كل مسلم دان بدين الإسلام إن لم يأت به فكيف بما هو خارج الصلاة !!

وكذلك من أذكار الصلاة الشريفة قول المصلي: «السلام علينا وعلى عباد الله

الصالحين» فإنه توجه وخطاب إلى عباد الله الصالحين، وتكرار ذلك الخطاب والذكر في الخمس الصلوات يمثل تربية من الدين الحنيف للمسلم على التوجه والنداء اليومي المكرر لرسول الله ﷺ ولعباد الله الصالحين أي المصطفين من حجج الله تعالى.

هذا فضلا عما لو أتى العابد بالنوافل المرتبة وغيرها، فإن هذا الذكر والتوجه والنداء سيتكرر عشرات المرات.

فيكون التركيز التربوي في الصلاة على التوجه لرسول الله ﷺ وندائه ومخاطبته ومخاطبة عباد الله الصالحين تجذير لهذه السنة الدينية الأصيلة لدوام التوجه والاتصال برسول الله ﷺ وعدم الانقطاع عنه، وأن بالتوجه إليه يتوجه إلى الله تعالى، كما أن بدوام التوجه إلى الكعبة وهي أحجار يحصل التوجه إلى الباري تعالى، فقد جعل الله في سورة البقرة تولية الوجه شطر المسجد الحرام هو من التولية لوجه الله تعالى، فإذا كان المسجد الحرام استحق اسم وجه الله فكيف بخاتم الأنبياء ﷺ وخاتم الأوصياء ؑ؟!

وقد ندب القرآن الكريم إلى التوجه إليه فقال الله تعالى آمرا الناس: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[1].

وقال تعالى في صفة المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[2].

فالذي ينقطع عن التوجه برسول الله ﷺ فقد أخذ بسنة إبليس في استكباره عن

---

(١) سورة النساء (٦٤).

(٢) سورة المنافقون (٥).

التوجه بآدم الذي هو خليفة الله في أرضه.

وليس وراء التحسس والإثارة على هذا الذكر الشريف «يا محمد» و «يا علي»من ثمرة إلا قطع الصلة والاتصال والارتباط والتوجه للنبي ﷺ والوصي ﵇، مع أن هذا الذكر درس في الصلاة التي هي عمود الدين أقيم لبيان أن الصلاة لا تقبل من دون نداء النبي ﷺ والتوجه إليه والزيارة له ولو عن بعد، فضمنت الصلاة زيارة النبي ﷺ لبيان أن الصلاة كما هي معراج المؤمن هي أيضا حضور وتوجه إلى النبي ﷺ وزيارة له، وأنها لا تصح إلا بذلك كما لم تصح عبادة إبليس عندما رفض التوجه بآدم ﵇ في عبادته، فكان جزاؤه أن طرد عن باب رحمة الله مذؤوما مدحورا رجيما، ووجبت عليه اللعنة الإلهية إلى يوم الدين، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾[1].

وبضم قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾[2] إلى الآية السابقة نفهم أن الذي لا يتوجه إلى رسل الله وحججه ﵈ لا تفتح له أبواب السماء لصعود عبادته ودعائه، وهذا ما يفسر لنا سر تركيز الدين على زيارة النبي ﷺ وندائه والتخاطب معه والتوجه إليه ولو من بعد الديار في كل صلاة، كي تقبل وتصح وترتفع وتفتح لها أبواب السماء، بل لم يقتصر على زيارة النبي في الصلاة اليومية مفروضة ومندوبة، وإنما ضمنت زيارة بقية الحجج ﵈ الذين هم عباد الله الصالحين، كما نص على ذلك القرآن الكريم حيث وصف جملة من الأنبياء بمصطلح العبد الصالح.

---

(١) سورة الأعراف (٤٠).

(٢) سورة المؤمنن (٥٠).

بل ذهب الصدوق في الفقيه والمقنع والهداية، والنراقي في المستند، والنوري في المستدرك، والمفيد في المقنعة، والطوسي في النهاية، والحلبي في الكافي، وسلار في المراسم، وابن براج في المهذب، وغيرهم، إلى هذه الصورة من التسليم الصلاتي، وصورته اللفظية كما في الفقيه: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام على محمد بن عبدالله خاتم النبيين، السلام على الأئمة الراشدين المهديين، السلام على جميع أنبياء الله وملائكته ورسله، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»(١).

وأما صورة التسليم بالكيفية المتعارفة وهي: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» فعليها عامة المذاهب الإسلامية بشي يسير من الاختلاف.

ونضيف هنا أن النداء للرسول والأئمة عليهم السلام ذكر عبادي متواتر في الزيارات المأثورة للنبي صلى الله عليه وآله عند الفريقين والمتواتر من زيارات أئمة أهل البيت عليهم السلام.

فأما من طرق العامة فقد جاء في كتاب المغني:

ويروى عن العتبي قال: كنت جالسا عند قبر النبي صلى الله عليه وآله فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾ وقد جئتك مستغفرا لذنبي مستشفعا بك إلى ربي. ثم أنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه ... فطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الإعرابي، فحملتني عيني فنمت فرأيت النبي صلى الله عليه وآله في النوم فقال: يا عتبي إلحق الإعرابي فبشره أن الله قد غفر له.

ويستحب لمن دخل المسجد أن يقدم رجله اليمنى ثم يقول بسم الله والصلاة على رسول الله اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد واغفر لي وافتح لي أبواب

(١) الشيخ الصدوق، الفقيه ج ١، باب وصف الصلاة وأدب المصلي حديث ٩٤٤.

رحمتك وإذا خرج قال مثل ذلك، وقال وافتح لي أبواب فضلك، لما روي عن فاطمة بنت رسول اللهﷺ ورضي الله عنها أن رسول اللهﷺ علمها أن تقول ذلك إذا دخلت المسجد.

ثم تأتي القبر فتولي ظهرك القبلة وتستقبل وسطه وتقول السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام عليك يا نبي الله وخيرته من خلقه، أشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمد عبده ورسوله، أشهد أنك قد بلغت رسالات ربك، ونصحت لأمتك، ودعوت إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وعبدت الله حتى أتاك اليقين، فصلى الله عليك كثيرا كما يحب ربنا ويرضى، اللهم اجز عنا نبينا أفضل ما جزيت أحدا من النبيين والمرسلين، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته يغبطه به الأولون والآخرون، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم إنك قلت وقولك الحق: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴾ وقد أتيتك مستغفرا من ذنوبي، مستشفعا بك إلى ربي، فاسلك يا رب أن توجب لي المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه في حياته، اللهم اجعله أول الشافعين، وانجح السائلين، وأكرم الآخرين والأولين، برحمتك يا أرحم الراحمين. ثم يدعو لوالديه ولإخوانه والمسلمين أجمعين...[1].

فترى في رواياتهم يبنون على مشروعية نداء رسول اللهﷺ ورجحانه، وأنه نمط من الخطاب والزيارة للنبيﷺ، بل يشرعونه لقادتهم ولمن يأتمون به.

---

(١) عبدالله بن قدامة الحنبلي ج٣ ص٥٨٨، طبع الكتاب على نفقة عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل إمام نجد وملحقاتها، وقد قدم لطبعة الكتاب صاحب تفسير المنار محمد رشيد رضا. ونظيره موجود في كتاب الفقه على المذاهب الأربعة للجزيري في ج١ ص٥٩٩.

نداء الرسول ﷺ في العبادات نوع توسل

فيجد المتتبع في مصادر العامة تظافر الكلمات على مشروعية النداء بـ «يا رسول الله» أو «يا محمد» أو «يا نبي الله»، وأن النداء نحو خطاب وزيارة وتوسل واستغاثة واستشفاع، وأنه من الأذكار الدينية الراجحة، ولا وسوسة في رجحانه وعباديته.

ثم إن مشروعية النداء ورجحانه للنبي ﷺ وأهل بيته ﷺ يفيد رجحان التوجه للنبي ﷺ وأنه وسيلة لعبادة الله، لأن كل شيء يؤتى به في الصلاة لابد أن يكون عبادة.

فهذا التوجه إلى النبي ﷺ أثناء الصلاة لا بد أن يكون مؤداه عبادة الله، لاسيما على المقولة القائلة بأن أجزاء الصلاة عبادتها ذاتية أي مما يمكن أن يتقرب به إلى الله ويتعبد به، وكذلك التوجه إلى عباد الله الصالحين.

وهذه الضرورة التي يمارسها كل مسلم من أبناء جميع المذاهب الإسلامية باستقلالها وجه مستقل برهاني، وضرورة الشريعة على عبادية التوسل، وأنه من وجوه العبادة الكبرى التي يمارسها كل مسلم

المقام الثاني
مقام الاستغاثة

يظهر أن أدلة الشفاعة القرآنية للرسول وأهل بيته عليهم السلام هي بنفسها مقتضية لتسويغ بل الحث على طلب الحوائج من النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام لأن دأب المحتاجين على سؤال حوائجهم من الشفعاء والتوجه بطلبها إليهم.

إذا أريد من «يا محمد» و «يا علي» الاستغاثة، وهو بلحاظ متبوع الذي يذكر بعد النداء والمنادى من الطلب والتوسل في قضاء الحاجات، أو بتقدير نستغيث بك «يا محمد» و «يا علي».

صور الاستغاثة بأهل البيت عليهم السلام

وحينئذ فللتوسل والاستغاثة بهم بهذا المعنى صور عديدة منها:

الصورة الأولى:

أن يقول الداعي المتوسل يا رسول الله أو يا ولي الله ادع الله أن يرزقني، أو يقضي حاجتي وهكذا.

وقد نص القرآن الكريم على كونه سنة إلهية، كما في قوله تعالى على لسان أبناء يعقوب: ﴿قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ

رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(١).

وقد ذكر في ذيل السورة قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٢).

فمضافا إلى تقرير النبي المعصوم ﷺ لطلب أبنائه، كذلك قد قرر القرآن الكريم في شريعة القرآن هذا النمط.

وهذا يدل على سنة إلهية في ناموس الدعاء، وأنه من آداب الدعاء التوجه بالطلب إلى ولي الله لأن يطلب الولي بما له من وجاهة عند الله حاجة الداعي، وهذا نظير مطابق لما يحدث من استغاثة بالشفيع والوسيط والوجيه لأن يطلب ويتشفع في قضاء الحاجة، فيكون الذي يتوجه بالطلب مباشرة هو الشفيع دون المشفوع له، فهذا الرسم المرسوم في كيفية الدعاء من الآداب التي أكد عليها القرآن الكريم.

ومنه يعلم أن إنكار ذلك محاددة للقرآن الكريم.

الصورة الثانية:

أن يقول الداعي أسألك يا الله بحق رسولك ونبيك ﷺ، أو وليك أن ترزقني أو أن تقضي حاجتي أو أن ترفع كربتي، أو يا الله أتوجه إليك بوجاهة نبيك أو وليك عليه السلام، وقد قامت روايات الفريقين على مشروعية ذلك، فمن طرق السنة ما ذكره في الأذكار النووية:

وروينا في كتاب الترمذي، وابن ماجه عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه، أن رجلا ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله تعالى أن يعافيني، قال: «إن شئت

(١) سورة يوسف (٩٧، ٩٨).

(٢) سورة يوسف (١١١).

دعوت، وأن شئت صبرت فهو خير لك» قال: فادعه، فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمدﷺ نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي، اللهم فشفعه في»[١].

وقال ابن عابدين في حاشية رد المحتار: ج ٦ ص٧١٦: نعم ذكر العلامة المناوي في حديث: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة، عن العز ابن عبد السلام: أنه ينبغي كونه مقصورا على النبيﷺ وأن لا يقسم على الله بغيره، وأن يكون من خصائصه. انتهى

وقد قامت الضرورة بأن هذا النمط نحو من التوسل والتشفع الراجح وإنما الكلام في تعيين الأرجح في الصورتين والصور الآتية.

أقول: وأودنا كلامه وأن لم نوافقه في الحصر، بل الخصيصة والحصر هي في امتياز سيد الأنبياء بالشفاعة الكبرى لا في أصل الشفاعة، كيف وقد نص القرآن الكريم على استشفاع أبناء يعقوب به واستشفاع بني إسرائيل بموسى عليه السلام في مواطن عديدة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾[٣].

وغيرها من الموارد القرآنية إلا أن الغرض من ذكر كلامه هو تقريره للتوجه بالنبيﷺ في الدعاء.

---

(١) الأذكار النووية. ليحيى بن شرف النووي ص ١٨٤. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) سورة البقرة (٦١).

(٣) سورة الأعراف (١٣٤).

الصورة الثالثة

أن يقول المستغيث يا رسول الله أو يا ولي الله أسألك قضاء الحاجة الكذائية أو يا رسول ويا ولي الله أغثني، بمعنى أن يكون الطلب من النبي أو الولي عليه السلام لينجز الأمر على يديه وبإرادته باعتباره محل إرادة الله وموضع مشيئته، وليس المعنى والاعتقاد أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أو الولي المعصوم عليه السلام يملك إنجاز الفعل بنفسه على وجه الاستقلال والاستغناء عن اقدار الله تعالى.

شواهد الصورة الثالثة

وقد نص القرآن الكريم على الصورة الثالثة في العديد من الآيات منها:

الشاهد الأول

في شأن الرجل الذي استعان بموسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلان هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾(١).

وتقريب الآية من وجهين

الجهة الأولى: إن الآية تخبر عن وقوع حقيقة الاستغاثة بما لها من معنى وحقيقة من المستغيث، وأن المستشفع به كان النبي موسى عليه السلام، فحقيقة ما وقع من الطلب هو استغاثة حقيقية من الرجل المظلوم إلى النبي موسى عليه السلام، وأن النبي موسى عليه السلام قد أجابه ولبى استغاثته، مما يفيد كون الاستغاثة بالأنبياء عليهم السلام من السنن بعد تلبية الاستغاثة من النبي المرسل من أولي العزم.

---

(١) سورة القصص (١٥).

الجهة الثانية: تقرير القرآن الكريم لكون ما وقع استغاثة وأنه قد تجاوب مع هذا الفعل من النبي المرسل.

الشاهد الثاني

قال تعالى: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ واني عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فإنما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فإن رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ * قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ * فَلَمَّا جَاءتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾(١).

فإن الطلب متعلق بأمر غيبي أي ما تتعلق به القدرة الغيبية، وهو المجي بالعرش قبل أن يأتي قوم سبأ وملكتهم إلى سليمان، والذي سأل ذلك الطلب هو نبي الله سليمان ﷺ، والمسؤول والمطلوب الذي وجه إليه الطلب هو الملأ الحاضرين في مجلسه، فهو سؤال متعلق بالحاجة من الغيب لكنه قد طلب من أولياء الله تعالى، أي من أعطاهم الله القدرة التكوينية والولاية التكوينية على الأمور المغيبة.

وقد وصف آصف بن برخيا بأن لديه علم من الكتاب، وبتوسطه استطاع أن يصدر هذا الفعل ذو القدرة الغيبية، والسائل هو نبي الله سليمان ﷺ، مع أنه أعلى درجة من آصف بن برخيا وصي سليمان ﷺ والإمام بعده.

فإذا كان هذا الفعل وهو طلب الحاجة قد صدر من نبي مرسل فهو سنة يستن بها، لاسيما بأن هذه السنة قد أقيمت في مورد الطلب ممن نعت بصفة القدرة اللدنية أي الغيبية المعطاة من الله تعالى.

---

(١) سورة النمل (٣٨، ٤٢).

فهذا يفيد أن السنة الإلهية في طلب الأمور ولو كانت غيبية من الأولياء الذين يعطون القدرة والولاية التكوينية من الله وطلب الحاجيات منهم وإن كانت ذات منشأ غيبي هو من شرعة دين الله وأوليائه، فإذا كان هذا حال طلب الحاجة والأمر ممن وصف أنه عنده علم من الكتاب أي بعض من الكتاب، فكيف حال طلب الحاجة ممن وصف بأنه عنده علم الكتاب كما هو الحال في شأن علي بن أبي طالب عليه السلام حيث قال تعالى في نعته: ﴿كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[1].

حيث إن سورة الرعد مكية، ولم يكن قد أسلم في مكة من أهل الكتاب أحد، والاحتجاج لعلي عليه السلام لمقام سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله إنما هو بلحاظ هذا الوصف اللدني الغيبي الذي آتاه الله، كما وصف بهذا الوصف أهل البيت عليهم السلام أيضا، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2]. والمطهرون نعت لأهل البيت عليهم السلام كما في آية التطهير، فهم الذين يطلعون على الكتاب كله.

الشاهد الثالث

وقد وصفت قدرة الكتاب العزيز في سورة الرعد التي هي نفس السورة التي وصفت عليا عليه السلام بأن له علم الكتاب كله، ذكرت هذه السورة أن القرآن الكريم يحيى به الموتى، وتقطع به الأرض، وتسير به الجبال، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أو قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أو كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾[3].

---

(١) سورة الرعد (٤٣).

(٢) سورة الواقعة (٧٧، ٨٠).

(٣) سورة الرعد (٣١).

سبب النـزول

قال الشيخ الطوسي: هذه الآية تتضمن وصف القرآن بغاية ما يمكن من علو المنـزلة وبلوغه أعلى طبقات الجلال؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ من مواضعها وقلعت من أماكنها لعظم محله وجلالة قدره.

والتسيير تصيير الشي بحيث يسير، تقول سار يسير سيرا، وسيره غيره تسييرا. ﴿أو قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ﴾ لمثل ذلك، والتقطيع تكثير القطع، قطعه قطعة، وقطعه تقطيعا، والقطع فصل المتصل.

﴿أو كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ لمثل ذلك حتى يعيشوا أو يحيوا، تقول: كلمه كلاما، وتكلم تكلما، والكلام ما انتظم من حرفين فصاعدا من الحروف المعقولة إذا وقع ممن يصح منه أو من قبيله لإفادة، و ﴿الْمَوْتَى﴾ جمع ميت مثل صريع وصرعى، وجريح وجرحى.

ولم يجئ جواب ﴿لَوْ﴾ لدلالة الكلام عليه، وتقديره: لكان هذا القرآن لعظم محله في نفسه وجلالة قدره.

وكان سبب ذلك أنهم سألوا النبيﷺ أن يسير عنهم جبال مكة لتتسع عليهم المواضع، فأنزل الله تعالى الآية، وبين أنه لو سيرت الجبال بكلام، لسيرت بهذا القرآن لعظم مرتبته وجلالة قدره[1].

وفي الكافي عن أبي الحسن الأول عليه السلام قال: قلت له: جعلت فداك أخبرني عن النبيﷺ ورث النبيين كلهم؟ قال: «نعم، قلت: من لدن آدم حتى انتهى إلى نفسه؟ قال: «ما بعث الله نبيا إلا ومحمدﷺ أعلم منه» قال: قلت: إن عيسى بن مريم كان يحيي الموتى بإذن الله، قال: «صدقت وسليمان بن داود كان يفهم منطق الطير، وكان رسول اللهﷺ يقدر على هذه المنازل، قال: فقال: إن سليمان بن داود قال للهدهد حين فقده وشك في

---

(١) التبيان في تفسير القرآن. الشيخ الطوسي ج٦ ص٢٥٣.

أمره: ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَائِبِينَ﴾ حين فقده، فغضب عليه فقال: ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ وإنما غضب لأنه كان يدله على الماء، فهذا وهو طائر قد أعطي ما لم يعط سليمان وقد كانت الريح والنمل والإنس والجن والشياطين والمردة له طائعين، ولم يكن يعرف الماء تحت الهواء، وكان الطير يعرفه وأن الله يقول في كتابه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أو قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أو كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ وقد ورثنا نحن هذا القرآن الذي فيه ما تسير به الجبال وتقطع به البلدان، وتحيى به الموتى، ونحن نعرف الماء تحت الهواء، وأن في كتاب الله لآيات ما يراد بها أمر إلا أن يأذن الله به مع ما قد يأذن الله مما كتبه الماضون، جعله الله لنا في أم الكتاب، إن الله يقول: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاء وَالأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ ثم قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَابَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ فنحن الذين اصطفانا الله عز وجل وأورثنا هذا الذي فيه تبيان كل شيء»[1].

فأثبتت الآية الكريمة والرواية الشريفة أن الذي يعلم بحقيقة الكتاب والقرآن يتمكن من تسيير الجبال، وتقطيع الأرض، وإحياء الموتى.

وإذا كانت هذه القدرة معطاة من الله لدنيا لصاحب علم الكتاب، فسؤال الحاجة منه الحاجة المشمولة للقدرة اللدنية التي أعطيها أو وهب إياها هي من السنن في الشريعة الإلهية على حذو فعل النبي سليمان ﷺ.

ومن ثم لم يخطئ الله في سورة الرعد طلب الكافرين من النبي محمد ﷺ إحياء الموتى، وتقطيع الأرض، وتسيير الجبال لتوسعة فجاج مكة، وبسط أرضها للزراعة كأرض الشام وإحياء أسلافهم.

لم يخطئهم في طلبهم هذا من النبي ﷺ، بل أقر أن هذا الطلب من متناول قدرته لعلمه بحقيقة القرآن، بل أنكر عليهم عنادهم ولجاجهم، وأن سؤالهم اقتراحي لا

(١) أصول الكافي. الشيخ الكليني ج ١ ص٢٢٦.

بداعي الجد والصدق، ولا لأجل طلب المعرفة والإيمان.

فهذه الآية ثالثة الموارد القرآنية التي يتم طلب حاجة غيبية فيها من الأنبياء والرسل والأوصياء عليهم السلام، لاسيما مثل إحياء الموتى، وفتح باب رغيف العيش وبركات الأرض.

لا سيما وأن الآية الثالثة تثبت ذلك بنحو الدوام لمن عنده علم بحقيقة الكتاب، لأنها تبين أن هذه القدرة لا لظرف مؤقت لإبراز معجزة ثم ينتهي الأمد، بل هذه القدرة ثابتة لمن عنده علم الكتاب وحقيقة القرآن بسبب هذه الصفة.

وكذلك الحال في الآية السابقة التي تثبت القدرة على جلب العرش بطي الأرض، فقد أثبتها القرآن الكريم لآصف بن برخيا بسبب أنه عنده علم ببعض الكتاب، أي أن هذه القدرة ثابتة له بسبب الوصف الذي يتحلى به.

ولا بد من التنبيه إلى أن المراد من العلم بالكتاب وحقيقة القرآن ليس هو العلم بظاهر المصحف الشريف، بل هو العلم بحقيقة القرآن في اللوح المحفوظ والكتاب المكنون، والكتاب المبين الذي يستطر فيه كل شيء.

الشاهد الرابع

قال الله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ﴾[2].

ففي الآيتين إسناد إيتاء الفضل إلى كل من الله تعالى ثم لرسوله ﷺ، كما فيها إسناد الغنى إلى الله ثم إلى رسوله ﷺ، وذلك لأن الإفضال والإغناء من الرسول ﷺ هو في حقيقته إفضال وإغناء من الله تعالى بجعل رسوله مجرى لفيضه تعالى[3].

فحقيقة الإفضال والإغناء واحدة، وهذا مما يقضي بأن طلب الفضل والغنى من الرسول ﷺ هو طلب للغناء والفضل من قبل الله تعالى، وأن الاستغاثة بالرسول ﷺ هو عين طلب المدد الإلهي.

وبعبارة أخرى:

إن إسناد الله الإغناء للرسول ﷺ بعدما أسند الإغناء إلى الذات المقدسة هـو بنفسه باعث ومحرك للعباد على طلب الحوائج من الرسول ﷺ والتوجه إليه، كيف

---

(١) سورة التوبة (٧٤).

(٢) سورة التوبة (٥٩).

(٣) ومن الشواهد على هذه الصورة ما في بحار الأنوار، العلامة المجلسي ج١٠ ص٢١٦:

كنز الفوائد للكراجكي: ذكروا أن أبا حنيفة أكل طعاماً مع الإمام الصادق جعفر بن محمد عليهما الصلاة والسلام فلما رفع الصادق عليه السلام يده من أكله قال: الحمدلله رب العالمين، اللهم هذا منك ومن رسولك ﷺ، فقال أبو حنيفة: يا أبا عبدالله أجعلت مع الله شريكاً؟! فقال عليه السلام له: ويلك إن الله تبارك يقول في كتابه: ﴿وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ ويقول عز وجل في موضع آخر: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ﴾ فقال أبو حنيفة: والله لكأني ما قرأتهما قط من كتاب الله ولا سمعتهما إلا في هذا الوقت. فقال أبو عبدالله عليه السلام بلى قد قرأتهما وسمعتهما ولكن الله تعالى أنزل فيك وفي أشباهك: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. وراجع وسائل الشيعة (مؤسسة آل البيت عليهم السلام)، الحر العاملي ج٤٢ ص٣٥١.

لا وقد جعله بابا لرحمته وشفيعا لهم !!

ومن ذلك يظهر أن أدلة الشفاعة القرآنية للرسول وأهل بيته عليهم السلام هي بـنفسها مقتضية لتسويغ بل الحث على طلب الحوائج من النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام؛ لأن دأب المحتاجين على سؤال حوائجهم من الشفعاء والتوجه بطلبها إليهم[1].

---

(١) أقول: يمكن بيان ضورورة التوسل بالولي بما يذكره أهل المعنى من أن كل عبادة إلهية قد أنزلت من أفقها المجرد وحقيقتها المعنوية الى مواطن الصورة، بهدف جعل المعنى الباطني متجسداً وماثلاً أمام الداعي في كل أحواله، فكما أن الصلاة بصورتها الخارجية تمثيل مادي لنعروج الروحي ال يالله تعالى، وكما أن الصوم الفقهي هيئة مظهرية تجسد صوم الباطن عن التصور الأرضي النازل، وكما أن مناسك الحج تصوير عيني لنحج والقصد القنبي لمنازل القـرب الإلهي و... كذلك التوجه والقصد الى أسماء الله التكوينية واابوابه الخنقية ودلائنه وآياته البشرية تمثيل وتجسيد لنسفر البامني والقصد المعنوي والتوجه الروحاني اليه تعالى عنى غرار ما صورناه في سائر العبادات.
قال السيد العلامة: فلا معنى لإنكار بعضهم رفع اليدين بالدعاء معنلاً بأنه من التجسيم إذ رفع اليدين الى السماء إيماء الى أنه تعالى فيها. تعالى عن ذلك وتقدس. وهو قول فاسد، فإن حقيقة جميع العبادات البدنية هي تنزيل المعنى القنبي والتوجه الباطني الى موطن الصورة، وإظهار الحقائق المتعالية عن المادة في قالب التجسم، كما هو ظاهر فى الصلاة والصوم والحج وغير ذلك وأجزائها وشرائطها، ولولا ذلك لم يستقم أمر العبادة البدنية ومنها الدعاء، وهو تمثيل التوجه القنبي والمسألة الباطنية بمثل السؤال الذي نعهده فيما بيننا من سؤال الفقير المسكين الداني من الغني المتعزز العالي حيث يرفع يديه بالبسط، ويسأل حاجته بالذلة والضراعة. تفسير الميزان، السيد الطباطبائي ج ٢ ص٣٨.

وفي الحقيقة أن هذه الجدلية والاختلاف أشبه بالخلاف الذي وقع في فصل الدين عن السياسة، وفصل الدين عن نظام الحكم السياسي، لكنه في مقام فصل الدين عن نظام التشريع، والقول المتقدم في صدر الكلام ناشئا في الحقيقة من فصل الدين عن نظام عمارة وصناعة الطبيعة وفصل النظام الكوني والطبيعي عن نظام الآخرة.

الاستغاثة بهمعليهم السلام تستوعب حاجات الروح والبدن

قال البعض: مشاهد الأئمةعليهم السلام هل هي مواطن علاج روحي أو مواطن علاج بدني؟

وكان جوابه: إن ذلك يعرف من الجواب على سؤال آخر وهو: هل أن بيوت الأئمة عليهم السلام مواطن لمراجعة مرضى الروح أو مواطن لمراجعة مرضى البدن؟ وأجاب أن بيوت الأئمة والأنبياء عليهم السلام لم يرد لها أصلا أن تكون مستشفيات لعيادة مرضى البدن، وأن بيوتهم قبل مشاهدهم كانت عيادات لطب الأرواح، فلا تقصدوا الإمام علي أنه صاحب عيادة بدنية !!

والتعليق على ذلك في نقاط:

النقطة الأولى: أصول عمارة الأرض منبثقة من الأولياءعليهم السلام

إن منع وساطة الأئمةعليهم السلام لفيض الله تعالى، وكذلك حصر آثار التوسل عند قبورهم بالأثر الروحي وغيرها من المسائل في هذا المجال، تنم عن قلة إحاطة بمقامات الأئمةعليهم السلام عند الله تعالى، وتنبأ عن عدم اطلاع بما أودعه الله فيهم من واسطة عامة دينية وتكوينية في هذا الوجود.

والذي ينبغي أن يقال هنا تأسيسا على المعارف الإلهية:

إن أصول عمارة الأرض كلها بنصوص الأديان السماوية فضلا عن روايات المسلمين، منبثقة من الأنبياء والأولياءعليهم السلام، نعم ينبغي جعل الحوائج الأخروية

الراجعة للجانب الروحي والشق المعنوي في الإنسان أهم في نظر الداعي والمتوسل من الحاجيات الدنيوية؛ لأن كمالات الروح أعظم وأهم وأشرف من كمالات البدن، لاسيما المعرفة بالله تعالى والرسول والأئمة من عترته ﷺ، فإنها أعظم منالا وبغية تسير بالإنسان إلى السعادة الأبدية، لكن ذلك لا ينافي صحة الرجوع إليهم من أجل إصلاح شؤون البدن الدنيوي.

النقطة الثانية:

ديدن سيرة الرواة على عموم مراجعاتهم للأئمة عليهم السلام

أرجع المستشكل الحكم في المسألة إلى دراسة الحالة العملية لبيوت الأئمة عليهم السلام، وقال لم يرد أصلا لها أن تكون محطاً للمراجعات البدنية، وهذا غريب جدا؛ وذلك لمخالفته لارتكاز المؤمنين في مراجعاتهم للأئمة عليهم السلام، ومخالفته للنصوص الهائلة التي أثبتت في المجاميع الروائية.

فإن المرتكز في أذهان الناس هو جامعية حامل الدين لشؤون الدنيا والآخرة، ومن ثم فلدى الفريقين روايات متواترة في أسئلة الرواة من النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام عن طبابة البدن كما هي عن طبابة الروح.

ونحيل القارئ على الروايات المستفيضة بل المتواترة المثبتة في كتب الفريقين ومنها:

▣ **ما في الكافي:** عن علي، عن أبيه، عن النوفلي، عن السكوني، عن أبي عبد الله، عن آبائه عليهم السلام قال: شكا رجل إلى النبي ﷺ وجعا في صدره فقال ﷺ: استشف بالقرآن فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾[(١)].

▣ **ما ورد في كتب العامة:** كما في خبر أبي داود في سننه عن سلمى خادم

---

(١) الكافي. الشيخ الكليني ج٢ ص٦٠٠.

رسول الله ﷺ: «ما كان أحد يشتكي إلى رسول الله ﷺ وجعا في رأسه إلا قال: احتجم، ولا وجعا في رجليه إلا قال: خضبهما، وزاد البخاري في تاريخه بالحناء»(١).

▫ **وعن علي بن النعمان قال:** قلت للرضا عليه السلام: «إن لي أبنا، وبه الثؤلول، وقد اغتممت بأمره، فقال: خذ لكل ثؤلولة سبع شعيرات، وأقرأ على كل شعيرة سبع مرات أول سورة الواقعة، إلى قوله: ﴿هَبَاءً مُّنبَثًّا﴾ وقوله عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ...﴾ إلى قوله ﴿وَلاَ أَمْتاً﴾ ثم خذ الشعير، شعيرة شعيرة، فامسح بها على الثؤلول، ثم صيرها في خرقة جديدة واربط على الخرقة حجرا وألقها في كنيف. قال: ففعلت، فنظرت والله يوم السابع أو الثامن وهو مثل راحتي. قال: وينبغي أن يعالج في محاق الشهر، فانه يذهب إن شاء الله تعالى»(٢).

النقطة الثالثة:

عموم مرجعيتهم عليهم السلام في العلوم والشؤون المختلفة

قصر المستشكل السعي إلى المشاهد المشرفة في قصد المداواة الروحية والمعنوية، حملا على ما هو الحال في البيوت المشرفة، ولكن كما تبين أن بيوتهم كانت مقصدا بالنحو المطلق ولكل المهمات فإن قبورهم كذلك ينبغي أن تقصد في كل الحاجيات؛ لأنها مواطن استجابة الدعاء بالتوسل بهم في كل الشؤون الأخروية والدنيوية الروحية والبدنية، وقد ورد استحباب الدعاء والحث عليه بأن يدعو الإنسان ويطلب الحاجة من ربه صغيرة وكبيرة، وسر ذلك معنوي توحيدي كي يستشعر الإنسان الفقر والحاجة إلى الله في كل شيء، وأن جميع النعم هي منه تعالى.

---

(١) حواشي الشرواني ج ٤ ص٥٩.

(٢) الدعوات، قطب الدين الراوندي ص ١٩٩.

وهذا المعتقد ليس مجرد فتوى عقائدية فاقدة للدليل، وإنما هناك روايات متعددة تثبت ذلك ومن خلال السيرة العملية القائمة في حياة الأئمة عليهم السلام:

▣ **الرواية الواردة في الكافي**: عدة من أصحابنا، عن سهل بن زياد، عن أبي هاشم الجعفري قال: بعث إلي أبو الحسن عليه السلام في مرضه، وإلى محمد ابن حمزة فسبقني إليه محمد بن حمزة وأخبرني محمد ما زال يقول: ابعثوا إلى الحير، ابعثوا إلى الحير، فقلت لمحمد: ألا قلت له: أنا أذهب إلى الحير، ثم دخلت عليه وقلت له: جعلت فداك: أنا أذهب إلى الحير؟ فقال: انظروا في ذاك...إلى أن قال فذكرت ذلك لعلي بن بلال فقال: ما كان يصنع بالحير وهو الحير فقدمت العسكر فدخلت عليه فقال لي: اجلس حين أردت القيام فلما رأيته أنس بي ذكرت له قول علي بن بلال فقال لي: ألا قلت له: إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يطوف بالبيت ويقبل الحجر وحرمة النبي والمؤمن أعظم من حرمة البيت وأمره الله عز وجل أن يقف بعرفة وإنما هي مواطن يحب الله أن يذكر فيها فأنا أحب أن يدعي الله لي حيث يحب الله أن يدعى فيها وذكر عنه أنه قال: ولم أحفظ عنه، قال: «**إنما هذه مواضع يحب الله أن يتعبد له فيها فأنا أحب أن يدعى لي حيث يحب الله أن يعبد**»(١).

▣ **في وسائل الشيعة**: عن ابن أبي عمير، عن أبي حمزة الثمالي، عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث، أنه سئل عن طين الحاير هل فيه شيء من الشفاء؟ فقال: «**يستشفى ما بينه وبين القبر على رأس أربعة أميال، وكذلك قبر جدي رسول الله صلى الله عليه وآله، وكذا طين قبر الحسن وعلي ومحمد فخذ منها فإنها شفاء من كل داء وسقم وجنة مما تخاف ولا يعد لها شيء من الأشياء الذي يستشفى بها إلا الدعاء، وإنما يفسدها ما يخالطها من أوعيتها وقلة اليقين لمن يعالج بها**»(٢).

---

(١) الكافي. الشيخ الكليني ج ٤ ص٥٦٧.

(٢) وسائل الشيعة. الحر العاملي ج ٦١ ص٣٩٦.

النقطة الرابعة: فصل الدين عن نظام الطبيعة

في الحقيقة إن هذا البحث يمت إلى جدل مطروح في النظرة إلى الدين على أنه مشروع هداية تشريعية وليس مشروعا لعمارة الطبيعة نظير ما أثير في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[1].

حيث قيل في تفسير: ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أنه بيان للهداية التشريعية وأصول المعارف الاعتقادية، وأما علوم الطبيعة من الفيزياء والكيمياء والأحياء والطب والجغرافيا وغيرها من العلوم الرياضية والهندسية، فليست من شأن هداية السماء ولا من اختصاصات القرآن الكريم.

إذ ليس هو دخيلا في السعادة الأخروية للبشر، ولا دخيلا في إقامة العدالة الاجتماعية في النظام الاجتماعي السياسي، ومن ثم لم يهتم الأنبياء عليهم السلام بعمارة دنيا البشرية، وإنما بعمارة الآخرة.

فالأنبياء والأولياء عليهم السلام هداة لا أطباء ومهندسون وحكام وساسة ولا محترفي صنائع ولا مهرة فنون، فلا بد أن يكون معنى ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ هو تبيان لكل شيء في صراط الهداية والصراط المستقيم.

بل إن بعضهم ذهب إلى أن تبيان كل شيء لا يشمل تفاصيل الشريعة وإنما يختص بأصول وكليات التشريع فضلا عن علوم الطبيعة ونحوها من أنظمة العلوم وقوانين الفنون، بينما ذهب آخرون إلى عموم الآية في عامة العلوم والمعارف أسسها وتفاصيلها، غاية الأمر إن ذلك ليس في ظاهر القرآن بل فيما خفي من دلالته وظهوره الذي لا يلتفت إلى الإحاطة به إلا المعصوم عليه السلام، وقد أشارت إلى ذلك جملة من الآيات الأخرى منها:

---

(١) سورة النحل (٨٩).

▣ قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(١).

▣ وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ * مُّبِينٍ﴾(٢). وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(٣).

▣ وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(٤).

فـوقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾(٥).

حيث تشير هذه الآيات إلى إحاطة الكتاب المبين بكل الحقائق، ليس في العالم الأرضي فحسب، بل إلى عوالم الأرضين والسماوات السبع.

وفي الحقيقة أن هذه الجدلية والاختلاف أشبه بالخلاف الذي وقع في فصل الدين عن السياسة، وفصل الدين عن نظام الحكم السياسي، لكنه في مقام فصل الدين عن نظام التشريع، والقول المتقدم في صدر الكلام ناشئا في الحقيقة من فصل

---

(١) سورة الأنعام (٥٩).

(٢) سورة يونس (٦١).

(٣) سورة النمل (٧٥).

(٤) سورة سبأ (٣).

(٥) سورة يس (١٢).

الدين عن نظام عمارة وصناعة الطبيعة وفصل النظام الكوني والطبيعي عن نـظام الآخرة.

وقد يكون منشأ هذا الفصل ناشئا عن الخطأ في حساب الأولويـات وإلغـاء الأهم لما عداه وإلغاء الأسس للاهتمام بالتفاصيل، وقد يكون ناشئا أيضا عن عدم كفاءة المتصدين لمعارف الدين وأحكامه لدرجة كفاءة المعصوم عليه السلام فـي الجـمع والإحاطة بالعلوم، وهذا ما ينبه على أن ولي الدين إن لم يكن علمه محيطا لدُنياً انعكس ذلك تلقائيا وأوجد طابعا للدين بحسب موقعه وسلوكياته.



الفصل الثالث

▣ ملفات التوسل

وكيف يؤمل بالقلم أن يكون أميناً في ظل إرهاب السلطة، وكم من معالم في سيرة النبيﷺ قد أخفيت وزويت عن أن تصل الى مسامع أجيال المسلمين في القرون اللاحقة، ومع كل ذلك ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾.



الطائفة الأولى

استغاثة المعصومين ببعضهم البعض عليهم السلام

يتبين من الرواية تشكي الإمام عليه السلام حاله للرسول صلى الله عليه وآله وبثه إليه همومه، وهو نحو من الاستغاثة والاستنجاد والطلب.

استغاثة الرسول صلى الله عليه وآله بعلي عليه السلام

كتاب درر المطالب قال: «خرج رسول الله صلى الله عليه وآله إلى غزوة تبوك وخلف علي بن أبي طالب عليه السلام على أهله، وأمره بالإقامة فيهم، فأرجف المنافقون وقالوا: ما خلفه إلا استقلالا به، فلما سمع ذلك أخذ سلاحه وخرج إلى النبي صلى الله عليه وآله وهو نازل بالحرق، فقال: يا رسول الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتني استقلالا بي، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: كذبوا، ولكني خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، فرجع إلى المدينة ومضى رسول الله صلى الله عليه وآله لسفره.

قال: وكان من أمر الجيش أنه انكسر وانهزم الناس عن رسول الله صلى الله عليه وآله، فنزل جبرائيل وقال: يا نبي الله إن الله يقرئك السلام ويبشرك بالنصرة، ويخيرك إن شئت أنزلت الملائكة يقاتلون، وإن شئت علياً7 فادعه يأتيك، فاختار النبي صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام، فقال جبرائيل: در وجهك نحو المدينة وناد: يا أبا الغيث أدركني، يا علي أدركني، أدركني يا علي.

قال سلمان الفارسي: وكنت مع من تخلف مع علي عليه السلام، فخرج ذات يوم يريد الحديقة فمضيت معه، فصعد النخلة ينزل كربا، فهو ينثر وأنا أجمع، إذ سمعته يقول: لبيك لبيك ها

أنا جئتك، ونزل والحزن ظاهر عليه ودمعه ينحدر، فقلت: ما شأنك يا أبا الحسن؟

قال: يا سلمان، إن جيش رسول الله ﷺ قد انكسر، وهو يدعوني ويستغيث بي، ثم مضى فدخل منزل فاطمة عليها السلام وأخبرها وخرج، قال: يا سلمان، ضع قدمك موضع قدمي لا تخرم منه شيئا. قال سلمان: فاتبعته حذو النعل بالنعل سبع عشرة خطوة، ثم عاينت الجيشين والجيوش والعساكر، فصرخ الإمام صرخة لهب لها الجيشان، وتفرقوا ونزل جبرائيل إلى رسول الله ﷺ وسلّم، فردّ ﷺ واستبشر به، ثم عطف الإمام على الشجعان، فانهزم الجمع وولوا الدبر، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا، وكفى الله المؤمنين القتال بعلي أمير المؤمنين عليه السلام وسطوته وهمته وعلاه، وأبان الله عز وجل من معجزة في هذا الموطن بما عجز عنه جميع الأمة، وكشف من فضله الباهر، وإتيانه من المدينة شرفها الله في سبعة عشر خطوة، وسماعه نداء النبي ﷺ على بعد المسافة، وتلبيته من أعظم المعجزات، وأدل الآيات على عدم النظير له في الأمة»(١).

توضيح إشكال

سؤال: قد يتوهم أن مفاد الرواية غريب وشاذ ومن جهات متعددة:

الجهة الأولى: توهم الرواية أن أمير المؤمنين عليه السلام أشجع من سيد الأنبياء ﷺ، ومن ثم احتاج إليه لصد عدوان الكفار.

الجهة الثانية: في الرواية غرابة أخرى، وهي تسجيل وقوع حرب بين المسلمين والروم في غزوة تبوك، مع أن المصادر التاريخية لم تذكر وقوع أي حرب، وإنما تخوف الروم وارتداعهم بمجرد السماع بمجي جيش النبي ﷺ، كما لم تسجل المصادر التاريخية أي حضور لعلي عليه السلام.

---

(١) مدينة المعاجز، السيد هاشم البحراني ج ١ ص ٢٥٩، طبعة مؤسسة النعمان.

الجهة الثالثة: في مضمون الرواية غرابة ثالثة وهي نزول آية: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ في غزوة تبوك مع أنها نزلت في غزوة الأحزاب.

ويرد التوهم الأول: إن هذا الانطباع عن مفاد الرواية سطحي وفاتر جدا، فإن موقعية النبي صلى الله عليه وآله في إدارة الجيش ونظم وضع المسلمين تستدعي أن لا يباشر بنفسه الشريفة كل الأدوار كما هو الحال في غزوة بدر، فإنه قذف أخاه أمير المؤمنين عليه السلام في لهوات نار الحرب في مواطن عديدة، فلا ينكفئ حتى يطأ لهبها بأخمصه كما في مبارزة عمرو بن ود في الخندق، والمبيت على الفراش ليلة الهجرة وفتح خيبر، حيث بعث النبي صلى الله عليه وآله أبا بكر وعمر وعمرو بن العاص، كل منهم في سرية ورجعوا منكفئين ولم يحققوا النصر، حتى بعث أخاه أمير المؤمنين عليه السلام مكدودا في ذات الله مجدا ناصحا، ومن ثم قال عنه النبي في الحديث المشهور: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» أي أن موقعية علي عليه السلام منه صلى الله عليه وآله هي كقول موسى في أخيه هارون: ﴿وَٱجْعَل لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * ٱشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾[1].

ومن ثم ورد في الحديث القدسي الشريف عن ابن شهر آشوب: من طريق المخالفين من الرسالة القوامية وحلية الأولياء، واللفظ لها: بالإسناد عن سعيد ابن جبير أنه قال أبو الحمراء: قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «رأيت ليلة أسري بي مثبتا على ساق العرش: أنا غرست جنة عدن بيدي، محمد صفوتي من خلقي، أيدته بعلي نصرته بعلي»[2].

وإلا فسيد الأنبياء صلى الله عليه وآله هو الحائز على كل الفضائل فوق سيد الأوصياء عليه السلام،

---

(١) سورة طه (٢٩).

(٢) مدينة المعاجز، السيد هاشم البحراني ج ٢ ص٤٣، وج ٢ ص٣٩٣ طبعة مؤسسة النعمان.

حيث قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : «كنا إذا اشتدّ البأس وحمي الوطيس اتّقينا برسول الله صلى الله عليه وآله ولذنا به»[(١)].

وقال علي عليه السلام عندما سئل من قبل بعضهم: أفنبي أنت؟ فقال: «ويحك إنما أنا عبد من عبيد محمد»[(٢)(٣)].

ويرد التوهم الثاني: إن عدم ذكر المصادر التاريخية لوقوع حرب في غزوة تبوك لا يعني عدم وقوعها، كيف وقد أخذ القلم السقيفي والأموي، ومن بعده القلم العباسي مأخذه في إخفاء الحقائق وطمس مجريات مسرح الأحداث، إلى درجة أخذوا يزرون بشخصية سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله فضلا عن عترته، وليس إلا لعداوة قريش لصاحب الدعوة وعترته الطاهرة عليهم السلام.

وكيف يؤمل بالقلم أن يكون أمينا في ظل إرهاب السلطة !! وكم من معالم في سيرة النبي صلى الله عليه وآله قد أخفيت وزويت عن أن تصل إلى مسامع أجيال المسلمين في القرون اللاحقة !! ومع كل ذلك ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾.

ويرد التوهم الثالث: إن نزول الآية في الخندق لا ينافي تكرر نزولها في غزوة تبوك، فإن الآية الواحدة قد يتكرر نزولها عدة مرات، وما أشتهر بين المفسرين من قاعدة سبب النزول الواحد للآية مدفوع بما في الروايات من وقوع نزول الآية عدة مرات في مواطن بمثابة تكون كلها أسباب نزولها، فليس النزول الأول يختص بالسببية كما عرف عن سورة الحمد بالسبع المثاني، حيث تكرر نزولها.

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ج١٣ ص٢٧٩، وسبل الهدى والرشاد ج٧ ص٤٧، الصالحي الشامي، يرويه عن مسلم.

(٢) الكليني. الكافي ج١ ص٩٠.

(٣) قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ج ٣١ ص٢٧٩: فكيف يقول الجاحظ أنه ما خاض الحرب، ولا خالط الصفوف وأي فرية أعظم من فرية من نسب رسول الله صلى الله عليه وآله الى الإحجام واعتزال الحرب.

استغاثة علي عليه السلام بالرسول صلى الله عليه وآله

▣ ما جاء في الروايات في وصف حال أمير المؤمنين عليه السلام عند الاحتضار: «فقال له الحسن عليه السلام يا أبه ما دعاك إلى هذا؟ فقال له: يا بني إني رأيت جدك رسول الله صلى الله عليه وآله في منامي قبل هذه الكائنة بليلة، فشكوت إليه ما أنا فيه من التذلل والأذى من هذه الأمة، فقال لي: أدع عليهم، فقلت: اللهم أبدلهم بي شرا مني وأبدلني بهم خيرا منهم»[١].

▣ عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن الحسن بن علي عليه السلام قال: خرجت أنا وأبي عليه السلام نصلي في هذا المسجد، فقال عليه السلام لي: يا بني إني بت الليلة أوقظ أهلي لأنها ليلة الجمعة صبيحة يوم بدر لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان فملكتني عيناي، فسنح لي رسول الله صلى الله عليه وآله، فقلت: يا رسول الله ماذا لقيت من أمتك من الأود واللدد؟ فقال لي: ادعُ عليهم. فقلت: «اللهم أبدلني بهم من هو خير لي منهم، وأبدلهم بي من هو شر لهم مني»[٢].

فيتبين من الرواية تشكي الإمام عليه السلام حاله للرسول صلى الله عليه وآله وبثه إليه همومه، وهو نحو من الاستغاثة والاستنجاد والطلب.

وتبين شكايته لجحود الأمة حقه وتمردها عن الانصياع لهدايته صلى الله عليه وآله لها، وشدة الأذى الذي لاقاه، والتظلم هو نحو طلب المعونة والمدد من المشكو إليه طلبا للنصرة والإغاثة، وقد أجابه صلى الله عليه وآله وأذن له أن يدعو لتجازى الأمة بحرمانها من قيادته، وبركة وجوده، وتدبيره ورياض عدله، وحدائق القسط التي أقامها، والهدى والصلاح الذي أفشاه فيها.

▣ قال أمير المؤمنين عليه السلام : «لقد استرجعت الوديعة، وأخذت الرهينة، واختلست

---

(١) بحار الأنوار. العلامة المجلسي ج٤٢ ص٢٩١. وشرح الأخبار ج٢ ص٤٣٢، حديث ٧٨٦. والأنوار العلوية.

(٢) مقاتل الطالبيين. أبو الفرج الإصفهاني ص٢٥.

الزهراء، فما أقبح الخضراء والغبراء، يا رسول الله ! أما حزني فسرمد، وأما ليلي فمسهد، لا يبرح الحزن من قلبي، أو يختار الله لي دارك التي أنت فيها مقيم، كمد مقيح، وهم مهيج، سرعان ما فرق بيننا، وإلى الله أشكو، وستنبئك ابنتك بتضافر أمتك علي وعلى هضمها حقها، فاستخبرها الحال، فكم من غليل معتلج بصدرها لم تجد إلى بثه سبيلا، وستقول ويحكم الله وهو خير الحاكمين»(١).

وهذه الشكاية هي الأخرى طلب من النبيﷺ بتضميد جراح حليلته الزهراءﷺ، ونحو من بث الهم والحزن لرسول اللهﷺ استظهارا واستنصارا ليكون شاهدا على ما يجري من انحراف المسيرة، مع أنه قد وجه الشكاية إلى الله تعالى أولا تدليلا على أن التوجه بالشكاية إلى رسول الله هي شكاية إلى الله تعالى وتوجه بالشكاية إلى الحضرة الإلهية، وهذا هو ما مر علينا من عقيدة كل مسلم عندما يستغيث بالنبيﷺ والعترةﷺ أن استغاثته بصفة اصطفائهم بالقرب من الله تعالى، وأن التوجه إليهم يؤدي إلى التوجه للحضرة الإلهية؛ لأنهم باب الله الأعظم الذي منه يؤتى.

استغاثة فاطمةﷺ بالرسولﷺ

▣ قال سليم بن قيس: قلت لسلمان أَدَخلوا على فاطمةﷺ بغير إذنها؟ قال: أي والله وما عليها خمار. فنادت: يا أبتاه، لبئس ما خلفك أبو بكر وعمر، وعيناك لم تتفقأ في قبرك، تنادي بأعلى صوتها...

فقالت فاطمةﷺ: يا عمر، ما لنا ولك؟ فقال: افتحي الباب وإلا أحرقنا عليكم بيتكم، فقالت: «يا عمر، أما تتقي الله تدخل على بيتي»؟ فأبى أن ينصرف، ودعا عمر بالنار

---

(١) الأمالي، الشيخ المفيد ص ٢٨٢، الكافي. الشيخ الكليني ج ١ ص ٤٥٩.

فأضرمها في الباب ثم دفعه فدخل فاستقبلته فاطمة؟ وصاحت: «يا أبتاه يا رسول الله» فرفع عمر السيف وهو في غمده فوجأ به جنبها فصرخت: «يا أبتاه» فرفع السوط فضرب به ذراعها فنادت: «يا رسول الله، لبئس ما خلفك أبو بكر وعمر»(١).

استغاثة الحسين عليه السلام بالرسول صلى الله عليه وآله

▣ في الرواية أنه خرج الحسين عليه السلام من منزله ذات ليلة وأقبل إلى قبر جده صلى الله عليه وآله فقال: «السلام عليك يا رسول الله أنا الحسين بن فاطمة فرخك وابن فرختك، وسبطك الذي خلفتني في أمتك، فاشهد عليهم يا نبي الله أنهم قد خذلوني، وضيعوني، ولم يحفظوني، وهذه شكواي إليك حتى ألقاك، قال: ثم قام فصف قدميه فلم يزل راكعا ساجدا».

قال: فجعل الحسين عليه السلام في منامه ينظر إلى جده ويقول: «يا جداه لا حاجة لي في الرجوع إلى الدنيا فخذني إليك وأدخلني معك في قبرك، فقال له رسول الله: لا بد لك من الرجوع إلى الدنيا حتى ترزق الشهادة، وما قد كتب الله لك فيها من الثواب العظيم، فإنك وأباك وأخاك وعمك وعم أبيك تحشرون يوم القيامة في زمرة واحدة، حتى تدخلوا الجنة»(٢).

استغاثة السجاد عليه السلام في دعائه بالنبي والأئمة عليهم السلام

▣ روى محمد بن يحيي العطار عن أحمد بن محمد السياري عن العباس بن مجاهد عن أبيه قال: كان علي بن الحسين عليه السلام يدعو عند كل زوال من أيام شعبان، وفي ليلة النصف منه ويصلي على النبي صلى الله عليه وآله بهذه الصلوات يقول: «اللهم صل على

---

(١) كتاب سليم بن قيس، تحقيق محمد باقر الأنصاري ص ١٥٠.

(٢) بحار الأنوار. العلامة المجلسي ج ٤٤، ص٣٢٨. والعوالم ج١٧ ص١٧٧. والفتوح ج٥ ص ٢٠. ومقتل الخوارزمي ج١ ص١٨٦.

محمد وآل محمد شجرة النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة ومعدن العلم وأهل بيت الوحي، اللهم صل على محمد وآل محمد الفلك الجارية في اللجج الغامرة يأمن من ركبها ويغرق من تركها المتقدم لهم مارق والمتأخر عنهم زاهق واللازم لهم لاحق، اللهم صل على محمد وآل محمد الكهف الحصين وغياث المضطر المستكين وملجأ الهاربين وعصمة المعتصمين..»(١).

▣ وقال عليه السلام: «أسألك بحق نبيك محمد صلى الله عليه وآله، وأتوسل إليك بالأئمة عليهم السلام الذين اخترتهم لسرك، وأطلعتهم على خفيك، واخترتهم بعلمك، وطهرتهم وأخلصتهم واصطفيتهم وأصفيتهم وجعلتهم هداة مهديين، وائتمنتهم على وحيك، وعصمتهم عن معاصيك ورضيتهم لخلقك، وخصصتهم بعلمك، واجتبيتهم وحبوتهم وجعلتهم حججا على خلقك، وأمرت بطاعتهم على من برأت، وأتوسل إليك في موقفي اليوم أن تجعلني من خيار وفدك»(٢).

استغاثة الإمام الكاظم عليه السلام بالزهراء عليها السلام

▣ عن علي بن أبي حمزة، عن أبي إبراهيم عليه السلام قال: قال لي: «إني لموعوكٌ منذ سبعة أشهر، ولقد وعك أبني اثني عشر شهرا وهي تضاعف علينا، أشعرت أنها لا تأخذ في الجسد كله ربما أخذت في أعلى الجسد ولم تأخذ في أسفله، وربما أخذت في أسفله ولم تأخذ في أعلى الجسد كله؟ قلت: جعلت فداك إن أذنت لي حدثتك بحديث عن أبي بصير عن جدك أنه كان إذا وعك استعان بالماء البارد فيكون له ثوبان: ثوب في الماء البارد وثوب على جسده يراوح بينهما، ثم ينادي حتى يسمع صوته على باب الدار يا

---

(١) مصباح المتهجد. الشيخ الطوسي ص٨٢٨.

(٢) الصحيفة السجادية (ابطحي). الإمام زين العابدين عليه السلام ص٣٤٤.

فاطمة بنت محمد، فقال: صدقت، قلت: جعلت فداك فما وجدتم للحمى عندكم دواء؟ فقال: ما وجدنا لها عندنا دواء إلا الدعاء والماء البارد، إني اشتكيت فأرسل إلي محمد بن إبراهيم بطبيب له فجاءني بدواء فيه قي فأبيت أن أشربه؛ لأني إذا قييت زال كل مفصل مني»(١).

استغاثة زينب عليها السلام برسول الله صلى الله عليه وآله

▣ وكانت زينب تقول: «وامحمداه، صلى عليك مليك السماء، هذا حسين مرمل بالدماء، صريع بكربلاء، مقطع الأعضاء، مجزوز الرأس من القفا، مسلوب العمامة والردا، بأبي من معسكره نهبا، بأبي من فسطاطه مقطع بالعرا، بأبي من لا هو غائب فيرجى، ولا مريض فيداوى، أنا الفداء للمهموم حتى مضى، أنا الفداء للعطشان حتى قضى، أنا الفداء لمن شيبته تقطر بالدماء»(٢).

▣ ومررن على جسد الحسين عليه السلام وهو معفر بدمائه مفقود من أحبائه، فندبت عليه زينب بصوت مشج وقلب مقروح: «يا محمداه، صلى عليك مليك السماء، هذا حسين مرمل بالدماء، مقطع الأعضاء، وبناتك سبايا وإلى الله المشتكى، وإلى علي المرتضى، وإلى فاطمة الزهراء، وإلى حمزة سيد الشهداء، هذا حسين بالعراء تسفي عليه الصبا، قتيل أولاد الأدعياء، واحزناه واكرباه، اليوم مات جدي رسول الله، يا أصحاب محمداه، هذه ذرية المصطفى يساقون سوق السبايا، فأذابت القلوب القاسية والجبال الراسية»(٣).

---

(١) الكافي. الشيخ الكليني ج٨ ص١٠٩.

(٢) مناقب آل أبي طالب. ابن شهر آشوب ج٣ ص ٢٦٠.

(٣) مثير الأحزان. ابن نما الحلي ص٥٩.



الطائفة الثانية

الندب إلى الاستغاثة بالمعصومين

يا أولياء الله، إن بيني وبين الله عز وجل ذنوبا لا يأتي عليها إلا رضاكم، فبحق من ائتمنكم على سره، واسترعاكم أمر خلقه، وقرن طاعتكم بطاعته لما استوهبتم ذنوبي، وكنتم شفعائي.

▣ روى البيهقي في خبر صحيح: «إنه في أيام عمر جاء رجل إلى قبر النبي ﷺ فقال: يا محمد، استسق لأمتك فسقوا»[١].

▣ روى الطبراني وابن المكري وأبو الشيخ، أنهم كانوا جياعا، فجاءوا إلى قبر النبي ﷺ فقالوا: «يا رسول الله: الجوع، فاشبعوا»[٢].

▣ «صلاة الاستغاثة بالبتول» تصلي ركعتين، ثم تسجد وتقول: «يا فاطمة» مائة مرة، ثم تضع خدك الأيمن على الأرض وقل مثل ذلك، وتضع خدك الأيسر على الأرض وتقول مثله، ثم اسجد وقل ذلك مائة وعشر دفعات، وقل: «يا آمناً من كل شيء، وكل شيء منك خائف حذر، أسألك بأمنك من كل شيء وخوف كل شيء منك أن تصلي على محمد وآل محمد وأن تعطيني أمانا لنفسي وأهلي ومالي وولدي حتى لا أخاف أحداً ولا أحذر من شيء أبدا إنك على كل شيء قدير»[٣].

---

(١) كاشف الغطاء. منهج الرشاد ص٦٩.

(٢) كاشف الغطاء. منهج الرشاد ص٦٩.

(٣) مكارم الأخلاق. الشيخ الطبرسي ص ٣٣٠.

▣ «صلاة الغياث» عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا كانت لأحدكم استغاثة إلى الله تعالى فليصل ركعتين ثم يسجد ويقول: «يا محمد، يا رسول الله، يا علي، يا سيد المؤمنين والمؤمنات، بكما أستغيث إلى الله تعالى، يا محمد يا علي، أستغيث بكما، يا غوثاه بالله وبمحمد وعلي وفاطمة ـ وتعد الأئمة ـ بكم أتوسل إلى الله تعالى، فإنك تغاث من ساعتك إن شاء الله تعالى»(١).

▣ ذكر الشيخ القمي في كتاب المفاتيح لهم عليهم السلام زيارة جامعة تشتمل على الاستئذان، والظاهر أنه رحمه الله قد رواها عن بعض كتب الشيخ والسيد ابن طاووس، ونحن نوردها اعتمادا على أمانته في النقل، قال (تغمده الله برحمته) بعد أن ذكر بعض آداب الزيارة، وقل أيضا: «يا موالي، يا أبناء رسول الله، عبدكم وابن أمتكم، الذليل بين أيديكم، والمضعف في علو قدركم، والمعترف بحقكم جاءكم مستجيرا بكم قاصدا إلى حرمكم، متقربا إلى مقامكم، متوسلا إلى الله تعالى بكم، أأدخل يا موالي، أأدخل يا أولياء الله، أأدخل يا ملائكة الله المحدقين بهذا الحرم، المقيمين بهذا المشهد»(٢).

▣ حدثني محمد بن يعقوب، عمن حدثه، عن سهل بن زياد، عن محمد بن أورمة. وحدثني أبي، عن الحسين بن الحسن بن أبان، عن محمد بن أورمة، عمن حدثه، عن الصادق وأبي الحسن الثالث عليه السلام، قال: تقول عند قبر أمير المؤمنين عليه السلام: «السلام عليك يا ولي الله، أنت أول مظلوم، وأول من غصب حقه، صبرت واحتسبت حتى أتاك اليقين، وأشهد أنك لقيت الله وأنت شهيد، عذب الله قاتلك بأنواع العذاب، وجدد عليه العذاب، جئتك عارفا بحقك، مستبصرا بشأنك، مواليا لأوليائك، معاديا لأعدائك ومن ظلمك، ألقى على ذلك ربي إن شاء الله تعالى، يا ولي الله، إن لي ذنوبا كثيرة فاشفع لي إلى

---

(١) مكارم الأخلاق. الشيخ الطبرسي ص ٣٣٠.

(٢) كنمة التقوى. الشيخ محمد أمين زين العابدين ج٣ ص٥٠٨.

ربك»[١].

◘ «يا أولياء الله إن بيني وبين الله عز وجل ذنوبا لا يأتي عليها إلا رضاكم، فبحق من ائتمنكم على سره، واسترعاكم أمر خلقه، وقرن طاعتكم بطاعته لما استوهبتم ذنوبي، وكنتم شفعائي»[٢].

◘ محمد بن يعقوب الكليني عن عدة من أصحابنا عن سهل بن زياد عن محمد بن أورمة عمن حدثه عن الصادق وأبي الحسن الثالث عليهما السلام قال: تقول عند قبر أمير المؤمنين عليه السلام : «السلام عليك يا ولي الله أنت أول مظلوم وأول من غصب حقه صبرت واحتسبت حتى أتاك اليقين، وأشهد أنك قد لقيت الله وأنت شهيد، عذب الله قاتلك بأنواع العذاب وجدد عليه العذاب، جئتك عارفا بحقك مستبصرا بشأنك معاديا لأعدائك ومن ظلمك، ألقى على ذلك ربي إن شاء الله، يا ولي الله إن لي ذنوبا كثيرة فاشفع لي إلى ربك؟، فإن لك عند الله مقاما محمودا وأن لك عند الله جاها وشفاعة وقال الله تعالى: ولا يشفعون إلا لمن ارتضى»[٣].

◘ جعفر بن محمد بن قولويه في الكامل: عن محمد بن جعفر الرزاز، عن محمد بن عيسى بن عبيد، عمن ذكره، عن أبي الحسن عليه السلام قال: تقول ببغداد: «السلام عليك يا ولي الله، السلام عليك يا حجة الله، السلام عليك يا نور الله في ظلمات الأرض، السلام عليك يا من بدا الله في شأنه، أتيتك عارفا بحقك، معاديا لأعدائك، فاشفع لي عند ربك يا مولاي، قال: وادع الله واسأل حاجتك، قال: وسلم بهذا على أبي جعفر محمد بن علي عليهما السلام»[٤].

◘ «مولاي يا حجة الله، يا أمين الله، يا ولي الله، إن بيني وبين الله ذنوبا قد أثقلت ظهري

---

(١) كامل الزيارات. جعفر بن محمد بن قولويه ص١٠٣.

(٢) من لا يحضره الفقيه. الشيخ الصدوق ج٢ ص٦١٦.

(٣) تهذيب الأحكام. الشيخ الطوسي ج٦ ص٢٨.

(٤) مستدرك الوسائل. الميرزا النوري ج١٠ ص٣٥٣.

ومنعتني من الرقاد، وذكرها يقلقل أحشائي، وقد هربت منها إلى الله وإليك، فبحق من ائتمنك على سره، واسترعاك أمر خلقه، وقرن طاعتك بطاعته، وموالاتك بموالاته، كن لي إلى الله شفيعا، ومن النار مجيرا، وعلى الدهر ظهيرا، ثم انكب على القبر وقل: يا حجة الله، يا ولي الله، يا باب حطة الله، وليك وزائرك واللائذ بقبرك، والنازل بفنائك، والمنيخ رحله في جوارك، أسألك أن تشفع لي إلى الله في قضاء حاجتي، وانجح طلبتي في الدنيا والآخرة، فإن لك عند الله الجاه العظيم والشفاعة المقبولة»[(١)].

◙ أخبرنا عثمان بن عمر أخبرنا شعبة عن أبي جعفر عن عمارة بن خزيمة عن عثمان بن حنيف: أن رجلا ضرير البصر أتى النبيﷺ فقال ادعُ الله أن يعافيني، فقال: إن شئت أخرت ذاك فهو أعظم لأجرك، وأن شئت دعوت الله، فقال: ادعه، فأمره أن يتوضأ ويصلى ركعتين ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمدﷺ نبي الرحمة يا محمد، إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى، اللهم فشفعه في عثمان بن أبي العاص»[(٢)].

◙ وروينا في كتاب الترمذي «سنن الترمذي، كتاب الدعوات باب ١١٩، ح٣٥٧٨»، وابن ماجه «كتاب إقامة الصلاة، باب ١٨٩، ح١٣٨٥»، عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه، أن رجلا ضرير البصر أتى النبيﷺ فقال: ادع الله تعالى أن يعافيني، قال: «إن شئت دعوت، وأن شئت صبرت فهو خير لك» قال فادعه، فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمدﷺ نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي، اللهم فشفعه في؛ قال الترمذي: حديث حسن صحيح»[(٣)].

---

(١) المزار. محمد بن المشهدي ص٢١١.

(٢) منتخب مسند عبد بن حميد. عبد بن حميد بن نصر الكسي ص١٤٧.

(٣) الأذكار النووية. يحيى بن شرف النووي ص١٨٤.

الطائفة الثالثة:

الندب الخاص بتوجه النداء إلى المعصومين عليهم السلام

قال النبي صلى الله عليه وآله : «إنه حلقة باب الجنة من ياقوتة حمراء على صفايح الذهب، فإذا دقت الحلقة على الباب طنت وقالت: يا علي يا علي».

الندب الخاص بتوجه النداء إليهم بلفظ النداء وبذكرهم

فيما يلي مجموعة من الروايات:

◘ من كتاب المناقب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«إن لله عمودا من نور يضي لأهل الجنة كالشمس لأهل الدنيا لا يناله إلا علي وشيعته، وأن حلقة باب الجنة من ياقوتة حمراء طولها خمسون عاما، على صفائح من ذهب إذا نقرت طنت وقالت في طنينها: يا علي»**[1].

أقول: معناها طريق الجنة وشعارها يا علي.

◘ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، عن رسول الله صلى الله عليه وآله **أنه قال: «إن حلقة باب الجنة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب، فإذا دقت الحلقة على الصفحة طنت وقالت: يا علي»**[2].

◘ روى السيد المرعشي في شرح إحقاق الحق عن مصادر العامة في أن طنين

---

(١) مشارق أنوار اليقين، الحافظ البرسي، ص ١٠٠.

(٢) أمالي الصدوق ص ٦٨٤ ح ٩٤٠ المجلس السادس والثمانون، ورواه في العلل ج ١ ص ١٦٤، ورواه المجلسي في البحار ج ٨ ص ١٢٢، وفي ج ٣٩ ص ٢٠٦.

باب الجنة يا علي يا علي قال: رواه القوم: منهم العلامة المولى محمد صالح الترمذي في «المناقب المرتضوية» (ص ٨٥ و٢٢٣، ط بمبئي): روى من طريق الخطيب في «المناقب» قال النبي ﷺ: «إنه حلقة باب الجنة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب، فإذا دقت الحلقة على الباب طنت وقالت: يا علي يا علي»[(١)].

▣ ابن بابويه: قال: حدثنا أبي، قال: حدثنا عبد الله بن الحسن المؤدب، عن أحمد بن علي الاصبهاني، قال: حدثنا إبراهيم بن محمد الثقفي، قال: حدثنا محمد بن داود الدينوري، قال: حدثنا منذر الشعراني، قال: حدثنا سعد بن زيد، حدثنا أبو قبيل، عن أبي الجارود رفعه إلى النبي ﷺ قال: «إن حلقة باب الجنة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب، فإذا دقت الحلقة على الصفحة طنت وقالت: يا علي»[(٢)].

▣ خصائص النطنزي، قيس بن أبي حازم عن ابن مسعود، قال رسول الله ﷺ: «علي بن أبي طالب حلقة معلقة بباب الجنة من تعلق بها دخل الجنة»[(٣)].

▣ قال القاضي النعمان في شرح الأخبار: ج١، ص١٤١: عن مسروق، قال: دخلت على عائشة فقالت لي: يا مسروق: إنك من أبر ولدي بي، وإني أسألك عن شيء فأخبرني به. فقلت: سلي يا أماه عما شئت. قالت: المخدج من قتله؟ قلت: علي بن أبي طالب ﵇ . قالت: وأين قتله؟ قلت على نهر يقال لأعلاه تامرا، ولأسفله النهروان بين أحافيف «أخافيق» وطرق. فقالت: لعن الله فلانا، تعني عمرو بن العاص، فإنه أخبرني أنه قتله على نيل مصر. قال مسروق: يا أماه، فإني أسألك بحق الله وبحق رسوله وبحقي فإني ابنك، لما أخبرتني بما سمعت من رسول الله فيهم.

---

(١) روى السيد المرعشي في شرح إحقاق الحق ج٧. السيد المرعشي ص١٧٦:
عن مصادر العامة في أن طنين باب الجنة يا عي يا عني.

(٢) مدينة المعاجز لنبحراني ج٢ ص٣٦٢: أن حنقة باب الجنة تقول: يا عني.

(٣) مناقب آل أبي طالب. ابن شهر آشوب ج٢ ص١٢.

قالت: سمعته يقول فيهم «أهل النهروان»: «هم شر الخلق والخليقة يقتلهم خير الخلق والخليقة، وأقربهم إلى الله وسيلة».

رواه ابن المغازلي في المناقب عن أحمد بن محمد بن عبد الوهاب بن طاوان، عن الحسين بن محمد العلوي، عن أحمد بن محمد الجواربي، عن أحمد ابن حازم، عن سهل بن عامر البجلي عن أبي خالد الأحمر، عن مجالد، عن الشعبي، عن مسروق قال: قالت عائشة: يا مسروق إنك من ولدي، وإنك من أحبهم إلي، فهل عندك علم من المخدج؟ قال: قلت: نعم، قتله علي بن أبي طالب على نهر يقال لأعلاه تامرا ولأسفله النهروان، بين أحفاق وطرقاء قالت: إيغني على ذلك بينة، فأتيتها بخمسين رجلا من كل خمسين بعشرة ـ وكان الناس إذ ذاك أخماسا ـ يشهدون أن عليا عليه السلام قتله على نهر يقال لأعلاه تأمرا ولأسفله النهروان بين أخفاق وطرقاء. فقلت: يا أماه، أسألك بالله وبحق رسول الله وبحقي ـ فإني من ولدك ـ أي شيء سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول فيه؟ قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: هم شر الخلق والخليقة، يقتلهم خير الخلق والخليقة، وأقربهم إلى الله وسيلة. انتهى[١].
ورواه في شرح الأخبار: ج٢ ص ٥٩.

▣ ما رواه السيد الأجل علي بن طاووس رحمه الله في كشف المحجة، نقلا عن كتاب الرسائل للشيخ الأقدم محمد بن يعقوب الكليني رحمه الله عمن سماه قال: كتبت إلى أبي الحسن عليه السلام: إن الرجل يحب أن يفضي إلى إمامه ما يحب أن يفضي إلى ربه، قال: فكتب عليه السلام «إن كان لك حاجة فحرك شفتيك فإن الجواب يأتيك»[٢].

▣ وفي البحار عن عدة الداعي، عن سلمان الفارسي قال: سمعت محمدا صلى الله عليه وآله

(١) العقائد الإسلامية ج ٤. مركز المصطفیٰ ص٣٤٥.

(٢) مكيال المكارم. ميرزا محمد تقي الإصفهاني ج٢ ص٢٤٩.

يقول: إن الله عز وجل يقول: «يا عبادي أوليس من له إليكم حوائج كبار لا تجودون بها إلا أن يتحمل عليكم بأحب الخلق إليكم، تقضونها كرامة لشفيعهم، ألا فاعلموا أن أكرم الخلق علي وأفضلهم لدي محمدﷺ وأخوه علي ومن بعده الأئمة الذين هم الوسائل إلى الله. ألا فليدعني من أهمته حاجة يريد نفعها أو دهته داهية يريد كشف ضررها بمحمد وآله الطيبين الطاهرين أقضها له أحسن ما يقضيها من تستشفعون بأعز الخلق عليه»[1].

▣ في البحار: ووجدت بخط الشيخ محمد بن علي الجبعي: نقلا من خط الشيخ الأجل علي بن السكون حدثنا الشيخ الأجل الفقيه سديد الدين أبو محمد عربي بن مسافر العبادي أدام الله تأييده، قراءة عليه، حدثنا الشيخ أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن علي بن طحال المقدادي رحمه الله بمشهد مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه في الطرز الكبير الذي عند رأس الإمام عليه السلام في العشر الأواخر من ذي الحجة سنة تسع وثلاثين وخمسمائة قال: حدثنا الشيخ الأجل السيد المفيد أبو علي الحسن بن محمد بن الحسن الطوسي رضي الله عنه بالمشهد المذكور على صاحبه أفضل السلام في الطرز المذكور في العشر الأواخر من ذي القعدة سنة تسع وخمسمائة، قال: حدثنا السيد السعيد الوالد أبو جعفر محمد بن الحسن، عن محمد بن إسماعيل، عن محمد بن الحسين البزاز قال: أخبرنا أبو الحسين محمد بن أحمد بن يحيى القمي قال: حدثنا أبو عبد الله محمد بن علي بن زنجويه القمي قال: حدثنا أبو جعفر محمد بن عبد الله بن جعفر الحميري قال أبو علي الحسن بن أشناس: وأخبرنا أبو المفضل محمد بن عبدالله الشيباني أن أبا جعفر محمد بن عبد الله بن جعفر الحميري أخبره وأجاز له جميع ما رواه، أنه خرج إليه توقيع من الناحية المقدسة حرسها الله بعد المسائل التي سألها: والصلاة والتوجه أوله:

---

(١) مكيال المكارم. ميرزا محمد تقي الإصفهاني ج٢ ص٢٤٨.

بسم الله الرحمن الرحيم

«لا لأمر الله تعقلون، ولا من أوليائه تقبلون، حكمة بالغة فما تغن الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون، والسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإذا أردتم التوجه بنا إلى الله تعالى وإلينا، فقولوا كما قال الله تعالى: سلام على آل ياسين، ذلك هو الفضل المبين، والله ذو الفضل العظيم، من يهديه صراطه المستقيم. التوجه: قد آتاكم الله يا آل ياسين خلافته، وعلم مجاري أمره فيما قضاه ودبره ورتبه وأراده في ملكوته، فكشف لكم الغطاء، وأنتم خزنته وشهداؤه وعلماؤه وأمناؤه، ساسة العباد، وأركان البلاد، وقضاة الأحكام، وأبواب الإيمان ومن تقديره منايح العطاء، بكم إنفاذه محتوما مقرونا فما شيء منه إلا وأنتم له السبب، وإليه السبيل، خياره لوليكم نعمة، وانتقامه من عدوكم سخطة، فلا نجاة ولا مفزع إلا أنتم، ولا مذهب عنكم، يا أعين الله الناظرة، وحملة معرفته، ومساكن توحيده في أرضه وسمائه، وأنت يا حجة الله وبقيته كمال نعمته، ووارث أنبيائه وخلفائه، ما بلغناه من دهرنا، وصاحب الرجعة لوعد ربنا، التي فيها دولة الحق وفرحنا ونصر الله لنا وعزنا. السلام عليك أيها العلم المنصوب، والعلم المصبوب، والغوث والرحمة الواسعة، وعدا غير مكذوب. السلام عليك صاحب المرأى والمسمع، الذي بعين الله مواثيقه، وبيد الله عهوده، وبقدرة الله سلطانه، أنت الحليم الذي لا تعجله العصبية والكريم الذي لا تبخله الحفيظة، والعالم الذي لا تجهله الحمية»[١].

▣ حميد بن زياد، عن الحسن بن محمد بن سماعة، عن وهيب بن حفص، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما اجتمع في مجلس قوم لم يذكروا الله عزّ وجلّ ولم يذكرونا إلا كان ذلك المجلس حسرة عليهم يوم القيامة، ثم قال: قال أبو جعفر٧: إن

---

(١) بحار الأنوار. العلامة المجلسي ج ٩١ ص ٣٧.

ذكرنا من ذكر الله وذكر عدونا من ذكر الشيطان»[١].

◘ في الاستيعاب لابن عبد البر: روى ابن عباس وأنس بن مالك أن عمر ابن الخطاب كان إذا قحط أهل المدينة استسقى بالعباس، قال أبو عمر: وكان سبب ذلك أن الأرض أجدبت إجدابا شديدا على عهد عمر سنة سبع عشرة، فقال كعب: إن بني إسرائيل كانوا إذا قحطوا وأصابهم مثل هذا استسقوا بعصبة الأنبياء، فقال عمر: هذا عم النبيﷺ وصنو أبيه وسيد بني هاشم، فمضى إليه عمر فشكى إليه ما فيه الناس ثم صعد المنبر ومعه العباس فقال: **«اللهم إنا قد توجهنا إليك بعم نبينا وصنو أبيه فاسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين»**[٢].

◘ عن أنس بن مالك أنهم كانوا إذا قحطوا على عـهد عـمر خـرج بـالعباس فاستسقى به وقال **اللهم إنا كنا نتوسل بنبينا إذا قحطنا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا**.. وعن ابن عمر أن عمر خطب الناس وقال: **«أيها الناس إن رسول اللهﷺ كان يرى للعباس ما يرى الولد لوالده يعظمه ويفخمه ويبر قسمه، فـاقتدوا أيـها النـاس برسول اللهﷺ في عمه العباس واتخذوه وسيلة إلى الله عز وجل فيما نزل بكم»**[٣].

حديث حسن صحيح تفرد به الزبير بن بكار، خرجه الحافظ الدمشقي.

ثم قال: **«يا أبا الفضل قم فأدعو الله، فقام العباس يحمد الله ويثني عليه ويدعو إلى أن قال: اللهم... وقد توجه القوم بي إليك فاسقنا الغيث.**

قال: فأرخت السماء غزالها، وأخصبت الأرض فقال عمر: **هذي والله الوسيلة إلى الله، والمكان منه»**[٤].

---

(١) الكافي. الشيخ الكليني ج٢ ص٤٩٦، وسائل الشيعة (آل البيت). الحر العاملي ج٧ ص١٥٣.

(٢) بحار الأنوار. العلامة المجلسي ج٢٢ ص ٢٩٠.

(٣) ذخائر العقبى. أحمد بن عبدالله الطبري ص١٩٨.

(٤) رواه الحاكم في المستدرك ج٣ ص ٣٣٤.

الفتاوى الدينية

قال السيد الخوئي:

قول القائل: أدركنا يا علي لا مانع منه وهو يقصد التوسل به إلى الله، وهل هناك مانع من قول الغريق أو الحريق ومن إليهما حين يستغيث بمن ينقذه فيقول: يا فلان أنقذني ؟!

ملف الفتاوى الدينية

▣ **سؤال ١٤٢٦:** من الرسوم في هذه البلاد أن المؤمنين يستغيثون بالإمام الحجة ﷺ بعد كل صلاة، ويقولون: يا صاحب الزمان يا ابن الحسن العسكري عجل على ظهورك.

واستشكل عليهم بعض العلماء: بأن هذا ينافي عقيدة الشيعة، فإن الإمام لا يملك أمره، والدعاء لا بد أن يكون من الله، فهل يرد هذا الإشكال ويحرم مثل هذه الاستغاثة أم لا؟

الخوئي: الإشكال المذكور غير وارد، فإن الغرض من الجملة المذكورة الدعاء والالتماس منه ﷺ بتعجيل ظهوره بطلبه ﷺ من الله تعالى ذلك، كما هو الحال في سائر الأدعية المشتملة على طلب الحوائج من الأئمة الأطهار، فإن معنى ذلك هو جعلهم: واسطة عند الله تعالى، وقد ذكر مضمونه في ذيل دعاء العهد الوارد في

صباح أربعين يوما عن الصادق عليه السلام، والله العالم. انتهى[1]

أقول: ويستقيم الطلب منهم عليهم السلام بداعي أن يمنحوا ما أقدرهم الله عليه، وأذن لهم في إعطائه، وهذا معنى الشفاعة التكوينية الذي مر بيانها في المطالب السابقة، وهو لا يعني استقلالهم لا ذاتا ولا فعلا فيما أقدروا عليه.

▫ **سؤال ١٣٠٦**: هل يجوز طلب الولد أو الرزق أو الحفظ والأمان إلى غير ذلك، من المعصومين عليهم السلام مباشرة، لا لأنهم يخلقون أو يرزقون وإنما لأنهم الوسيلة إلى الله تعالى والشفعاء إليه بقضاء الحاجات، ولأنهم لا يفعلون شيئا إلا بإذنه جل شأنه فهم يسألونه فيخلق ويسألونه فيرزق، ولا ترد لهم مسألة أو دعاء لمنزلتهم منه جل شأنه ولولايتهم علينا، وقد قال تعالى: ﴿وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ﴾ و ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾؟

الخوئي: لا بأس بذلك القصد. انتهى[2]

أقول: مر عدم الحصر بذلك الذي قد مر.

▫ **سؤال ١٣١٣**: المتعارف حال النهوض أو القيام أو حال أي عمل الاستنجاد بالنبي صلى الله عليه وآله أو الإمام علي عليه السلام أو أحد الأئمة عليهم السلام، فهل يجوز ذلك عن قصد، علما أن الاعتقاد هو أنهم الباب إلى الله تعالى؟

الخوئي: لا بأس بتوسيطهم والاستشفاع بهم إلى الله تعالى كوسيلة في قضائه هو حوائج المتوسلين؛ لأنه تعالى رغب في التوسل بقوله تعالى: ﴿وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ﴾. انتهى[3]

أقول: قد مر أن الأفعال والقدرات التي وكل بها الملائكة أو الأولياء عليهم السلام ليست معزولة

---

(١) صراط النجاة، ج٢ ص٤٥٥.

(٢) صراط النجاة ج١ ص٤٦٦.

(٣) صراط النجاة ج١ ص٤٦٧.

عن قدرة الله وفعله، بل قائمة به، فتسند مآلا إليه وإن كانت لها نسبة ملابسية إلى الموكلين، وهذه النسبة قائمة بالنسبة والإسناد إليه تعالى.

▣ **سؤال ٩٩٣**: ما معنى العبارة الواردة في دعاء رجب اليومي: «لا فرق بينك وبينها إلا أنهم عبادك»؟

الخوئي: لعلها تشير إلى أنهم مع بلوغهم في مرتبة الكمال إلى حد نفوذ التصرف منهم في الكون بإذنك، فهم مقهورون لك؛ لأنهم مربوبون لك، لا حيلة لهم دون إرادتك ومشيتك فيهم بما تشاء. والله العالم. انتهى[(١)]

أقول: ويمكن أن يفسر بأن ظهور الله تعالى في كافة شؤونه بالآيات، والآيات علامات عليه، وصور يظهر بها، فرؤيتها رؤيته، إلا أنها مخلوقة له، فما تقدم من جوابه؟ بيان للتوحيد بالتوسل في مقام الفعل، وما ذكرناه بيان للتوحيد بالتوسل في مقام الصفات والذات.

▣ **سؤال ٩٩٦**: ما حكم قول: أدركنا يا علي، ويا أبا الغيث أغثنا وغير ذلك؟

الخوئي: قول القائل: أدركنا يا علي لا مانع منه وهو يقصد التوسل به إلى الله، وهل هناك مانع من قول الغريق أو الحريق ومن إليهما حين يستغيث بمن ينقذه فيقول: يا فلان أنقذني؟! وهناك آية في القرآن الكريم تؤيد ذلك، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾. صدق الله العلي العظيم.

التبريزي: يضاف إلى جوابه؟ : ويزاد على ذلك قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ﴾. انتهى[(٢)]

---

(١) صراط النجاة، ج٣ ص٣١٧.

(٢) صراط النجاة ج٣ ص٣١٨.

أقول: هذا الجواب منه؟ يقرر أن التوسل قد يكون بمعنى الطلب منهم فيما أقدرهم الله عليه، وأذن لهم في فعله.

كلمات العلماء من الفريقين

قال العلامة الأميني:

هناك جماعة من الحفاظ وأعلام أهل السنة بسطوا القول في التوسل وقالوا: إن التوسل بالنبي جائز في كل حال قبل خلقه وبعده في مدة حياته في الدنيا وبعد موته..

ملف كلمات العلماء من الفريقين

▣ قال الأصفهاني:

يمكن أن يقال إن من جملة فوائد وجود الإمام ﷺ ووظائفه وعاداته ومناصبه على ما يظهر من الروايات إعانة الملهوفين، وإغاثة المستغيثين، بل لا ريب في أن أحدا من الناس إذا كان من رعية رئيس قادر مطاع وبغي عليه، دله أحبته إلى التظلم لدى ذلك الرئيس، ولو ترك ذمه العقلاء بتركه عرض حاجته عليه. انتهى[١]

أقول: يشير إلى أن نصب الله تعالى للنبي وأهل بيته ﷺ ولاة على الأمة، بنفسه يقتضي كونهم شفعاء ووسطاء ما بين الله وخلقه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾[٢].

الدالة على أن حساب الأمم لا يقام إلا بمجي رسول وإمام كل أمة.

---

(١) مكيال المكارم. ميرزا محمد تقي الإصفهاني ج٢ ص٢٤٩.

(٢) سورة يونس (٤٧).

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاءِ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا﴾[2].

فجعل النبي وأهل بيته ﷺ من ذرية إبراهيم وإسماعيل ﷺ أشهادا على الناس، فأعمال العباد مرتهنة في العرض على الله تعالى بحججه من أنبيائه ورسله وأوصيائه.

◘ قال الأميني:

وأما الاستغاثة والنداء والانقطاع وما أشار إليها، فلا تعدو أن تكون توسلا بهم إلى المولى سبحانه، واتخاذهم وسائل إلى نجح طلباتهم عنده جلت عظمته، لقربهم منه وزلفتهم إليه ومكانتهم عنده؛ لأنهم عباد مكرمون، لا لأن لذواتهم القدسية دخلا في إنجاح المقاصد أولا وبالذات، لكنهم مجاري الفيض، وحلقات الوصل، ووسايط بين المولى وعبيده، كما هو الشأن في كل متقرب من عظيم يتوسل به إليه.

وهذا حكم عام للأولياء والصالحين جميعا وإن كانوا متفاوتين في مراحل القرب، كل هذا مع العقيدة الثابتة بأنه لا مؤثر في الوجود إلا الله سبحانه، ولا تقع في المشاهد المقدسة كلها من وفود الزائرين إلا ما ذكرناه من التوسل، فأين هذه من مضادة التوحيد؟! انتهى[3]

أقول: قد مر أن التوسل هو الطريق الحصري للتوحيد، وليس الكلام في عدم المضادة وأصل المشروعية، بل في الضرورة واللابدية.

---

(١) سورة النحل (٨٩).

(٢) سورة الحج (٧٨).

(٣) الغدير ج٣. الشيخ الأميني ص٢٩٢.

▣ **قال الأميني:**

هناك جماعة من الحفاظ وأعلام أهل السنة بسطوا القول في التوسل وقالوا: إن التوسل بالنبي جائز في كل حال، قبل خلقه وبعده في مدة حياته في الدنيا وبعد موته في مدة البرزخ وبعد البعث في عرصات القيامة والجنة وجعلوه على ثلاثة أنواع:

(١) طلب الحاجة من الله تعالى به أو بجاهه أو لبركته، فقالوا: إن التوسل بهذا المعنى جائز في جميع الأحوال المذكورة.

(٢) التوسل به بمعنى طلب الدعاء منه، وحكموا بأن ذلك جائز في الأحوال كلها.

(٣) الطلب من النبيﷺ ذلك الأمر المقصود، بمعنى أنهﷺ قادر على التسبب فيه بسؤاله ربه وشفاعته إليه، فيعود إلى النوع الثاني في المعنى غير أن العبارة مختلفة، وعدوا منه قول القائل للنبيﷺ: أسألك مرافقتك في الجنة.

وقول عثمان ابن أبي العاص: شكوت إلى النبيﷺ سوء حفظي للقرآن، فقال: ادن مني يا عثمان، ثم وضع يده على صدري وقال: اخرج يا شيطان من صدر عثمان، فما سمعت بعد ذلك شيئا إلا حفظت.

وقال السبكي في «شفاء السقام»: والآثار في ذلك كثيرة أيضا، إلى أن قال: فلا عليك في تسميته توسلا، أو تشفعا، أو استغاثة، أو توجها[١].

▣ **قال العلامة الطباطبائي:**

ربما يظن أن ما ورد في الأدعية من الاستشفاع بالنبي وآله المعصومين صلوات الله عليهم، ومسألته تعالى بحقهم، وزيارة قبورهم، وتقبيلها والتبرك

---

(١) الغدير ج٥. الشيخ الأميني ص١٤٥.

بتربتهم، وتعظيم آثارهم، من الشرك المنهي عنه وهو الشرك الوثني، محتجا بأن هذا النوع من التوجه العبادي فيه إعطاء تأثير ربوبي لغيره تعالى وهو شرك، وأصحاب الأوثان إنما أشركوا لقولهم في أوثانهم: إن هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وقولهم: إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى، ولا فرق في عبادة غير الله سبحانه بين أن يكون ذلك الغير نبيا أو وليا أو جبارا من الجبابرة أو غيرهم، فالجميع من الشرك المنهي عنه.

وقد فاتهم أولا: أن ثبوت التأثير سواء كان ماديا أو غير مادي في غيره تعالى ضروري لا سبيل إلى إنكاره، وقد أسند تعالى في كلامه التأثير بجميع أنواعه إلى غيره، ونفي التأثير عن غيره تعالى مطلقا يستلزم إبطال قانون العلية والمعلولية العام الذي هو الركن في جميع أدلة التوحيد، وفيه هدم بنيان التوحيد، نعم المنفي من التأثير عن غيره تعالى هو الاستقلال في التأثير ولا كلام لأحد فيه، وأما نفي مطلق التأثير ففيه إنكار بديهة العقل والخروج عن الفطرة الإنسانية، ومن يستشفع بأهل الشفاعة الذين ذكرهم الله في مثل قوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1] وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾[2]، أو يسأل الله بجاههم ويقسمه بحقهم الذي جعله لهم عليه بمثل قوله مطلقا: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[3] وقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾[4]، أو يعظمهم ويظهر حبهم بزيارة قبورهم وتقبيلها والتبرك بتربتهم بما أنهم آيات الله وشعائره تمسكا بمثل قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا

---

(١) سورة الزخرف (٨٦).

(٢) سورة الأنبياء (٢٨).

(٣) سورة الصافات (١٧١، ١٧٣).

(٤) سورة غافر (٥١).

مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾[١]، وآية القربى وغير ذلك من كتاب وسنة، فهو في جميع ذلك يبتغي بهم إلى الله الوسيلة وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ﴾[٢] فشرع به ابتغاء الوسيلة، وجعلهم بما شرع من حبهم وتعزيرهم وتعظيمهم وسائل إليه، ولا معنى لا يجاب حب شيء وتعظيمه وتحريم آثار ذلك، فلا مانع من التقرب إلى الله بحبهم وتعظيم أمرهم وما لذلك من الآثار، إذا كان على وجه التوسل والاستشفاع من غير أن يعطوا استقلال التأثير والعبادة البتة.

وثانيا: أنه فاتهم الفرق بين أن يعبد غير الله رجاء أن يشفع عند الله أو يقرب إلى الله، وبين أن يعبد الله وحده مع الاستشفاع والتقرب بهم إليه، ففي الصورة الأولى إعطاء الاستقلال وإخلاص العبادة لغيره تعالى، وهو الشرك في العبودية والعبادة، وفي الصورة الثانية يتمحض الاستقلال لله تعالى ويختص العبادة به وحده لا شريك له، وإنما ذم تعالى المشركين لقولهم: «إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى» حيث أعطوهم الاستقلال وقصدوهم بالعبادة دون الله سبحانه، ولو قالوا: إنما نعبد الله وحده ونرجو مع ذلك أن يشفع لنا ملائكته أو رسله وأولياؤه بإذنه أو نتوسل إلى الله بتعظيم شعائره وحب أوليائه، لما كفروا بذلك بل عادت شركاؤهم كمثل الكعبة في الإسلام هي وجهة وليست بمعبودة، وإنما يعبد بالتوجه إليها الله.

وليت شعري ماذا يقول هؤلاء في الحجر الأسود وما شرع في الإسلام من استلامه وتقبيله؟ وكذا في الكعبة؟ فهل ذلك كله من الشرك المستثنى من حكم الحرمة؟ فالحكم حكم ضروري عقلي لا يقبل تخصصا ولا استثناء، أو أن ذلك من

---

(١) سورة الحج (٣٢).

(٢) سورة المائدة (٣٥).

عبادة الله محضا وللحجر حكم الطريق والجهة، وحينئذ فما الفرق بينه وبين غيره إذا لم يكن تعظيمه على وجه إعطاء الاستقلال وتمحيض العبادة، ومطلقات تعظيم شعائر الله وتعزير النبي ﷺ وحبه ومودته وحب أهل بيته ومودتهم وغير ذلك في محلها[1].

أقول: الظاهر أن تأليه المشركين للأصنام والأوثان لم يكن بزعم استقلال تلك الذوات في الوجود عن خلق الباري، ومن الظاهر حصرهم الخلق بالله كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

وإنما إشراكهم في استقلال المشركين بنصب وسائط بينهم وبين الله غير مأذونين فيها، كما تشير إلى ذلك جملة من الآيات التي مرت، وبالتالي فعبودية المشركين للأصنام والأوثان منطلقة من تزلفهم وتعظيمهم لها بغير إذن وأمر من الله، فأطاعوهم وقصدوهم بغير أمر من الله وطاعته، فلم تكن عبودية لله بل طاعة وطوعانية وهي العبودية لغير الله تعالى.

ومن ثم يؤكد القرآن في آيات عديدة كما أشارت إلى ذلك روايات أهل البيت أيضاً، إلى أن جملة العبادات لغير لله كانت في الطاعة لغير الله، وطاعة غير من أمر الله بطاعته، وتعظيم غير من أمر الله بتعظيمه، والتوجه إلى غير من أمر الله بالتوجه إليه، وهو معنى اتخاذ المشركين إلى للأصنام الطينية والأوثان الحجرية، كذا هو معنى اتخاذ الأصنام البشرية والأوثان من بني الإنسان، فالصنم والوثن البشري الذي قد تتخذه جماعة مناوئة للحق هو بنصبهم من يطيعوه بغير أمر الله، ومن يعظمه

---

(١) تفسير الميزان. السيد الطباطبائي ج١٠ ص٢٩٥.

(٢) سورة لقمان (٢٥).

بغير إذن الله بتعظيمه، وبأن يتوجهوا به إلى الله مع إنه يصد عن سبيل الله كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(١).

وكما يشير إلى ذلك قول الصادق ﷺ في ذيل هذه الآية: «والله ما سجدوا لهم وما ركعوا لهم، ولكن أطاعوهم» كيف لا وحقيقة العبودية هي الطاعة والطوعانية كاستحقاق للمطاع بذاته.

وكذا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(٢).

إذ الطوعانية هي الخضوع والانقياد، فالعمدة في الفارق بين التوحيد والشرك، والتوحيد والصنمية هو ما مر، وفي الحقيقة إن القول باستحقاق الطاعة لمطاع لذاته يرجع إلى القول باستقلاله في الحول والقوة، وإلى افتقار العابد المطيع له في ذلك الحول والقوة والوجود.

فالطاعة بداعي الاستحقاق للذات وهي الشرك في الولاية تؤول إلى الشرك في الذات والشرك في الحكم، فالنكير في القرآن على المشركين والوثنيين لا لأنهم يدعون استقلال ذوات الأصنام أو الأرواح المرسلة المرتبطة بها، ولا لزعمهم ضرورة أصل الوساطة والشفاعة بين الخلق والخالق، بل لكون اتخاذها لهم هو بغير الله وإذنه.

ومن ثم فالوثنية والصنمية باقية ضمن أشكال بشرية، كما ورد مستفيضاً في روايات أهل البيت ﷺ: «أن من أطاع وتولى من لم يأمر الله بطاعته وولايته فهو وثن

---

(١) سورة التوبة (٣١).

(٢) سورة يس (٦٠).

يعبد من دون الله»[1]، وفي المقابل إن التوحيد يقام بطاعة وتولي المنصوبين من قبل الله تعالى للطاعة، لكونهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.

---

(١) في معنى ما ذكره الأستاذ روايات كثيرة منها:

▣ في الرواية عن أبي جعفر عليه السلام قال: (لا تتخذوا من دون الله وليجة فلا تكونوا مؤمنين، فإن كل سبب ونسب وقرابة ووليجة وبدعة وشبهة منقطع مضمحل كما يضمحل الغبار الذي يكون على الحجر الصلد إذا أصابه المطر الجود إلا ما أثبته القرآن).

قال امولي محمد صالح المازندراني: (لا تتخذوا من دون الله وليجة فلا تكون مؤمنين) وليجة الرجل: بطانته وخاصته وصاحب سره ومن اتخذه معتمداً عليه، وهو صريح كالآية في آن من اتخذ أميناً في الدين وإماماً ومعتمداً لم يأمر الله تعالى باتخاذه خرج من الإيمان.. شرح أصول الكافي. مولي محمد صالح المازندراني ج١٢ ص٣٣١.

▣ عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: (ولا تتخذوا إلهين اثنين، إنما هو إله واحد) يعني بذلك ولا تتخذوا إمامين، إنما هو إمام واحد). بحار الأنوار. العلامة المجلسي ج٢٣ ص٣٥٧.

▣ الكليني عن محمد بن يحيى عن بن عيسى عن بن محبوب عن عمرو بن ثابت عن جابر قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله: (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) قال: هم أولياء فلان وفلان اتخذوهم أئمة دون الإمام الذي جعله الله للناس إماماً، وكذلك قال: (ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب، إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب، وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا) الآية، ثم قال أبو جعفر عليه السلام: هم والله يا جابر أئمة الظلم وأشياعهم).

قال صاحب البحار بيان:

المشهور بين المفسرين أن المراد بالأنداد الأوثان.. بحارالأنوار. العلامة المجلسي ج٢٣ ص٣٥٩.

▪ سئل آية الله التبريزي:

هل يجوز الاعتقاد بأن النبي والأئمة المعصومين عليهم السلام هم العلة الفاعلية والمادية، والصورية والغائية لجميع الخلائق؟ وهل يجوز إطلاق هذه الألفاظ عليهم؟ وما حكم من يعتقد ذلك؟.

قال في الجواب: إن خلق الدنيا ومن فيها، وكذا خلق الآخرة ومن فيها، وما فيها كله من فعل الله عز وجل ومشيئته، وبما أن الله سبحانه وتعالى حكيم لا يخلق شيئا عبثا، فالغرض من خلق الدنيا وما فيها هو أن يعرف الناس ربهم، ويصلوا إلى كمالاتهم، بإطاعة الله سبحانه وتعالى، والتقرب إليه، وهذا يقتضي اللطف من الله بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، ونصب الأوصياء والأئمة عليهم السلام ليأخذ الناس منهم سبيل الاهتداء، وبما أن الحكمة هي ما ذكر في الخلق حيث يفصح عنه قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وبضميمة قوله سبحانه: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ يعلم أن الغاية من خلق الإنس والجن هي خلق الذين يعرفون الله سبحانه ويعبدونه، ويهتدون بالهدى، والسابقون على ذلك في علم الله سبحانه الذين يعيشون في الدنيا وسيلة لكسب رضا ربهم، والتفاني في رضاه هم الأنبياء والأوصياء والأئمة «سلام الله عليهم أجمعين» والسابقون في هذه المرتبة هم نبينا محمد والأئمة الأطهار «صلى الله عليهم أجمعين» من بعده.

وبذلك يصح القول أنهم علة غائية لخلق العباد، لا بمعنى أن الخالق يحتاج إلى الغاية، بل لأن إفاضة فيض الوجود بسبب ما سبق في علمه أنهم السابقون الكاملون في الغرض والغاية من الفيض، والله العالم[1].

أقول: تقدير كونهم عليهم السلام علة غائية يستلزم كونهم علة فاعلية كما هو مقرر في علوم الحكمة، إلا أن الصحيح إنهم علة غائية في الفعل، وهي ليست علة غائية نهائية، بل العلة

---

(١) صراط النجاة. الميرزا جواد التبريزي ج٣ ص٤٣٦.

الغائية النهائية هي الله تعالى فليس وراء الله تعالى منتهى، كما إنه تعالى العلة الفاعلية الأولى فمنه ينشأ الوجود وإليه يعود ويتقوم، وهم وسائط فيضه والشهداء على خلقه في المعاد.

◙ قال القسطلاني في (المواهب اللدنية):

وينبغي للزائر لهﷺ أن يكثر من الدعاء والتضرع والاستغاثة والتشفع والتوسل بهﷺ فجدير بمن استشفع به أن يشفعه الله فيه. قال: وأن الاستغاثة هي طلب الغوث فالمستغيث بطلب من المستغاث به إغاثته أن يحصل له الغوث، فلا فرق بين أن يعبر بلفظ الاستغاثة أو التوسل أو التشفع أو التوجه أو التجوه؛ لأنهما من الجاه والوجاهة ومعناهما علو القدر والمنزلة، وقد يتوسل بصاحب الجاه إلى من هو أعلى منه.

قال: ثم إن كلا من الاستغاثة والتوسل والتشفع والتوجه بالنبيﷺ كما ذكره في تحقيق النصرة ومصباح الظلام واقع في كل حال قبل خلقه وبعد خلقه في مدة حياته في الدنيا وبعد موته في البرزخ وبعد البعث في عرصات القيامة.

ثم فصل ما وقع من التوسل والاستشفاع بهﷺ في الحالات المذكورة[١].

◙ قال ابن عابدين في حاشية رد المحتار: ج٦ ص ٧١٦:

نعم ذكر العلامة المناوي في حديث: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة، عن العز بن عبد السلام أنه ينبغي كونه مقصورا على النبيﷺ، وأن لا يقسم على الله بغيره، وأن يكون من خصائصه[٢].

أقول: القسم على الله ليس تحتيم شيء على إرادة الله تعالى؛ لأن الله تعالى لا يبرمه

---

(١) الشيخ الأميني. الغدير ج٥ ص ١٤٤.

(٢) العقائد الإسلامية. مركز المصطفى ج٤ ص ٣٦٢.

إلحاح الملحين، وإنما القسم على الله تعالى يرجع إلى استجارة من يقسم بالمقسم به لما للمقسم به من حرمة عند الله تعالى، فيلوذ به بما له من حرمة وجاه عند الله من نعمة الله وسخطه، أو لاستنزال رزقه فهو نوع تشفع بالمقسم به وتوجهاً به على المقسوم عليه، وعلى ذلك فيعم القسم الذي هو نوع استشفاع وتوسل كل من له جاه وحظوة عند الله تعالى وإن كانت مراتب المقسوم به مختلفة في الشفاعة والوسيلة.

▣ **قال الشربيني في مغني المحتاج: ج١ص ١٨٤ خاتمة:**

سئل الشيخ عز الدين هل يكره أن يسأل الله بعظيم من خلقه كالنبي والملك والولي ﷺ فأجاب بأنه جاء عن النبيﷺ أنه علم بعض الناس: اللهم إني أقسم عليك بنبيك محمد نبي الرحمة الخ.

فإن صح فينبغي أن يكون مقصورا عليه عليه الصلاة والسلام؛ لأنه سيد ولد آدم، ولا يقسم على الله بغيره من الأنبياء والملائكة؛ لأنهم ليسوا في درجته، ويكون هذا من خواصه، والمشهور أنه لا يكره شيء من ذلك[1].

▣ **نقل ابن كثير في البداية ج ١ ص٤٥:**

أن ابن تيمية أقر أخيرا في المجلس الذي عقده له العلماء العاملون الربانيون المجاهدون بالتوسل وأصر على إنكار الاستغاثة، مع أنه يقول في رسالة خاصة له في الاستغاثة بجوازها بالنبي فيما يقدر عليه المخلوق.

واعتمد الإمام الحافظ النووي استحباب التوسل والاستغاثة في مصنفاته، كما في حاشية الإيضاح على المناسك له (ص ٤٥٠) و (ص ٤٩٨) من طبعة أخرى، وفي شرح المهذب المجموع (٨، ٢٧٤) وفي الأذكار (ص ٣٠٧) من طبعة دار الفكر، في كتاب أذكار الحج، وص (١٨٤) من طبعة المكتبة العلمية.

---

(١) العقائد الإسلامية ج ٤. مركز المصطفى ص ٣٦٢.

وهو مذهب الشافعية وغيرهم من الأئمة المرضيين المجمع على جلالتهم[١].

أقول: قد مر مراراً أن التوسل والاستغاثة والتوجه والاستشفاع والسؤال كلها من باب واحد وحقيقة واحدة، ذات حيثيات ووجوه متلازمة، فتسويغ أحدها ومنع الأخرى، أو حسبان تباينها ناجم من عدم درك معانيها بغور وعمق ودرجات وأنواع كل منها، وأما تسويغ بن تيمية الاستغاثة بما يقدر عليه المخلوق فقد عرفت أن جملة الأشياء المخلوقة والتي تسأل للداعي هي ذات نسبة إلى الذوات المخلوقة التي هي مجرى الفيض الإلهي المتقوم بتلك النسبة بالإسناد والنسبة إلى الذات الإلهية استمدادا وإيجاداً باعتبار أنه منشأ الوجود.

وقد ذكر القرآن الكريم أفعال كونية مهولة أسندها إلى الملائكة الكرام من دون أن يعني ذلك عزل القدرة الإلهية أو عدم التقوم بها بالحول والقوة والقدرة الإلهية.

▣ قال الآلوسي في تفسيره روح المعاني بعد استعراضه أطراف بحث التوسل وآراء العلماء فيه:

وبعد هذا كله أنا لا أرى بأسا في التوسل إلى الله تعالى بجاه النبيﷺ عند الله تعالى حيا وميتا ويراد من الجاه معنى يرجع إلى صفة من صفاته تعالى، مثل أن يراد به المحبة التامة المستدعية عدم رده وقبول شفاعته، فيكون معنى قول القائل: إلهي أتوسل بجاه نبيكﷺ أن تقضي لي حاجتي، إلهي اجعل محبتك له وسيلة في قضاء حاجتي.

ولا فرق بين هذا وقولك: إلهي أتوسل برحمتك أن تفعل كذا إذ معناه أيضا إلهي اجعل رحمتك وسيلة في فعل كذا.

بل لا أرى بأسا أيضا بالإقسام على الله تعالى بجاههﷺ بهذا المعنى والكلام

---

(١) العقائد الإسلامية. مركز المصطفى ج ٤ ص ٣٦٤.

في الحرمة كالكلام في الجاه..

وقال: إن التوسل بجاه غير النبيﷺ لا بأس به أيضا إن كان المتوسل بجاهه مما علم أن له جاها عند الله تعالى، كالمقطوع بصلاحه وولايته، وأما من لا قطع في حقه بذلك فلا يتوسل بجاهه لما فيه من الحكم الضمني على الله تعالى بما لم يعلم تحققه منه عز شأنه وفى ذلك جرأة عظيمة على الله تعالى[١]. انتهى[٢]

أقول: تعليقا على كلام بن تيمية والآلوسي:

ما ذكره بن تيمية ثلاثة أقسام:

---

(١) الآلوسي. روح المعاني ج٣ ص٢٩٧.

(٢) للآلوسي في المصدر المذكور بحث مطول في مسألة التوسل، والذي يبدو لنقارئ بشكل واضح أن البحث خنيط من الحق والباطل وفيه الكثير من التشويش، وفي آخر البحث ذكر رأيه ويظهر واضحاً من نص كلامه أنه يقبل التوسل بنحو يقرب مما يذكره أعلام الإمامية، لكنه في آخر البحث يعود لنباطل والتشويش فيقول: (إن الناس قد أكثروا من دعاء غير الله تعالى من الأولياء الأحياء منهم والأموات وغيرهم مثل يا سيدي فلان أغثني، وليس ذلك من التوسل المباح في شيء، واللائق بحال المؤمن عدم التفوه بذلك، وأن لا يحوم حول حماه، وقد عده أناس من العنماء شركاً وأن لا يكنه فهو قريب منه.

ولا أرى أحداًممن يقول ذلك إلا وهو يعتقد أن المدعو الحي الغائب أو الميت المغيب يعنم الغيب أو يسمع النداء ويقدر بالذات أو بالغير عنى جنب الخير ودفع الأذى، وإلا لما دعاه ولا فتح فاه، وفي ذلك بلاء من ربكم عظيم، فالحزم والتجنب عن ذلك وعدم الطنب إلا من الله تعالى القوي الغني الفعال لما يريد). انتهى.

ويتبين من كلامه أن الاختلاف بينه وبين الشيعة صغروي وليس كبروياً، بمعنى أن نقطة الخلاف في من يتوسل به لا في أصل التوسل والاستشفاع والإقسام بجاه شخص عنى الله، والذي يشهد لما ذكرته من التشويش وخنط الكلام أن المصحح لطبعة الكتاب وهو (عني عبدالباري عطية) قال عند هذه الفقرة معنقاً عنى كلام المصنف: (هذا هو الحق وهو أنه يتجنب ذلك مطنقاً، وما مال إليه المصنف ذبل ذلك من الجواز هو رأي له غير مقبول فتنبه) انتهى.

وما يجدر أن ينتبه له القارئ الكريم أن أعلام العامة وأن فننوا وجوه الكلام لكي يدلسوا ماهو الحق من معارف القرآن الكريم إلا أن الحق المبين يظهر في طيّات كلامهم وما بين سطورهم.

القسم الأول: التوسل بإيمان الشخص بالنبي ومحبته له.

القسم الثاني: التوسل بدعاءِ النبي و شفاعته.

القسم الثالث: التوسل بذات النبي الشريفة.

وأضاف الآلوسي قسماً رابعاً، وهو التوسل بجاه النبيﷺ عند الله حياً وميتاً بما يرجع إلى صفة إلهية، أي إن محبة الله ورحمته لنبيه.

وليت شعري كيف يعظم الإيمان بالنبيﷺ ويجعل وسيلة دون ذات النبي، مع أن الإيمان لم يكن إيماناً إلا بتعلقه بذات النبي، فهو أصل الإيمان وقوامه، إلا أن يكون الإيمان بالله أعظم من الذات الإلهية، مع أن الإيـمان لم يـحظ بشـرف إلا بلحاظ متعلقة وهو النبيﷺ، فلماذا كل هذه الحساسية والنفرة من سيد الأنبياء.

وكذلك الحال في التوسل بدعاء وطلب النبي وشفاعته، وهل دعاء النبيﷺ وشفاعته الذي هو عمل من الأعمال الصادرة من ذات النبيﷺ أعظم مـن ذات النبيﷺ المقدسة، كذلك يجري الكلام في كلام الآلوسي، فهل جاه النبي غير ذاته المقدسة.

ثم ما الفرق بين رحمة الله ومحبة الله في القسم الرابع التي هي من أفعال الله تعالى وبين ذات النبيﷺ التي هي أيضا من أفعال الله تعالى، بل ذاته؟ هي عين فعل الرحمة الإلهية، كما أشـار إلى ذلك قـوله تـعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(١).

فكيف يفرق بين صفات الله الفعلية وبين ذات النبيﷺ مع أن المآل واحـد، وكأنما التوجه إلى ذات النبيﷺ والتوسل بها مقطوعة الإضافة عـندهم عـن الله تعالى مع أنهﷺ أقرب الخلق لله، وهو وسيلة الوسائل.

---

(١) سورة الأنبياء (١٠٧).

فيقدمون ويتوجهون إلى الله بما هو أقل منـزلة، ويجفون ما هو أكبر مـنـزلة وأوجه مقاما عند الله تعالى، أو يحسبون أن الصفات الفعلية هي غير فعله تـعالى ومغايرة للذوات الشريفة المخلوقة.

▣ قال التاج السبكي:

ويحسن التوسل والاستغاثة بالنبيﷺ إلى ربه، ولم ينكر ذلك أحد من السلف والخلف حتى جاء ابن تيمية فأنكر ذلك وعدل عن الصراط المستقيم وابتدع ما لم يقله عالم، وصار بين الأنام مثلة. انتهى(١)

▣ قال المفسر الشعراوي:

التوسل بالنبيﷺ أو الأولياء مسألة لا يصح أن تكون مثار خلاف من أحد...

ونقول لمن يكفر المتوسلين بالنبي أو الولي: هذبوا هذا القول قليلا، إن حدوث مثل هذا القول هو نتيجة عدم الفهم، فالذي يتوسل إلى الله بالنبي أو الولي هو يعتقد أن له منزلة عند الله.

وهل يعتقد أحد أن الولي يجامله ليعطيه ما ليس له عند اللهﷻ طبعا لا.

وهناك من قال: إن الوسيلة بالأحياء ممكنة، وأن الوسيلة بالأموات مـمنوعة، ونقول له: أنت تضيق أمرا متسعا؛ لأن حياة الحي لا مدخل لها بالتوسل، فإن جاء التـوسل بحضرتهﷺ إلى الله، فإنك قد جعلت التوسل

بحبك لمن علمت أنه أقرب منك إلى الله، فحبك له هو الذي يشفع، وإياك أن تظن أنه سيأتي لك بما لا تستحق(٢).

أقول: قد مر أن التشفع بذات النبي وحبه والإيمان به، إنما صـار له جـزاء مـوفوراً

---

(١) الآلوسي. روح المعاني ج٣ ص٢٩٥ طبعة دار الكتب العلمية.

(٢) يشير الشعراوي في هذا النص الى معنى وهو: إن التوسل بنفسه عمل شرعي له ما يقابله من الجزء الإلهي؛ لأنه يتضمن إثبات حب المتوسل للولي وهو فضيلة قرآنية عظيمة قرر في مقابلها ثواب إلهي جزيل.

وعملاً شريفاً باعتبار تعلقه بذات النبيﷺ فكيف لا يحتفى بما هو أصل في الشفاعة ويتمسك بما هو فرع. انتهى

ثم يقول الشعراوي: والجماعة التي تقول: لا يصح أن نتوسل بالنبيﷺ ؛ لأن النبي انتقل إلى الرفيق الأعلى، نقول لهم: انتظروا قليلا وانتبهوا إلى ما قال سيدنا عمر، قال: كنا في عهد رسول اللهﷺ إذا امتنع المطر نتوسل برسول الله ونستسقي به، ولما انتقل رسول اللهﷺ توسل بعمه العباس، وقالوا: لو كان التوسل برسول الله جائز بعد انتقاله لما عدل عمر بن الخطاب عن التوسل بالنبيﷺ بعد انتقاله، وذهب إلى التوسل بعم النبيﷺ ؟

ونسأل أقال عمر: «كنا نتوسل بنبيك والآن نتوسل إليك بالعباس٧ أم قال: والآن نتوسل إليك بعم نبيك»[1]؟!

أقول: ونعم ما تفطن إليه بأن وجاهة العباس ابن عبد المطلب بإضافته إلى شرفية ذات النبيﷺ المقدسة فالتوسل راجع إلى تلك الإضافة. انتهى

ثم يقول الشعراوي: ولذلك فالذين يمنعون ذلك يوسعون الشقة على أنفسهم؛ لأن التوسل لا يكون بالنبيﷺ فقط، ولكن التوسل أيضا بمن يمت بصلة إلى النبيﷺ، فساعة يتوسل واحد إلى غيره يعني أنه يعتقد أن الذي توسل به لا يقدر على شيء، إنني أتوسل به إلى الغير لأني أعرف أنه لا يستطيع أن ينفذ إلى مطلوبي.

---

(١) يجيب الشعراوي في هذاالكلام عن إشكال مقدر قد ذكره الآلوسي في روح المعاني ج٣ ص٢٩٦ حيث قال: فإنه لو كان التوسل به عليه الصلاة والسلام بعد انتقاله من هذه الدار لما عدلوا الى غيره، بل كانوا يقولون: اللهم إنا نتوسل إليك بنبينا فاسقنا وحاشاهم أن يعدلوا عن التوسل بسيد الناس الى التوسل بعمه العباس، وهم يجدون أدنى مساغ لذلك، فعدولهم هذا مع أنهم السابقون الأولون وهم أعلم منا بالله تعالى ورسولهﷺ وبحقوق الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام وما يشرع من الدعاء وما لا يشرع وهم في وقت ضرورة ومخمصة يطلبون تفريج الكربات وتيسير العسير وإنزال الغيث بكل طريق دليل واضح على أن المشروع ما سلكوه دون غيره. انتهى.

إذن فلنبعد مسألة الشرك بالله عن هذا المجال، ونقول: نحن نتوسل به إلى غيره لأننا نعلم أن المتوسل إليه هو القادر وأن المتوسل به عاجز.

وهذا هو منتهى اليقين ومنتهى الإيمان.

ولكن المتوسل به قد ينتفع وقد لا ينتفع، وعندما توسل سيدنا عمر بالعباس عم النبي كان يفعل ذلك من أجل المطر، والمطر في هذه الحالة لا ينتفع به رسول الله، لذلك جاء بواحد من آل البيت وكأنه قال: «يا رب عم نبيك عطشان فمن أجله نريد المطر».

فإذن فتوسل عمر بن الخطاب بعم النبي دليل ضد الذين يمنعون التوسل بالنبي بعد الانتقال إلى لرفيق الأعلى. انتهى[1]

أقول: قد عرفت أن التوسل هو طريق التوحيد القويم الحصري، وأن الصد عنه يؤل إلى التشبيه أو التعطيل وهو الشرك بعينه. انتهى

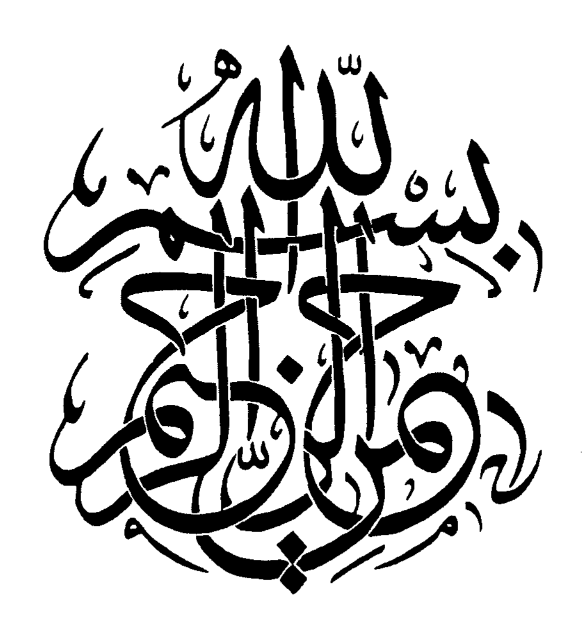
---

(١) محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي ج٥ ص٣١٠٧.

محتويات الكتاب

الفصل الثاني / تحليل مفاد وأبعاد يا محمد ويا علي

الفصل الثالث / ملفات التوسل


بسم الله الرحمن الرحيم